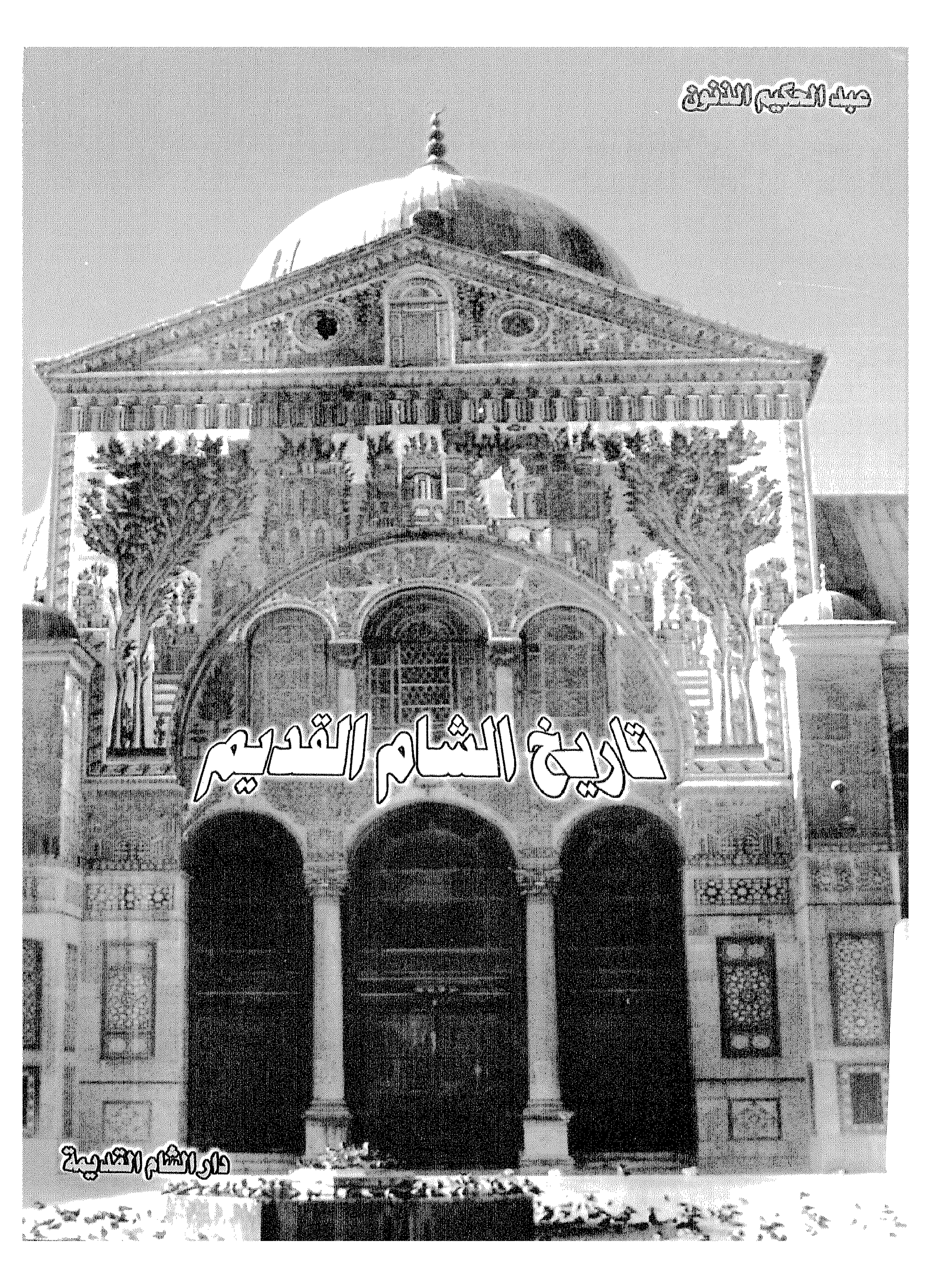

عبد الحكيم الذنون
تاريخ الشام القديم
دار الشام القديمة



تاريخ الشام القديم

◆ تاريخ الشام القديم

◆ عبدالحكيم الذنون

◆الناشــر: دار الشـام القديمـة للترجمـة والطباعـة والنـشر والتوزيـع

دمشق ـ سوريا، ص.ب ٦٢٩٢ هاتف : ٦٣٢٧٩٠٧

◆ تنضيد : عبدا لله جندلي هاتف : ٣١١٩٧٠٨

◆ الطبعة الأولى ـ دمشق ١٩٩٩م

◆ ١٩٩٩/١٠٠٠

عبد الحكيم الذنون

تاريخ الشام القديم




بسم الله الرحمن الرحيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد :

ظهر الإنسان القديم في العالم في الحقبة الرابعة أو الزمن الرابع أو (الرباعي Quaternaire) وهو عصر مهم ويفيدنا في دراسات عصور ما قبل التاريخ، ويسمى (عصر الإنسان) أو (حقب الإنسان Anthropozoique)، حيث ظهر الإنسان في هذا العصر ووجدت آثاره الأولى ضمن الطبقات الجيولوجية العائدة للرباعي.

إن بداية الحقب الرباعي تجلت قبل ثلاثة ملايين سنة، ويُقسم الرباعي إلى قسمين لكل منهما ميزاته وعناصره الأساسية وهما:

القسم الأول :

ـ عهد البليستوسن (Pleistocene) وتعني العهد الحديث كثير التقلبات المناخية وهو (العصر الحجري القديم حسب التسمية الآثارية)، والبليستوسن عهد بارد سُمي سابقاً بالعهد الجليدي (Dyluvium) وقد استمر منذ بداية الرباعي، أي منذ ثلاثة ملايين سنة وحتى حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد.

القسم الثاني ـ وأما العهد الثاني من الرباعي فهو الهولوسن (holocene) وقد بدأ منذ حوالي عشرة آلاف سنة ق.م ولا زال مستمراً إلى حد الآن..

وإن أهم ميزات العصر الحجري القديم (البليستوسن) هي التقلبات المناخية التي حصلت فيه، حيث تغير المناخ على فترات مُتتالية بين البارد والدافىء، وقد تجلت هذه التغيرات في المناطق الشمالية من نصف الكرة الشمالي على شكل عصور جليدية (Glciations) فصلت بينها عصور مطيرة دافئة (Interjlaciations).

تُقسم العصور الحجرية في سورية إلى عدة أقسام مختلفة لها ميزاتها وعناصرها وسماتها الأساسية وهي كالآتي:

أولاً - العصر الحجري القديم (الباليوليت): وهو أقدم العصور الحجرية وأطولها مدة، وقد بدأ في أفريقيا منذ حوالي ٥,٢ مليون سنة وانتهى في حوالي ١٢ ألف سنة ق.م، عاش الإنسان فيه مُتنقلاً خلف الصيد والالتقاط، ونظراً لزمنه الطويل وللسمات المُميزة لكل مرحلة من مراحله فقد قَسَمَهُ الباحثون إلى عدة عصور أصغر وهي:

أ - الباليوليت الأدنى – ويُؤرخ بين حوالي ٢,٥ مليون سنة ق.م وحتى ١٠٠٠٠٠ سنة ق.م.

ب - الباليوليت الأوسط – ويؤرخ بين حوالي ١٠٠٠٠٠ سنة ق.م وحتى ٣٥٠٠٠ سنة.

ج - الباليوليت الأعلى - ويؤرخ بين حوالي ٣٥٠٠٠ سنة ق.م وحتى ١٢٠٠٠ سنة ق.م.

ثانياً - العصر الحجري الوسيط (الميزوليت): وقد بدأ منذ حوالي ١٢٠٠٠ سنة ق.م وانتهى في حوالي ٨٠٠٠ سنة ق.م، وهو عصر له سماته وخصائصه حيث أنه عصر انتقالي بين الباليوليت الذي سبقه والنيوليت الذي يليه.

ثالثاً - العصر الحجري الحديث (النيوليت): وقد بدأ منذ حوالي ٨٠٠٠ سنة ق.م، وهو عصر الاستقرار والزراعة وتدجين الحيوانات.

رابعاً - العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت): ويمثل هذا العصر المرحلة الانتقالية بين عُصور ما قبل التاريخ والعصُور التاريخية القديمة، ويُسمى أيضاً عصر ما قبل الكتابة أو ما قبل العمران ويمتد بين حوالي ٤٠٠٠-٣٠٠٠ سنة ق.م.

إن التواريخ المُثبتة أعلاه والخاصة بالعصور الحجرية هي أرقام مُدورة وعامة وتنطبق بشكل عام على العراق وبلاد الشام وأن تاريخ عُصور ما قبل التاريخ يختلفُ بين منطقة وأُخرى من العالم، ذلك لأن العُصور الحجرية ابتدأت وانتهت في أوقات مُختلفة ومُتفاوتة بين منطقة وأخرى، فما نُسميه نحن في بلادنا بالعصور التاريخية التي تلي عُصور ما قبل التاريخ، هي في أوروبا عصور حجرية كالدول الأسكندنافية حيثُ كانت مُغطاة بالجليد في تلك الحقبة.

إن تشكيلات عُصور ما قبل التاريخ السوري القديم في السرير الأعلى لنهر الكبير الشمالي يُمكن تثبيتها على الشكل التالي:

١ ـ تشكيلة «ست مرخو»: وهي أقدم تشكيلة جيولوجية أثرية يعودُ تاريخها لحوالي مليون سنة، وقد اعتمدت أثرياً من خلال اكتشاف بئر عميق وجدت فيه أدوات صوانية فريدة من نوعها في العالم.

٢ ـ تشكيلة العهد المطيري الأخير (١٠٠ ألف سنة) وتضم:

أ ـ تشكيلة منطقة «الشير»: وقد وُجدت فيها أدوات صوانية من العهد الحجري القديم (باليوليت) والوسيط (ميزوليت) الآشولي الأخير.

ب ـ تشكيلة منطقة الجريمقية: وقد وُجدت فيها أدوات صوانية تعودُ إلى العهد الحجري الأعلى (٤٠ ألف سنة).

ج ـ تشكيلة منطقة بكسا، وجبل إدريس، وقد وُجد فيها تشكيلة بحرية تعودُ إلى حوالي (٧٠٠ ألف سنة).

إن الأعمال الآثارية لفان لير وديز موند كلارك كشفت على أن موقع (اللطامنة) والواقع على مسافة أربعين كيلو متراً شمالي مدينة حماه ــ المجرى الأوسط لنهر العاصي ـ يُشكل أحد مُعسكرات الصيادين الأوائل الهامة في الهواء

الطلق، وقد بقي على حالته التي تُرك عليها منذ نصف مليون عـام تقريباً، وهـو واحد من أربعة مواقع بقيت سليمة من ذلك الدور (دور البليستوسين الأوسـط) في العالم.

كما عثر في هذا الموقع على فُؤوس حجرية وأدوات أُخرى وبقايا حيوانية مـن العصـر البليستوسيني، كمـا تم اكتشـاف بقايا حيوانيـة تعـودُ إلى العصـر الجليدي، ويشير علماء الآثار إلى أن هـذه المجموعـات الأثريـة المكتشـفة تُشـكلُ أكبر مجموعة ظهرت حتى الآن، وقد تم التأكد من تاريخها بشكل دقيق بواسـطة البقايا الحيوانية والمُستحاثات المُرافقة لها في عصر «مندل»، ومن حسن الحـظ أن الكثير منها بقيت في مكانها الأصلي بعد هجـرة الموقـع دون اضطـراب، وتُشـيرُ الأدوات الصوانية إلى تنوع ملحوظ في درجة الإتقان.

وتُعتبرُ مُكتشفات (يبرود) قرب دمشق من أقدم مـا عُـرف مـن الصناعـات الحجرية لدى إنسان الملاجيء والكهوف في الشرق الأوسط، وتُوجد مُكتشفات من مغاور يبرود تمثلُ شواهد على وجـود الإنسـان وتنـوع حضارتـه الـتي ترقـى بتاريخها إلى ٢٠٠ ألف سنة.

وفي تل الرماد ـ قرب قطنا ـ اكتشفت لُقى وأدوات عديدة تعود إلى فترات مُبكرة من التاريخ، وقد تمكن عُلماء الآثار والتاريخ القديم من تأْريخهـا بواسـطة مادة الكربون المشع ١٤ (C. 14) في الأجسام العضوية، وثبت من خلال النتـائج أنها تعودُ إلى فترة زمنية تقدر بـ ٦٢٥٠ سنة قبل الميلاد، كما تمكن العُلماء مـن التعرف على أنـواع عديـدة لحبوب مختلفـة كـان الإنسـان يسـتعملها في حياتـه كقُشور الشعير والحنطة والعدس، وقد دلـت المعلومـات المُستقاة مـن التنقيبـات الآثارية أن إنسان تل الرماد قد اعتمد في حياته منذ البداية على الزراعة.

وفي تل بقرص الواقع في منطقة الخابور اكتشفَ فان لير مُعطيات آثارية تعودُ إلى الألف السابع ق.م، كما اكتشف فان لوون في مواسم التنقيب الأثري في سنوات (٧٧ ـ ٧٨ ـ ١٩٧٩) مواقع سكنية هامة عُرفَ من خلالها طريقة البناء المتفردة التي اعتمدها الأهالي في بناء منازلهم، وهذا الموقع يُعتبرُ من المواقع الأولى المهمة في العالم القديم التي عرفت وأجادت استخدام الجص في البناء، وهو أيضاً من المواقع الأولى في العالم التي عرفت زراعة الشعير والدخن كما عرفت تربية الأغنام والماعز.

وفي جرف العجلة والكوم ـ قرب تدمر ـ اكتشفت في الكُهوف العديد من الأدوات الصوانية التي استخدمها الإنسان في حياته العامة وقدرت بـ (٦٠ ألف قطعة) وتُمثلُ هذه الأدوات مراحل تحول هامة من حضارة الصوان الخشن إلى الصوان المشظوف.

وفي تل المريبط (الواقعة على الفرات) ضم هذا التل العديد من القطع الصوانية والكسر الفخارية التي تدلُ على بقايا استيطان بشري قوامه الرماد وشظايا العظام والمحار والفحم الخشبي والحصى المُحترق، كما اكتشفت في تل المريبط العديد من النصال المشرشرة ورحى وأشجار للجرش وسحق الحبوب تُمثلُ نماذج فريدة للصناعة الحجرية المحلية التي تعود بتاريخها إلى الألف الثامن ق.م[1].

(١) الدكتور سلطان محيسن ـ بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ ـ الصيادون الأوائل.

إنسان ما قبل التاريخ

١- المنطقة.. والمقومات :

لقد وفرت منطقة بلاد الشام كل مُقومات عيش واستمرار إنسان ما قبل التاريخ، وتتوزع الأماكن التي استقرَ فيها الإنسان القديم على امتداد المنطقة حيثُ أننا نجد آثار هذا الإنسان في كل مكان تقريباً، وبخاصة في وديان الأنهار وعلى شواطىء البحيرات والبحار، وهذه المناطق هي التي تُعطينا أيضاً أفضل المعلومات عن التقلبات المناخية والبيئية التي عَرفتها بلاد الشام في الزمن الرابع وكان لها أكبر الأثر على إنسان ذلك العصر.

لقد ضمت التشكيلات الجيولوجية الرُباعية الكثير من آثار الإنسان الأول وبخاصة الأدوات الحجرية، وساعدت الدراسات المُتنوعة على تحديد العلاقة بين تلك الأدوات والطبقات الجيولوجية التي تقوم فيها، وهي أسرة نهرية أو شواطىء بحرية نشأت بفعل التقلبات المناخية التي حصلت في الزمن الرابع.

لقد ثبتَ أن بلاد الشام عرفت في ذلك الزمن على الأقل أربعة عُصور مناخية باردةَ مطيرة فصلتها عن بعضها عصور أخرى جافة كانت بدورها تُقابل العُصور الجليدية والعصور الماطرة التي حصلت في أوروبا.. وقد كشفت دلائل هذه العُصور الماطرة والجافة بشكل خاص في وديان الأنهار حيثُ تظهر على شكل مصاطب نهرية مُتدرجة في ارتفاعاتها وفي بُعدها عن مياه النهر، وإن أفضلها أتت من أحواض نهر العاصي ودجلة والفرات والليطاني ونهر الأردن.

لقد اختلطت آثار جماعات عصور ما قبل التاريخ مع تلك المصاطب وأصبحت أحد المؤشرات الهامة على التاريخ المناخي والحضاري لهذه المنطقة.. ففي مُعظم وديان الأنهار الهامة نُلاحظ وجود أربع مصاطب نهرية أو أكثر تدلُ على حصول أربعة عصور باردة هطلت فيها أمطار غزيرة جداً أدت إلى تشكل هذه المصاطب من خلال عمليات الحت والترسيب التي أحدثتها الأمطار الغزيرة الهاطلة، كما أن المناطق الساحلية في بلاد الشام قد احتوت على آثار شواطىء بحرية قديمة هي الآن في اليابسة، وترتفعُ بمستويات مُختلفة فوق سطح البحر قد تصل إلى ٢٥٠ متراً كما في منطقة القرداحة في سورية حيثُ تُوجد دلائل الشاطىء الأكثر قُدماً في البحر المتوسط.

وهذا يدلُ على أن البحر أيضاً قد مر بتقلبات مناخية أدت إلى حُصول حالات مد وجزر، إذ امتدت مياهه لتُغطي مساحات واسعة من اليابسة ثم انحسرت وتراجعت إلى مُستويات أخفض، وتدلُ الشواطىء البحرية القديمة على أن البحر المتوسط قد عرفَ ثلاث مراحل مد، تعاصراً مع المراحل الدافئة التي ذاب فيها الجليد وأدى إلى ارتفاع مستوى مياه المحيطات، وقد فصلت بين مراحل الجزر هذه العصور الجليدية التي كانت فيها كميات مياه البحار أقل..

لقد درست دلائل التقلبات المناخية الرُباعية في بلاد الشام سواء كانت مصاطب نهرية أو شواطىء بحرية وأُعطيت الرموز العلمية المُتفق عليها عالمياً، ورقمت من الأحدث إلى الأقدم كما أعطيت تسميات محلية لتمييزها عن غيرها.. وتجري الآن بحوث مُستفيضة من أجل إحداث إطار جيولوجي ـ آثاري عام واحد لكل بلاد الشام يُوضح طبيعة بيئة ومناخ وحضارة تلك البلاد في عصور ما قبل التاريخ ويساعد على المقارنة بين مختلف مناطقها وبينها وبين مناطق أخرى، وقد حققت هذه البحوث نجاحاً علمياً باهراً في الربط بين المناطق

الساحلية في سورية ولبنان بخاصة لكن للأسف فإن فلسطين المحتلة لا زالت خارج هذا الإطار بسبب احتلال العدو الصهيوني، حيث أن ظروف الاحتلال لا تسمح بالتنسيق العلمي ـ العملي والنظري ـ مع بقية أقطار بلاد الشام، ومهما يكن من أمر فإننا نعتقد بأن الإطار الجغرافي للمشرق العربي كان متشابهاً إلى درجة كبيرة كما أن مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام قد امتلكت العديد من الصفات المشتركة بلورت هوية وانتماء المنطقة العربية منذ العصور القديمة.

إن المعلومات الحالية عن آثار الإنسان الأول ضئيلة جداً وهي مقتصرة على القارة الأفريقية وقد عُثر عليها في حوض (نهر أومو) في أثيوبيا، وكانت عبارة عن أدوات حجرية صغيرة من الكوارتس أرخت بطريقة (البوتاس ـ آرغون) على حوالي (٢,١٦٠,٠٠٠ و٢,١٢٠,٠٠٠ سنة) خلت، وبذلك تُعتبر منطقة أومو هي التي أعطت أقدم آثار معروفة للإنسان حتى الآن في العا لم.

لقد مر حوالي نصف مليون سنة بعد أن سكن نهر أومو، ولم يُعثر فيها على أية دلائل أثرية للإنسان، وبعد ذلك ظهرت معطيات أكثر كثافة وأهمية ولكنها بقيت أيضاً مقتصرة على القارة الأفريقية، وخير ما يمثل هذه المرحلة هي مواقع منطقة (أولدوفاي) في تنزانيا حيث جرت تنقيبات لويس ليكي وزوجته منذ مطلع هذا القرن واستمرت سنوات طويلة.. لقد حددت في أولدوفاي سويات آثارية ـ جيولوجية سُميت أسرة beds وبلغ عددها خمسة، وفي هذه الأسرة وجدت أدوات حجرية تنسب إلى ما يسمى بحضارة الحصى Pebble Cluture لأن الأدوات الحجرية فيها كانت مصنعة على حصى نهرية.. وتعتبر حضارة الحصى أو حضارة أولدوفاي الحضارة الأولى والأقدم في عصور ما قبل التاريخ، ووجدت أيضاً في هذا السرير الأول هياكل عظمية بشرية عائدة

للإنسان الأول (أوسترا لوبيتك)[1] وللهومو هابيل[2]، وفي السرير الثاني من أولدوفاي ظهرت الفؤوس اليدوية وهي أدوات متطورة عن الحصى وأكثر فعالية وأوسع انتشاراً.

وفي الوقت نفسه تقريباً ظهرت منطقة ملكا كونتوري، Melka Kunture في الحبشة حيث كشفت فعاليات الباحث جان شافايون عن حوالي مائة موقع تراوح زمنها بين (٧٠٠,٠٠٠ ـ ٢٠٠,٠٠٠ سنة) خلت، وقد وجدت فيها بقايا آثارية ومستحاثية غزيرة إضافة إلى هياكل عظمية بشرية وأكواخ وغير ذلك.

إن المواقع المبكرة تنسب للهومو هابيل ولكن مع اختفاء هذا الإنسان منذ حوالي مليون ونصف سنة وظهور الهوموار كتوس، ازدادات الجماعات البشرية الأولى انتشاراً وأصبح يعثر على آثارها بكثرة سواء في نفس المناطق التي سكنت من قبل الهومو هابيل أو في مناطق جديدة سكنت لأول مرة في أفريقيا وآسيا وأوروبا.

ويُؤكد الدكتور سلطان محيسن في كتابه (بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ ـ الصيادون الأول)، بأنه لم يتم لحد الآن العثور في بلاد الشام على آثار للهومو هابيل ولحضارة الحصى المعروفة من شرقي أفريقيا والمؤرخة على عصر

---

[1] الأوسترالوبيتك (AUSTRALPITIC): وهو الإنسان الأول الذي صنع الأدوات والأسلحة لأول مرة.

[2] الهومو هابيل (Homo Habil) أي (الإنسان الصانع)، وهو الإنسان المتفرغ من الأوسترالوبيتك، وهو أكثر تطوراً، وقد عاش في بيئة شبه صحراوية غنية بنباتات السفانا كما هو الحال الآن، وعثر على البقايا العظمية ـ أسنان وجماجم ـ لهذا الإنسان في طبقة جيولوجية أُرخت بحوالي ٢,٥ مليون سنة، أي على القسم الأول من العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأدنى).

البليستوسن الأدنى، أي أنه لا توجد من هذه البلاد آثار أقدم من حوالي مليون سنة خلت، ولكن أقدم آثار الإنسان في بلاد الشام تؤرخ على نهاية البليستوسن الأدنى وبداية البليستوسن الأوسط، وتعتبر معلوماتنا عن هذا أفضل نسبياً بسبب بعض المواقع المنقبة لأن هذه المنطقة قد خضعت لبحث واسع النطاق منذ مطلع القرن العشرين، ثم استمرت أعمال التحري والتنقيب الآثاري بين الحربين العالميتين الأولى والثانية فقد أتى إلى بلاد الشام باحثون من جامعات ومراكز بحث علمي أكثرهم فرنسيون تبعهم أنكليز وأمريكيون وقد نقب هؤلاء في عشرات المواقع وجمعوا آلاف القطع الأثرية التي ملأت متاحف دمشق وبيروت وعمّان والقدس.

ورغم كثافة التقارير والمنشورات التي صدرت فإن الصورة لا تزال يشوبها كثير من الغموض لأسباب كثيرة لعل من أهمها اختلاف الباحثين واختلاف مناهج عملهم ومصطلحاتهم واستخدام تسميات مختلفة لنفس الظواهر مما خلق أنماطاً في طرق فهمها، علاوة على تطبيق المعايير التقنية والنمطية والتسميات والأطر الأوروبية في دراسة حضارات بلاد الشام القديمة مما جعل المختصين يتكلمون بلغات مختلفة عن حضارات واحدة.

وفي السنوات العشر الأخيرة بدأ تحسن ملموس وواضح في مستوى النشاطات والفعاليات الآثارية وشموليتها، ولا بد أن اكتمال البحوث الحديثة التي تجري الآن في بلاد الشام سوف يكون تمهيداً ناضجاً وأساساً لأرضية علمية أكاديمية أصلب في المستقبل.

٢ـ مجتمعات إنسان ما قبل التاريخ في بلاد الشام:

إن أقدم آثار الإنسان في بلاد الشام تعود إلى العصر الحجري القديم الأدنى الذي بدأ في بلاد الشام منذ حوالي مليون سنة واستمر حتى حوالي (١٠٠,٠٠٠ سنة) مضت، وهذا العصر يُرادف ما يسمى بأوروبا بالحضارة الأشولية[١]. ولقد سكنت منذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية ولبنان وفلسطين من قبل إنسان (الهوموار كتوس)[٢] الذي وصل إلى بلاد الشام قادماً من الجنوب من القارة الأفريقية حيث وجدت الآثار الأقدم له والمحددة بحوالي نصف مليون سنة قبل أن يتحرك إلى مناطق جديدة في الشمال.

ويُؤكد الدكتور سلطان محيسن بأن انتشار المواقع وتتابعها الزمني يدلُ على أن الهوموار كتوس سلك في طريقه إلى بلاد الشام خطين اثنين يُشكلان ممرات طبيعية بين أفريقيا وآسيا، الأول ساحلي أي على امتداد ساحل البحر الأبيض المتوسط والخط الثاني داخلي على طول الإنهدام السوري ـ الأفريقي أو (الأخدود الأفريقي العظيم) الممتد من جنوب وشرق أفريقيا جنوباً مروراً بالبحر الأحمر فوادي عربة فوادي الليطاني وحتى وادي نهر العاصي في سوريا شمالاً[٣].

---

(١) ظهرت الحضارة الأشولية في أوروبا، وانتشرت في أرجاء العالم القديم في عصور ما قبل التاريخ انتشاراً واسع النطاق، واشتهرت بتصنيع الفؤوس اليدوية.

(٢) الهوموار كتوس HOMO-ERECTUS (الإنسان منتصب القامة): وهو نوع جديد من البشر مُتطور في صفاته الفيزيولوجية والحضارية عن الإنسان الصانع (هومو هابيل)، وظهر منذ حوالي مليون ونصف سنة، أي في القسم الأول من العصر الحجري القديم الأدنى، وأن تسمية ـ الإنسان منتصب القامة ـ لا تحمل المعنى المقصود ذلك لأن الكائنات ذات القامة المنتصبة قد وجدت قبل هذا الزمن ببضعة ملايين من السنين، كما إن الأوسترالوبتيك الذي سبق هذا الإنسان بحوالي مليون سنة كان منتصب القامة، وقد أطلق على (الهوموار كتوس) أيضاً تسمية (البيتاكانتروب).

(٣) الدكتور سلطان محيسن ـ بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ ـ الصيادون الأوائل.

لقد عاشت مجتمعات القسم الأول الأدنى من العصر الحجري القديم الأدنى (الباليوليت الأول الأدنى) بين حوالي (١٠٠٠٠٠٠ ـ ٧٠٠٠٠٠ سنة)، وهي تعاصر ما يسمى بالآشولي القديم في بقية المناطق من العالم، وتمثل طلائع مجتمعات ما قبل التاريخ ليس فقط في بلاد الشام وإنما في منطقة غربي آسيا كذلك.. ومن بلاد الشام تحركت تلك المجتمعات شرقاً إلى وسط وشرق آسيا وشمالاً إلى أوروبا.

وأتت المواقع الممثلة لهذه المرحلة الباكرة من عصور ما قبل التاريخ من المناطق الساحلية لبلاد الشام ومن المناطق الداخلية في تلك البلاد أيضاً.. فقد عثر في منطقة (ست مرخو) في حوض نهر الكبير الشمالي في اللاذقية على أقدم آثار لإنسان ما قبل التاريخ معروفة حتى الآن من خارج القارة الأفريقية، حيث وجدت في المصطبة العليا لهذا النهر المنسوبة إلى ما يسمى بالسرير النهري الرابع (الرباعي النهري الرابع)، أو (عصر ست مرخو) والتي ترتفع عن مستوى النهر الحالي حوالي ١٣٠ متراً، عثر على مجموعة من الأدوات الحجرية هي فؤوس وقواطع ومعاول وسواطير وشظايا ونوى.

إن أنماط هذه الأدوات البدائية المصنعة بالطرق الحجرية الثقيلة والكمخة الكثيفة التي تحملها علاوة على وضعها الجيمورفولوجي تؤهلنا بأن نؤرخها على ما يقارب المليون سنة وهذا أبكر تاريخ للإنسان في بلاد الشام معروف لحد الآن.. وفي نفس الوقت الذي سكن فيه حوض نهر الكبير الشمالي كانت جماعات بشرية أخرى تجوب حوض العاصي ووجدت آثارها في منطقة خطاب إلى الغرب من حماه وهي عبارة عن عدد قليل من الأدوات الحجرية الصغيرة كالشظايا والنوى والقواطع ولكن لا وجود بينها للفؤوس اليدوية مثل التي وجدت في ست مرخو، مما يدل على أن الجماعات البشرية التي سكنت حوض

العاصي في ذلك الوقت كانت لها تقاليد حضارية مختلفة عن تقاليد جماعات نهر الكبير الشمالي.. إذا صنعت كل منطقة أدواتها وأسلحتها المختلفة مما يجعلنا نسلط الضوء ومنذ هذا الزمن الباكر، عن تقليدين حضاريين متميزين، الأول اشتهر بصناعة الفؤوس اليدوية بينهما استخدم ممثلو التقليد الثاني الأدوات الصغيرة، ويبدو أن هذين التقليدين قد وجدوا أيضاً في فلسطين ولبنان كما دلت على ذلك المواقع الساحلية والمواقع الداخلية في هذين القطرين.. إن موقع العبيدية على الضفة اليمنى لبحيرة طبرية في فلسطين هو أشهر وأهم موقع من هذا العصر عرف في بلاد الشام حتى الآن.. لقد سكن العبيدية خلال زمن طويل من قبل جماعات الهوموار كتوس التي تراكمت آثارها عبر أكثر من عشر طبقات وأن بعض هذه الطبقات بقي سليماً رغم تعرضه لحركات التصدع والالتواء التي حصلت في وادي الأردن في تلك الحقبة، وقد خلفت هذه الحركة البنيوية صعوبات في تفسير الطبقات الآثارية وفي تاريخها.

لقد أتى من الطبقات الآثارية المعاصرة للشواطىء المتتالية لبحيرة طبرية كميات كبيرة من الأدوات الحجرية على رأسها الفؤوس والمعاول والقواطع وهذه الأدوات هي أكثر تطوراً من أدوات موقع ست مرخو السوري مما يدل على أن موقع العبيدية هو أحدث زمناً من موقع ست مرخو أو ربما معاصراً له ولكن ليس أقدم منه كما يعتقد البعض.. وقد استخدمت في تاريخ العبيدية طرق مختبرية متطورة بينها الطريقة المغناطيسية القديمة التي دلت على أن عمر الموقع يعود إلى حوالي (٧٠٠٠٠٠ سنة) أي أنه يعود إلى المراحل المتأخرة من عصر الباليوليت الأدنى الأول، ويقترح آخرون له تاريخاً قديماً جداً يقدر بـ (١,٤ مليون سنة) استناداً على دراسة البقايا الحيوانية.

ومن جهة أخرى فقد عثر في موقع العبيدية على أربعة أجزاء من جمجمة وأسنان دلت دراستها المتأنية أنها تعود إلى نوع الهوموار كتوس، وهي بذلك أقدم هياكل عظمية إنسانية أتت من بلاد الشام حتى الآن.

ووجدت آثار مجتمعات الهوموار كتوس الباكرة في مواقع أخرى من بلاد الشام مثل برج قناريت على ساحل لبنان الجنوبي الذي أتت منه أدوات حجرية تشبه تلك التي وجدت في موقع خطاب في وادي العاصي السوري إضافة إلى مواقع أخرى من سورية أعطت أدوات حجرية بينها فؤوس يدوية متنوعة مثل شيخ محمد وجبل إدريس في حوض نهر الكبير الشمالي.

ويضيف الدكتور سلطان محيسن بأن (آثار هذا العصر هي على العموم نادرة ومواقعه صغيرة باستثناء العبيدية إلا أنها تشكل دليلاً كاملاً على الوجود الإنساني المبكر في بلاد الشام قبل أية منطقة أخرى في آسيا أو أوروبا، ورغم ندرة الآثار فإنها ذات تنوع واضح، وما التباين بين جماعات صنعت الفؤوس اليدوية وأخرى لم تستخدمها وإنما اكتفت بالقواطع الصغيرة، إلا الدليل الواضح على هذا التنوع، ومن القضايا المثيرة أيضاً تزامن الفؤوس الحجرية مع القواطع علماً بأن هذه القواطع قد سبقت زمنياً مرحلة تصنيع الفؤوس).

أما عصر الباليوليت الأدنى الثاني فيؤرخ بحوالي (٧٠٠٠٠٠ـ ٢٥٠٠٠٠) سنة مضت، وهو يرادف العصر الآشولي الأوسط في أوروبا والعالم، وفي هذا العصر ازداد عدد سكان بلاد الشام وتوضحت هويتهم الحضارية فبرزت إلى حيز الوجود حضارات محلية أصيلة تطورت بأشكال مختلفة في مختلف المناطق الساحلية والداخلية، وبقيت الأدوات الحجرية المؤشر الأساسي على مجتمعات هذه المرحلة، ولكن بدأت تظهر معطيات أثرية أخرى تصاعدت أهميتها

باستمرار.. لقد حصلت في ذلك الوقت تجديدات هامة سواء في تقنيات تصنيع الأدوات الحجرية أو في نمط الحياة، فتعمقت ابتكارات العصر السابق وأصبحت الأدوات أكثر دقة وتنوعاً واستمر الاعتماد على الفأس اليدوية بعد أن طورت وأخذت أشكالاً مختلفة بعضها متطاول مدبب أو بيضوي أو على شكل مثلث أو قلب وأصبحت الأدوات الصغيرة أكثر عدداً وتنوعاً وقل عدد الأدوات الكبيرة القاطعة الحضارية السابقة التي اعتمدت على تقليدين متميزين واحد عرف الفؤوس والآخر لم يعرفها فظهر الفرق واضحاً بينهما في معظم المناطق في بلاد الشام ولقد أصبحنا في عصر الباليوليت الأدنى الثاني نستطيع التحدث عما يسميه المختصون بالمراكز الحضارية التي عاشت فيها جماعات صنعت كل منها أدواتها الخاصة التي تطورت على امتداد زمن طويل فيما استخدم سكان السواحل الفأس العريضة ذات الشكل البيضوي.

لقد فضل سكان المناطق الداخلية الفأس اليدوية الطويلة والمدببة وساد هذا التخصص سائر بلاد الشام الساحلية والداخلية مما يؤدي بنا إلى أن نلمس ومنذ هذا العصر بوادر تجانس حضاري شمل أرجاء البلاد بأسرها.

إن موقع (اللطامنة)[1] في سورية هو أهم موقع أثري معروف حتى الآن من ذلك العصر.. وقد تم اكتشافه في الستينات من هذا القرن، حيث عثر ضمن طبقة من الترسبات الناعمة والعائدة للسرير النهري الثالث ـ عصر اللطامنة ـ على بقايا معسكر بقي سليماً رغم مرور أكثر من نصف مليون سنة عليه، وكشفت التنقيبات الآثارية عن وجود أرضية سكن أصلية لم يلحق بها تخريب كبير إذ بقي كل شيء في مكانه كما تركه السكان الأوائل فقد احتوى المعسكر

---

(١) يقع موقع (اللطامنة) على بعد ٤٠ كيلو متراً شمال غرب حماه.

على عدة آلاف من الأدوات الحجرية بينها فؤوس يدوية متطاولة وكبيرة دقيقة الصنع ندر أن وجد ما يُشابهها من هذا العصر في العالم، وقد رافقت تلك الفؤوس معاول وقواطع ومقاشط وسواطير وأدوات متنوعة بعضها ثقيل وأخرى خفيفة.

لقد وجدت في اللطامنة دلائل باكرة للبناء والنار هي الأولى من نوعها في هذا المجال.. إذ كشفت عن مجموعات منتظمة من الأحجار الكبيرة التي نقلت إلى الموقع من مقلع مجاور، وكانت هذه الأحجار تسند جدران أكواخ من الجلد والأغصان والأعشاب تشبه خيام البدو التي لا تزال تستخدم لحد الآن، ولكن الزمن أتى على هذه الأكواخ ولم يبق ما يدل عليها إلا تلك الأحجار الكبيرة، وهذا البناء هو أقدم دليل من بلاد الشام ومن خارج أفريقيا على قيام مجتمعات الهوموار كتوس ببناء أكواخ في العراء وهو دليل تحرر من الاعتماد الكلي على المغاور والملاجئ الطبيعية.

كما عُثِرَ في موقع اللطامنة على أحجار محترقة تدل على أن السكان قد استفادوا من النار سواء عندما كانت تلك النار تشتعل بشكل طبيعي أو ربما أنهم أوقدوها بانتظام.. إن مجمل مُكتشفات موقع اللطامنة تدل على أنه سكن من قبل جماعة صغيرة من الناس تراوح عددها ما بين ١٠ ـ ١٥ شخصاً، أقاموا في الموقع لمدة قصيرة اقتصرت على موسم أو موسمين، وقد اصطادوا الحيوانات الكبيرة والمتوسطة كالفيل ووحيد القرن وفرس الماء والجمل والحصان والثور والغزال والوعل وغيرها..

كما التقطت الثمار البرية كاللوز والزعرور، التي نمت في حوض العاصي الغني الذي كان أشبه بغابة في حين انتشرت الأحراج على المرتفعات المحيطة به،

بينما كان مناخه أكثر برودة بقليل مما هو عليه الآن، وكما أشرنا فإن موقع اللطامنة هو الموقع الوحيد في المشرق العربي الذي بقي سليماً من عصر الباليوليت الأدنى الثاني.

إن الأدوات الحجرية المؤرخة على هذا العصر أتت من مناطق عديدة في بلاد الشام بعضها أعطى فؤوساً يدوية مثل (جب جنين) في لبنان و(جسر بنات يعقوب) و(أفرون) في فلسطين، وبعضها لم يستخدم سكانه الفؤوس مثل (أم قطفة) - السويات (g2,g1,f,f3) و(الطابون) - السوية g — في فلسطين، ومواقع (وادي عابت) و(بحصاص) و(رأس بيروت II) في لبنان، والملجأ الرابع في (يبرود) في سورية.

وحول عصر الباليوليت الأدنى الثالث فإنه يمثل المرحلة الأخيرة من الباليوليت الأدنى ويحدد بالفترة (٢٥٠٠٠٠ — ١٠٠٠٠٠ سنة) ويوازي ما يعرف عالمياً بالعصر الأشولي الأعلى.. وقد تابعت مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام تطورها في هذا العصر أيضاً، ويلاحظ ازدياد واضح في عدد السكان الذين انتشروا ولأول مرة في مناطق جديدة تقع إلى الشرق من الأخدود الأفريقي الكبير (الإنهدام السوري الأفريقي) فوصلوا إلى البادية والفرات في سورية والعراق وإلى الشرق من نهر الأردن والبحر الميت في فلسطين، وهكذا بدأ من هذا العصر أقام إنسان ما قبل التاريخ الذي أصبح ينتمي إلى نوع مُتطور من الهومواركتوس في كل المناطق الجغرافية لبلاد الشام، ولم ينقطع عن العيش في تلك المناطق حتى نهاية العصور الحجرية.

لقد أضاف الهوموار كتوس المتطور ابتكارات جديدة ومتنوعة فتابع التقدم في تصنيع الأدوات الحجرية وحسن تقنياتها وظهرت أنواع جديدة منها وبقيت

الفؤوس اليدوية حتى هذا العصر تلعب الدور الرئيسي وتحتل المكانـة الأولى بـين مجمل أنواع الأدوات الأخرى.. وكانت تلـك الفـؤوس أكـثر دقـة وتنوعـاً فقـد استخدمت في صنعها مطرقة ناعمة من الخشب أو العظم مما ساعد علـى إخـراج أشكال منتظمة دقيقة وقشيبة.

وقـد تقـدم العمـران في هـذا العصـر في المغـاور والكهـوف بما يتـلاءم مـع حاجات السكن الطويل، وجرت الاسـتفادة بشـكل أفضـل مـن النـار فحفـرت المواقد اللازمة، وقد وجدت آثار هذا العصر ضمن التشـكلات الجيمورفولوجيـة العائدة إلى السرير النهري الثاني (عصر أبو جمعة).

ويعتبر موقع (القرماشي) في الحوض الأوسط لنهر العـاصي في سـورية أهـم مواقع هذا العصر.. لقد اكتشف هذا الموقع في السبعينات أثناء المسح الآثاري ــ الجيمورفولوجي الذي قامت به بعثة فرنسية بإدارة بول سلانفيل، وتم تنقيبه مـن قبل بعثة سورية ـ فرنسية مشـتركة بـإدارة الدكتـور سـلطان محيسـن وفرنسـيس أور، وكشف عن معسكر نادر من نوعه غير مخرب سكن من قبل جماعة بشـرية صغيرة تنتمي إلى نوع متطور من الهوموار كتوس، أقامت في المكـان لزمـن قصـير جداً ربما لم يتجاوز بضعة أسـابيع تاركـة بقاياهـا الـتي غطتهـا طبقـة مـن التربـة الحمراء محفظتها سليمة رغم مرور حوالي ٢٠٠,٠٠٠ سنة على هجر الموقع.

وجدير بـالذكر أنـه في موقـع آخـر معـاصر للقرماشـي وهـو حـوض (نهـر الأبرش) في منطقة طرطوس كشف عـن مواقـع غنيـة بينهـا موقـع (أرض حمـد) الذي يعتقد أيضاً بأنه معسكر غير مخرب ولكنه لم ينقب.

وهناك مواقع أخرى مُشابهة للقرماشي أتت من مغارة (الطابون) ـ السورية f ـ ومغـارة (أم قطفـة) ــ السـورية (١) ــ ومـن (معـان بـاروخ) و(هولـون) في

فلسطين، وفي (رأس بيروت IV,III) في لبنان، ومن موقع (عين الأسد) ومنطقة (الأزرق) في الأردن وغيرها.

وبين أواخر عصر الباليوليت الأدنى أي في نهاية مجتمعات الهوموار كتوس وبين بداية عصر الباليوليت الأوسط أي في بداية ظهور المجتمعات النياندرتالية، حصل عصر انتقالي يؤرخ بين حوالي (١٥٠ - ٨٠ ألف سنة) مضت، وفي هذا العصر حصلت تغيرات حضارية وربما عرقية هامة وعاصفة اجتاحت بلاد الشام كلها، وشكلت الميزة الهامة لهذه المرحلة حصلت فيها عملية انتشار تدريجي (Diffusion) أي انتشار تدريجي متصاعد للناس والأفكار والمعتقدات، وحصل تطور مهم في التقنيات سميت «اللفلوازية».

لقد اعتمدت التقنية اللفلوازية على اختيار نوى رقيقة وخفية حضرت من كل جهاتها من أجل استخراج قطع ذات أشكال محددة سلفاً، وقد بلغت التقنية اللفلوازية أوجهاً في العصر اللاحق وعلى يد إنسان النياندرتال[1].

لقد ازداد في هذا العصر استخدام الأدوات الخشبية والعظمية، وهي في مُعظمها حراب لصيد الحيوانات التي بدأ الناس يستفيدون من جلدها أيضاً إذ أصبح الجلد شائع الاستعمال سواء في صنع الملابس أو في فرش البيوت، وأتقن

---

[1] إن المرحلة التي تفصل بين اختفاء الهوموار كتوس وبين ظهور نوع جديد آخر هو إنسان (النياندرتال NIANDERTAL) هي مرحلة غامضة ومعقدة جداً، لأننا لا زلنا لا نعرف تماماً طبيعة العلاقة التطورية بين الهوموار كتوس والنياندرتال، وبين هذه الأنواع ونوع الإنسان العاقل (الهوموسابينس HOMO SIENPLS) الذي ظهر في العصر اللاحق، ونستطيع القول بأن منذ حوالي ١٠٠٠٠ سنة أي في مطلع العصر الحجري القديم الأوسط (الباليوليت الأوسط) ظهر نوع ثالث من البشر كان أكثر تطوراً سواء في شكله الفيزيولوجي أو في إنجازاته الحضارية من الهوموار كتوس، وقد عُثِرَ عليه لأول مرة في وادي نياندر NIANDER في ألمانيا ومن هنا جاءت تسمية النياندرتال الشائعة.

إنسان النياندرتال استخدام المطرقة الخشبية والعظمية وتمكن من إنتاج أدوات غاية في الدقة والمهارة وذات قيم جمالية وإبداعية تعتبر المؤشر الأول على ظهور الفن البدئي الأول لإنسان العصر الحجري القديم.

لقد تزامنت التغييرات التي حصلت في المرحلة الانتقالية مع العصر المطير الفاصل الأخير الذي يُعاصر ما يسمى في أوروبا بالعصر الجليدي الفاصل (ريس ـ فيرم)، ولم يكن لهذه التحولات نفس السمات في مختلف المناطق رغم وجود العديد من الصفات المشتركة بينها.

ولا يزال الغموض يكتنف هذه المرحلة حيث تتداخل وتتشابك الحضارات، ومهما يكن من أمر فإن الصورة العامة للمجتمع تدلُّ على أن الناس لا زالوا يعيشون منتقلين خلف الصيد والالتقاط، وقد ارتبط الإنسان بأرضه سواء أكان في الجبال أو السواحل أو الصحارى، وظهرت حضارات مختلفة أخذت تسميات عديدة.

وتعتبر الحضارة اليبرودية نسبة إلى موقع (يبرود) شمالي دمشق من أكثر الحضارات المشرقية تميزاً، وقد اكتشف آثار عصور ما قبل التاريخ في يبرود في ملاجىء (وادي سكفا) حيث ظهرت الحضارة اليبرودية في ملجأ الأول الذي كشفت فيه عن عدة طبقات حضارية بلغ عددها ٢٥ طبقة، وقد سكن هذا الملجأ من قبل جماعات بشرية مختلفة تعاقبت على المكان على امتداد العصر الانتقالي والعصر الذي تلاه أي (الباليوليت الأوسط)، وتركت هذه الجماعات آثاراً مختلفة وهي أدوات حجرية وعظمية ومواقد وبقايا عظمية ومستحاثية، وتعتبر الطبقات اليبرودية من أكثر الطبقات تميزاً بأدواتها الحجرية والتي أكثرها أصالة هو «المقحف اليبرودي» الذي يتميز بالحواف المتلاقية والمشذب بشكل متدرج.

لقد أظهرت التحريات الآثارية أن اليبروديين عاشوا بين ١٥٠ ـ ١٠٠ ألف سنة مضت وانتشروا على منطقة واسعة في فلسطين جنوباً مروراً بلبنان وحتى البادية السورية شمالاً، ودلت البقايا العظمية التي وجدت في موقع (الزطية) في فلسطين، أن إنسان هذا العصر كان من نوع الهوموار كتوس المتطور، ومن الحضارات المشرقية الهامة في هذا العصر الانتقالي الحضارة المسماة (ما قبل الأورينياسية) التي عثر روست على آثارها في الطبقات ١٣ و١٥ من ملجأ يبرود الأول، وقد اشتهرت هذه الحضارة بتصنيع النصال والحراب التي تنسب عادة إلى الإنسان العاقل (الهومو ساينبس) في العصر اللاحق، ولكنها في يبرود سبقت هذا الإنسان بحوالي خمسين ألف سنة..

وتقدم حوضة (الكوم) في بادية تدمر نموذجاً فريداً لتعايش جماعات بشرية كثيرة ومختلفة استفادت من خيرات المنطقة وأقامت بجوار العديد من الينابيع الطبيعية التي جف بعضها بينما لا يزال قسم منها جارياً إلى الآن، وقد تجمعت حول هذه الينابيع طبقات آثارية غنية بلغت سماكة بعضها حتى ٢٠ متراً كما هو الحال في موقع (بئر الهمل) و(أم التلال) و(الندوية) وغيرها من المواقع التي ظهرت فيها الأدوات الحجرية والبقايا المستحاثية الأخرى بغزارة لم يعرف لها نظير في العالم حتى الآن..

لقد ظهرت مئات الألوف من الأدوات الحجرية والبقايا العظمية متوضعة في طبقات جيولوجية سليمة أمكن استخدام الطرق الحديثة في تاريخها حيث أرخت الطبقات اليبرودية الانتقالية بواسطة طريقة اليورانيوم ـ ثوريوم من حوالي ١٥٠ ـ ١٠٠ ألف سنة.

لقد صنع سكان الكوم في ذلك العصر أدوات حجرية متعددة النماذج بقدر تعدد هؤلاء السكان، فمنهم جماعات استخدمت الفأس اليدوية وهناك جماعات فضلت المقحف اليبرودي وجماعات ثالثة أبدعت الحراب الهملية التي شكلت قفزة في تاريخ صناعة الأسلحة نظراً لكفاءتها العالية في الصيد.

وفي مطلع العصر المطير الرابع والأخير المعاصر للعصر الجليدي الأخير - فيرم - في أوروبا، دخلت مجتمعات ما قبل التاريخ في مرحلة جديدة تقدر بين حوالي (١٠٠,٠٠٠ - ٣٥,٠٠٠ سنة) مضت ويطلق عليها اسم العصر الحجري القديم الأوسط أو (الباليوليت الوسط) وفي هذه المرحلة ظهر نوع جديد من البشر هو إنسان النياندرتال حاملاً معه الحضارة الموستيرية أو (اللفوازية الموستيرية) كما أطلق عليها البعض في بلاد الشام، وقد اختفى في ذلك الزمن الموزاييك الحضاري الذي ساد العصر السابق وتوارى الهومواركتوس تاركاً المسرح لخلفه النياندرتال الذي كانت جماعته أكثر عدداً وانتشرت على مساحات جديدة لم تسكن من قبل، فوصلت إلى مناطق سيبيريا في الشمال وامتدت حتى شرق آسيا وإلى جوار المناطق الاستوائية في القارة الأفريقية.

لقد طور النياندرتاليون في بلاد الشام التقنية اللفوازية التي ظهرت بوادرها مع العصر السابق، وقد وجدت مواقع النياندرتال في كل مكان تقريباً من بلاد الشام وهي إما مواقع مكشوفة أو ملاجيء ومغاور صخرية سكنت ليس فقط في عصر الباليوليت الأوسط وإنما في العصر الذي سبقه والعصر الذي تلاه.

إن عصر الباليوليت الأوسط في بلاد الشام هام جداً لأنه شهد عملية تطور النياندرتال وظهور الإنسان العاقل (هومو سابينس) وأن العديد من المواقع المشرقية مثل (الطابون) في فلسطين، و(عدلون) في لبنان، و(يبرود) في سورية،

أظهرت تطوراً مستمراً منذ الباليوليت الأدنى مروراً بالعصر الانتقالي بين الباليوليت الأدنى والباليوليت الأوسط وصولاً إلى عصر الباليوليت الأوسط.

إن المواقع التي وجدت فيها آثار المجتمعات النيادرتالية في بلاد الشام أكثر من أن تحصى ولكن لا بُدَّ من ذكر أشهرها مثل (كهف الدوارة) و(جرف العجلة) قرب تدمر، و(أم التلال) و(أم قبية) و(بئر الهمل) في منطقة الكوم، إضافة إلى مغاور (جبال سمعان) في منطقة وادي عفرين بحلب.

وفي فلسطين كشف ومنذ بداية هذا القرن عن مغاور ومواقع مكشوفة أصبحت ذات شهرة عالمية بسبب احتوائها على الهياكل العظمية النياندرتالية المتطورة مثل مغارة (الطابون) و(العمود) و(السخول) و(جبل قفزة) وغيرها.

ومع ظهور النياندرتال - إنسان العصر الحجري القديم الأوسط - نستطيع التحدث عن حياة روحية لإنسان ما قبل التاريخ، لأنه ثبت أن إنسان النياندرتال كان أول نوع يثبت لدينا أنه مارس شعائر ومُعتقدات محددة تدلُّ على درجة عالية من التقدم الفكري لم يصلها أسلافه من قبل، وكانت حياته الدينية أعلى مستوىً من حياته الاقتصادية فهو أول من دفن موتاه مما ساعد على العثور على الكثير من الهياكل العظمية المحفوظة جيداً في العديد من المواقع.

وهناك من مناطق أخرى من العالم معلومات تدلُّ على أن النياندرتال قد أكل مثل الهومواركتوس اللحم البشري وبخاصة النخاع، حيث عُثِرَ في فرنسا ويوغسلافيا وإيطاليا على جماجم نزع نخاعها، وعلى عظام نساء، إما صغيرات في السن أو عجائز وقد قطعت وقرضت بالأسنان وألقيت بقرب الموقد الذي جرت حوله الشعائر المتعلقة باللحم البشري، لأن هذه العادة على ما نعتقد لم تكن تمارس لإشباع غريزة الجوع وإنما عكست معتقدات دينية آمنت بها تلك

المجتمعات التي كانت تُفكر بالموت مثلما فكرت بالحياة وكان لها من هذا الموت موقفاً محدداً مُعتقدة بأنه لا ينهي حياة أفرادها مما دفعها على متابعة الاعتناء بهم ودفنهم باهتمام وتزويدهم بالأدوات والأطعمة والألبسة التي ظن أنهم سوف يحتاجونها في العالم الآخر.

وفي النصف الثاني من العصر المطير الأخير المُرادف لعصر فيرم الجليدي في أوروبا، أي منذ حوالي ٣٥ ألف سنة مضت، دخلت البشرية في عصر جديد استمر حتى حوالي الألف الثاني عشر ق.م أطلق عليه اسم العصر الحجري القديم الأعلى ـ الباليوليت الأعلى ـ وفي مطلع هذا العصر اختفى النياندرتال وظهر نوع جديد من البشر تطور على ما يبدو من النياندرتال الفلسطيني وهذا النوع هو (الهوموسابينبس) أي (الإنسان العاقل) جدنا المباشر والأقرب لنا من كل الأنواع البشرية التي عاشت في عصور ما قبل التاريخ.

لقد صنع الإنسان العاقل أدوات حجرية جديدة أهمها النصال الطويلة التي استخرجها من نوى موشورية الأشكال، وصنع من تلك النصال حراب صيد فعالة قذفها على الأرجح بالقوس وليس باليد كما كان في العصر الذي سبقه، واستخدم بكثافة المقاشط والأزاميل والمخارز والسكاكين، وأتقن ولأول مرة بشكل واضح تقنيات تصنيع الأدوات والأسلحة العظمية من قرون الحيوانات، وبذلك أصبحت الآثار العظمية من الدلائل الزمنية والحضارية الهامة على مجتمعات ذلك العصر، ومن الأدوات العظمية الرئيسية تعد الرماح والصنانير والخطاطيب والإبر والمخارز وقبضات الأدوات الحجرية.

وحدث تطور نوعي وكمي في مجال البناء فأقيمت المساكن الكبيرة ذات الأشكال البيضوية والدائرية التي رصفت أرضها بالحجارة وقسمت من داخلها

إلى مناطق للسكن والنوم وإلقاء الفضلات وتصنيع الأدوات، وزودت البيوت بالمواقد الضرورية المبنية بشكل منتظم وبلغت تلك البيوت مساحات كبيرة أحياناً اتسعت لعدة أُسر، وهذا ما يجعلنا نتحدث عن مجتمعات تخطت مرحلة الجماعة الصغيرة الأولى وأصبحت على مستوى القبيلة المؤلفة من عدة جماعات أو أسر، ولكن رغم القدرة الواضحة للإنسان العاقل على البناء فقد استمر في سكن المغاور والملاجىء الطبيعية التي نسقها كيفما أراد، وقد جسد الإنسان العاقل مشاعره ومُعتقداته عبر كل أنواع الفنون كالنحت والرسم والحفر التي وجدت على جدران عشرات المغاور والملاجىء.

وعلى الرغم من كون الاكتشافات المميزة لحضارة الإنسان العاقل أتت من أوروبا فإن دور بلاد الشام وسائر المشرق العربي لم يكن هامشياً فلم يغب الإنسان عنها كلياً وإنما دفعته ظروف معينة مناخية وذاتية وغيرها إلى اختيار أماكن محددة والاكتفاء بما هو ضروري من أجل استمرار عيشه، وقد وجدت الآثار العائدة لعصر الباليوليت الأعلى والمنسوبة إلى الإنسان العاقل في مواقع مختلفة مثل مغارة (الواد) ومغارة (الأميرة) في فلسطين، و(الملجأ الثاني) في (يبرود) بسورية، ومنطقة (الكوم) و(تدمر) في سورية أيضاً، و(كسار عقيل) في لبنان، وعلى ضوء التنقيبات الآثارية التي جرت في هذه المواقع وفي غيرها نستطيع إيجاز صفات مجتمعات هذا العصر بأنها بقيت تعتمد على الالتقاط والصيد، وأن هذا النشاط قد مُورس في ذلك الحين بتخصيص أكبر وإدراك أوسع للبيئة ومواردها.

بدايات الاستقرار البشري في بلاد الشام

١- مرحلة التحولات:

تعتبر الفترة الواقعة بين الألف التاسع والألف السادس ق.م من الفترات الهامة جداً في تاريخ عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام، ففي هذه البقعة نضجت قبل أي مكان آخر من العالم جملة من التحولات الناضجة.

لقد اعتمد إنسان عصري (البليستوسين) و(الهولوسين) بفعل قدرته على الانتقال على الصيد والتقاط الغذاء البري، وبناء على طبيعة الموارد المتوفرة وعلى نوعية الجماعات البشرية المحدودة من حيث العدد، استطاع ذلك الإنسان أن يتدبر أمر استقراره بسهولة داخل المساحة المتوفرة في الملاجيء الطبيعية مثل الكهوف والمغاور في أسفل الصخور، وفي أغلب الأحيان نعثر على مخلفات ذلك الإنسان في مثل تلك الأماكن، بيد أن الأمر يختلف تماماً عندما يتعلق الأمر بالقرية الزراعية التي برزت إلى حيز الوجود في العصر الحجري الحديث (النيوليت)، فمثل تلك القرية مستوطنة ثابتة فوق بقعة من الأرض وكانت تعيش فيها جماعات بشرية تقطن البيوت المشيدة وتنتج الغذاء وتعرف الصناعة مثل شظف الصوان وتشظية الكدرات وصقل الحجارة وتشكيل الفخار وتمارس على ما يبدو طقوس دينية لها أعراف ومناسك معينة.

إنه تحول هائل وانتقال تمهيدي متميز كما يسميه تشايلد: (ثورة العصر الحجري) نظراً لاحتوائه في مجالات شمولية واسعة النطاق تتعلق بكافة جوانب الحياة لدى الجماعات البشرية اجتماعياً واقتصادياً وتقنياً وآيديولوجياً، وقد

نزامنت هذه التحولات الجذرية والتطورات الهائلة في فترة قصيرة، ولقد أمكن الأخذ بمفهوم تلك الثورة الحجرية عندما أظهر علماء الآثار خلال تنقيباتهم في مواقع عديدة من بلاد الشام، كافة الابتكارات مُتمثلة في الكشف عن قرى ذلك العصر وأدواته الصوانية والحجرية وفي العثور على بقايا النباتات والحيوانات الداجنة.

إن النضوج المبكر حدث في بلاد الشام التي كانت الموطن الأصلي للثورة الحجرية، لكن التحريات المستفيضة التي تمت منذ عام ١٩٣٤م حتى الآن في أرجاء بلاد الشام عدلت النظريات الأولى إلى حد مقبول، شملت تلك الثورة حقبة أطول بكثير مما كان يعتقد، إذ امتدت منذ فترة نشوء البيوت الأولى المشيدة في الخلاء في الألف الثالث عشر ق.م في موقع (عين جويف) حتى فترة القرى تحمل سمات وخصائص العصر الحجري الحديث (نيوليت) إلا أن تاريخ نشوئها لم يكن قبل الألف السادس ق.م.

وتستحق تلك الظاهرة أن يطلق عليها اسم ـ التوطن ـ أو ـ الاستقرار البشري ـ وهذا ينطبق على عملية مستمرة لم تتوطد كلياً في أي يوم من الأيام ذلك لأن مناطق معينة من الكرة الأرضية بقيت مجهولة حتى أيامنا الراهنة حيث بدأ الإنسان يستقر فيها ويشكل جماعات متنامية داخل قرى مؤلفة من مساكن مبنية ويعيش على موارد طبيعية ثابتة، والوصول إلى ـ القرية الزراعية، حقق الوحدة بين أفراد الجماعة وأعطى لحياتهم مغزى وأهمية في إطار التطور البشري، لا سيما وأن القرية هي القاعدة الأساسية للحضارة المادية وأن سلم ذلك الارتقاء وعناصره ظهر أولاً في بلاد الشام والمشرق العربي.

على خلاف العادة أثبتت نتائج التنقيب الآثاري في موقع أريحا (يريحو) مدينة القمر بفلسطين أنه من الممكن أن تجهل جماعة بشرية صناعة الفخار وصقل الحجارة بالرغم من تأسيسها قرية راقية مطوقة بأسوار دفاعية وهذا ما حدث فعلاً إبان العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار الفلسطيني المبكر، كذلك أثبتت نتائج التنقيب في عين الملاحة أن الجماعات البشرية عرفت الاستقرار في قرية خلال العصر النطوفي لكنها لم تعرف إنتاج القوت علماً بأن الباحثين افترضوا منذ زمن طويل وجود تزامن بين ظاهرتي الاستقرار وإنتاج القوت، يضاف إلى ذلك أن الأمثلة الأثنوغرافية الحية والأبحاث الأخيرة التي قام بها كل من (هول) و(فلايزي) على مخلفات الألف السادس ق.م في موقع (داح لوهران) بإيران أثبتت أن وجود القرية ليس مرادفاً لوجود الاستقرار أو التوطن البشري الدائم بل يمكن أن تكون القرية مركزاً لاستقرار موسمي.

وفي منطقة بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن)، حيث بدأت الأدلة الآثارية تنمو فيها بصورة ملحوظة سنأخذ بعين الاعتبار ستة عوامل مستقلة كمتغيرات لم تكن أصولها مستقلة عن بعضها البعض لكنها ستشكل الأساس بهذا الصدد:

١ ـ الخروج من الكهف وتأسيس القرى المبنية في العراء.

٢ ـ درجة استقرار الناس في تلك القرى.

٣ ـ القرية بحد ذاتها كإنجاز معماري وتطور خططها ومدلولاتها.

٤ ـ إنتاج القوت.

٥ ـ التطور التكنولوجي والتقنيات الجديدة.

٦ ـ التطور الفكري كما يتجلى في الفن أو في مراسم الدفن.

إن العوامل المثبتة أعلاه تحدد السلوك الإنساني في مجالات عديدة متميزة وهي كيفية تجمعه وكيفية استقرارهه وكيفية سكنه وكيفية غذائه وكيفية استعماله وكيفية اعتقاده.

وتكمن أهمية الاستقرار البشري ونشوء القرى الأولى في أنهما يعتبران الشرارة التي أوقدت المشعل الذي حول الإنسان بواسطته الطبقة المحيطة به وانفرد عن غيره من الكائنات بمهمة تزيين عالمه بالحدائق والحقول والبساتين وأصبح سيد عالمه ومالكه كما يقول ديكارت..

لقد كان السكن في الملاجيء الطبيعية ذات المزايا المناخية التي تقي الإنسان من تقلبات الطقس، من السمات المميزة لحضارة العصر الحجري القديم مثلما ذكرنا آنفاً، وعندما تحدثنا عن موضوع ـ الخروج من الكهوف والمغاور ـ لم يكن المقصود هو تأسيس مساكن جديدة خارج نطاق الكهوف والمغاور بل الهجرة المتلاحقة من تلك الكهوف والتخلي عن نمط سكني معين لاعتبارات مناخية، ويبدو أن الطقس كان عاملاً حاسماً في ذلك النزوح والانتقال، فالنتائج حول تحليل غبار الطلع في بحيرة زيربار في جبال زاجروس تفيد بأن الحرارة بدأت تدب في طقس العراق وبلاد الشام في أواخر حقبة البليستوسين بين (١٤٠٠٠ ـ ١١٠٠٠ سنة ق.م)، وقد رافق ذلك أن تحولت البوادي البادرة التي كانت تغطيها أشجار الأرتيميسيا، تدريجياً إلى مغارات مُعشبة تكتفيها أشجار الفستق والبلوط مما يقيم الدليل على قيام مناخ حار ورطب، وفي هذا الوقت بالذات خرجت الحبوب البرية من ملاجئها الطبيعية التي كانت تحتمي بها طوال الحقبات الباردة كي تنتشر في الأطراف الجبلية في العراق وبلاد الشام.

ويمتد تعاقب الطبقات الأثرية للعصر الحجري القديم في كهـف شـانيدار[١] في شمالي العراق حتى (٨٥٠٠ ق.م)، وتجدر الإشارة إلى أن كافة مواقـع العصـر الحجري القديم المكتشفة حتى الآن في العـراق وإيـران وحـول بحـر قزويـن هـي كهوف ومغاور وملاجىء.

وتتوافق الفترة بين (١٤٠٠٠ - ١٢٠٠٠ ق.م) في بلاد الشام - من الناحيـة الزمنيـة - مـع تقنيـات أواخـر العصـر الحجـري القديـم الـتي اعقبـت حقبـة الأورانيسيان، وتعرف تلك الفترة باسم الكيباريان وهـي تتميز بكـثرة الأدوات الصوانية صغيرة الحجم وكثرة نصال السكاكين المطروقـة وغـير المطروقـة فضـلاً عن المثاقب الدقيقة والقطـع المثلثـة، وقـد عـثر الآثـاريون علـى هـذه الأنـواع في مختلف أرجاء بلاد الشام كالنقب ولبنان وضفاف الفرات.

ويعقب تلك المرحلة في حوالي (١٢٠٠٠ ق.م) في كل من فلسطين ولبنـان مرحلة جديدة من الصناعة الصوانية الدقيقـة، وقـد تميزت بهيمنـة الأدوات الـتي تأخذ الشكل المستطيل القريب من شبه المنحرف.

وفي معظم الملاجىء الطبيعية التي جرى التنقيب الأثري فيها حتى الآن نجـد أن صناعتها الصوانية تكمل دور انقطاع حلقة العصر الحجري القديم وهـذا مـا يتجلى في مواقع عديدة مثل (الكبارة) و(الواد) و(كسار عقيل).

كما وجدت الصناعات المذكورة أعلاه في خـارج المغـاور في موقـع (عـين جويف) في الأردن[٢]، حيـث تم كشـف عـن بقايـا كـوخ مشـيد داخـل حفـرة مستديرة كالبيوت المستديرة التي نشأت في الحقبة النطوفية.

---

(١) يقع كهف شانيدار في جبال زاجروس الشرقية في شمال شرقي العراق.

(٢) وجدت هذه التقنيات في منطقة الأغوار.

وتجدر الإشارة إلى أنه تم العثور في تلك المواقع وخاصة في عين جويف والعون، على أدوات كان يعتقد بأنها لم تظهر للوجود قبل الحقبة النطوفية مثل أدوات السحق والجرش (رحى ـ مدق ـ هاون) ونصال المناجل، وإن دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على أن إنتاج الغذاء الذاتي قد عرفه الإنسان ــ على الأقل ـ في مناطق نمو الحبوب البرية بنفس القدر الذي عرفه فيما بعد إنسان الحقبة النطوفية عندما كان يعيش على قطف الحبوب وجنيها.

٢ ـ الحقبة النطوفية وظهور القرى الأولى :

ظهرت الحضارة النطوفية للوجود في حوالي ١٠٠٠٠ سنة ق.م، وتتمتع هذه الحضارة بأهمية كبيرة بالقياس لموضوع الخروج من الكهوف.

تتجلى الميزات الأساسية لتلك الحضارة في وجود الأدوات الصوانية ذات الأشكال الهندسية أو في هيمنة الشظايا الصوانية، يضاف إلى ذلك نسب مختلفة من الأدوات الصوانية مثل المثلثات مختلفة الأضلاع أو متساوية الساقين، والنصال المحدبة، والمنقاش الدقيق، وأدوات مثل نصل المنجل والمقشط والمنقاش والمخرز والمثقاب المسنن.

وهناك ثمة ارتقاء محسوس قد تم خلال الألفي سنة التي عاشتها هذه الحضارة كما يبدو أن الصقل المائل لوجهي الأداة الصوانية أو ما يسمى بطريقة (حلوان)، وعمل ظهر تستند إليه الأداة نفسها، أصبحا من مميزات المرحلة القديمة لتلك الفترة، وهناك من يتحدث أيضاً عن وجود نزعة نحو تمنمة الأدوات الصوانية الهندسية في المرحلة الأخيرة للفترة نفسها في حين ازدادت نسبة المناقيش والمخارز الدقيقة.

إن هذه الصناعة الحجرية ليست إلا جزءاً من جملة متكاملة من الخصائص الحضارية التي تشمل صناعة الأدوات المنزلية الثقيلة للطحن والجرش والسحق وصناعة الأدوات العظمية وأحياناً الأعمال الفنية المصنوعة من الحجر أو من العظم، وقطع مختلفة لأدوات زينة أو حلي مصنوعة من الحجر أو العظم أو الصدف، إلى جانب الوجود المتكرر للبقايا المعمارية كالأكواخ المستديرة وصوامع خزن الغلال والمدافن الفردية أو الجماعية.

ويرى الباحث الآثاري بار يوسف أن الحضارة النطوفية هي حضارة فلسطينية بحتة لأن القسم الأعظم من خصائص تلك الحضارة يتجلى في الشواهد المكتشفة في فلسطين، في حين أن الشواهد المماثلة التي اكتشفت في سورية ولبنان وصحراء النقب تمثل حضارة مختلفة يطلق عليها (الكيباريان الهندسي، المرحلة ب)، وهناك تباين ناتج من هذا التمييز الحضاري الذي يخص الحضارة النطوفية بالأرض الفلسطينية وحدها ذلك لأن الأدوات الحجرية نفسها موجودة في فلسطين وبالتالي غدت سمة خاصة للحضارة النطوفية بمرحلتيها الموسمية والانتقالية، لكن وجهة النظر هذه تلاشت أمام سيل الاكتشافات الآثارية الأخيرة في كل من لبنان وسورية حيث تم العثور بجانب تلك الأدوات على أدوات أخرى للسحق والطحن في موقع (الطيبة) بحوران، وفي (سعيدة) بلبنان، وفي وادي الفرات، يضاف إلى ذلك أننا نواجه في موقعي (أبي هريرة) و(المريبط) على الفرات الأوسط وجود عمائر من صنع الإنسان وأدوات مصنوعة من العظام إلى جانب أدوات مشهورة من قبل كانت مألوفة في الحقبة النطوفية مثل الأدوات مزدوجة الرأس وفقرات الأصابع المثقوبة، وبذلك بدأ التاريخ يسجل بعض الأدلة على قيام تطور مشابه جداً للحضارة النطوفية في كل من فلسطين ومنطقة الفرات في سورية في أعقاب مرور مشترك بمرحلة الكيباريان.

لقد كشفت التنقيبات الآثارية في السنوات الأخيرة عن قريتين من قرى العصرالنطوفي على شواطىء نهر الفرات وذلك في موقعي المريبط وأبي هريرة، غير أن مساحة كل منهما لم تتبين بشكل دقيق، وقد كان ذلك في العصر النطوفي عندما انطلقت الشرارة الأولى لظاهرة «الخروج من الكهف» في بلاد الشام، ويتضح لدينا تماماً أن الإنسان في العصر النطوفي لم يهجر الكهف كلياً كما فعل بعدئذ في الألف الثامن ق.م، كذلك يبدو أن نوعاً من التواصل الحضاري ظل قائماً في عصر الكيباريان حتى العصر النطوفي وهذا ما أبقى على استمرار العديد من الجماعات البشرية في نفس الأماكن التي توطن فيها الإنسان خلال العصور الحجرية القديمة، غير أن خروج الإنسان من نطاق مسكنه، وذلك بتهيئة الشرفات وخط البيوت أو الأكواخ في الخلاء لا يعني أنه أصبح يكره مسكنه القديم بقدر ما يعني أن ذلك المسكن لم يعد كافياً لاستيعاب مجموعة كاملة من الناس.

في ذلك الحين بالذات نشأت قرى على مواقع جديدة ليس فيها أي أثر لاستيطان سابق، غير أن موقع (وادي الفلاح) على جبل الكرمل بفلسطين يعتبر مرحلة متوسطة حيث تنتشر فيه أكواخ مُستديرة نطوفية العصر وهذا يعني قيام قرية أمام الكهف ولعل الحال نفسه يتكرر في موقع الخيام بالضفة الغربية لنهر الأردن علماً أن التنقيبات الآثارية لم تكشف عن أثر أي كوخ أو بيت حتى الآن.

ظهرت القرى الأولى للوجود في العصر النطوفي، لكن عندما اكتشف العالم الأثري بيرو قرية (عين الملاحة) لم يعثر علماء الطبيعة هناك على أثر لوجود الزراعة أو تربية الحيوانات خلافاً لكل المحاولات وبذلك فإن ظهور القرى الأولى

في الخلاء لم يكن نتيجة لرغبة الإنسان في السعي في مناكبها وإنتاج ما يحتاجه من غذاء، بل إن ظهورها سبق تلك المرحلة، وإن الإنسان ظل يُطارد الحيوان ويلتقط النبات من أجل تأمين غذائه وحاجاته الأولية.

ويُؤكد الدكتور جاك كوفان[1] أُستاذ آثار ما قبل التاريخ في جامعة ليون، بأن الاستقرار في عصر القرى النطوفية ما يزال يتعلق بالسكن والتدبير المنزلي، أما استثمار البيئة واستغلالها فقد ظل متنقلاً، أي خضع لانتقال مصادر الغذاء الطبيعية وتبعثرها، لكن المناطق التي كانت فيها المصادر الغذائية وفيرة ومتنوعة مع وجود مصدر غذائي إضافي في جوف المياه الجارية أو الراكدة، أتاحت المجال لاستقرار جماعات بشرية كثيرة العدد لم تكن تسعها الكهوف والملاجىء الطبيعية، وهذه هي القرية التي أصبحت تشكل حقيقة جديدة، أي غدت ظاهرة اجتماعية ـ سكانية، إذ تسكن جماعات بشرية كثيرة العدد بطريقة مشتركة فوق أرض مشتركة.

في ظل هذه الأجواء الجديدة ظهر في العصر النطوفي الاستقرار كما ظهرت القرية وكلاهما كانا السبب في نشوء تحولات جذرية لا يمكن لغيرهما أن يحققها، وقد تجلت تلك التحولات في البلوغ بالسكن إلى الكمال وفي قيام شكل جديد من أشكال الفعالية البشرية وقد تمثل هذا النمط في ممارسة الإنسان للزراعة لأول مرة.

---

(١) الدكتور جاك كوفان ـ الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد (القرى الأولى) ـ تعريب: قاسم طوير.

وقبل أن يبدأ الإنسان ببناء أول بيت له صنع لنفسه حفرة مستيرة في الأرض واتخذها مسكناً له، ويبدو أنه لم تراوده في أول الأمر فكرة تشييد حيطان لمسكنه فوق سطح الأرض حيث أنه كان ناقص الخبرة في هذا المجال.

لقد كانت البيوت الأولى في بلاد الشام كالتي كشف عنها الآثاريون في موقع عين جويف والتي ترقى إلى عصر الكيباريان، على شكل حفرة مستديرة منقورة في منحدر، وقد دعم طرف الحفرة بحائط نصف مستدير مبني من اللبن المجفف حتى ارتفاع (٤٠ سم)، حيث كانت الوظيفة الأولى للحائط واستخدام الرصف المنتظم لمادة البناء نحو الأعلى لا تتعدى عملية دعم للمسكن داخل الحفرة.

ونلاحظ أن الإنسان النطوفي فعل الشيء نفسه عندما هيأ الشرفات أمام كهوفه، فأول ما قام به لتهيئة سطح مستوٍ هو أن حفر الحفر ولم تكن الحفر بالضرورة من أجل أن تصبح مسكناً له، والمثال على ذلك نجده في «البركتين» المحفورتين في الشرفة المكتشفة في موقع الواد، البركة الأولى مستديرة، والثانية كروية الشكل، وكلاهما منقورتان في الصخر نفسه ثم سويتا «بالرفش» تسوية مؤقتة، يضاف إلى ذلك أن الشرفة أو السطح المحدث أمام الكهف ينتهي بمنحدرات حادة، غير أنه لا توجد وسيلة أخرى لتهيئة بيت أو سكن فوق المنحدرات إلا عند تحويل المنحدر إلى سطوح مدرجة وتدعيم نهاية كل سطح بجدار مؤلف من كتل حجرية مرصوفة بعضها فوق بعض، ويبدو أن مثل هذه الحالة موجودة في موقع وادي الفلاح النطوفي، حيث يشير المنقبان الآثاريان في هذا الموقع إلى وجود بيت بيضوي الشكل لكن طريقة إنشائه ليست واضحة وإلى وجود «معسكر» أقدم عهداً ويتراوح قطره بين سبعة وعشرة أمتار وله تصوينة في جانبه الشمالي، أي وجود جدار من اللبن والطلاء الطيني عند حافة

المنحدر، في حين أن الجزء المنحدر في الجنوب لم يعد له وجود، ومع هذا لا تتناقض هذه المعطيات بالضرورة مع التفسير الذي طرحه العالم بيرو لهذا الجدار فهو يعتبر «جدار تدعيم»، أما البيت نفسه فيشهد على وجوده بقايا حفرة الطبخ - الموقد - وكان ذلك «الجدار» بمثابة سياج البيت وفي الوقت ذاته يقي البيت شر الإنهيارات الحجرية أو الترابية من أعالي المنحدرات.

لقد ترك الإنسان النطوفي في موقع أريحا (يريحو القديمة) بالضفة الغربية المحتلة بصمات خططه[1] لكن لا أثر لوجود بيوت بالمعنى الصحيح، أما في (البيضا) في شرقي الأردن فهناك حفرة كبيرة محفورة حفراً غير مُنتظم في باطن التراب ومفروشة بنوع من الحصى الذي كان الإنسان يستخدمه في العصر النطوفي القديم[2].

وتتجلى خصائص المساكن النطوفية - إن كانت الحفرة المستديرة منقورة أو طبيعية - في تدعيم الجدران الداخلية بالحجارة أو بسيقان الخشب، وفي وجود الكساء الطيني - كما في عين الملاحة والمريبط - وفي وجود الدهان الملون على طينة الكساء - كما في عين الملاحة - وفي وجود أرضية مفروشة - كما في عين الملاحة ورأس زين والبيضا - أو أرضية ملاط - كما في المريبط - يضاف إلى ذلك كله وجود العدة والتجهيزات الثقيلة في داخل كل تلك المساكن، ووجود تلك الجملة من المرافق الثابتة خارج نطاق المساكن[3].

---

(١) كشفت التنقيبات الآثارية الحديثة عن بقعة بيضوية محددة بالحجارة والملاط.

(٢) وجد كوخ مُستدير داخل حفرة مُستديرة، ويعتبر هذا الكوخ من العصر الحجري الوسيط (ميزوليت) ومشيد باللبن، ويبدو أن المادة من نوع الطين المدكوك.

(٣) صوامع قمعية لها كسوة طينية في الداخل (الملاحة)، ملاط ثابت (رأس زين والملاحة)، حفرة موقد (المريبط)، أحواض مُختلفة منقورة في الصخر (أبو هريرة والملاحة)، مهد محدد بحجارة مبينة (الملاحة).

إن كل تلك السمات والخصائص تولد الإحساس بوجود حياة منزلية متطورة، غير أن غياب أو بالأحرى ندرة البقايا الأثرية للأجزاء الظاهرة فوق سطح الأرض من المسكن جعلت المنقبين الآثاريين يكررون في تقاريرهم كلمة «الخفيف» في وصف البناء العلوي أو السقف الذي كان يعلو حفرة المسكن النطوفي.

لقد كانت المساكن في قرى العصر النطوفي مصنوعة من الخشب لكنها تلتحم مع بنيان راسخ في باطن الأرض «الحفرة المستديرة»، أما خط المساكن وعلاقة كل واحد منها مع الآخر فيبدو أنها كانت مجاورة بعضها مع البعض الآخر ولم تكن متلاصقة، وهذا ما ظهر في (عين الملاحة) و(أبو هريرة)، كما أن الحفرة المستديرة التي نشأت في زمن واحد لا متقاطع بتاتاً.

ويضيف الدكتور جاك كوفان في كتابه (الوحدة الحضارية في بلاد الشام)، أنه ظهرت تحولات إضافية ناضجة ترقى إلى المرحلة ـ ب ـ من العصر الحجري الحديث (نيوليت) السابق لظهور الفخار والخزفيات، وقد جاءت الاكتشافات الآثارية الحديثة في فلسطين وسورية (في منطقة غوطة دمشق) و(منطقة الفرات) لتلقي المزيد من الأضواء الساطعة على هذه الفترة رغم كون المواقع المعروفة في سورية أقل من المواقع الفلسطينية وبناء على ذلك يخيل إلينا وكأن بلاد الشام كانت فقيرة بالسكان في حين أن خرائط عصور ما قبل التاريخ تغص بالأماكن والمواقع التي تحمل بصمات الإنسان.

وفي الواقع أن (تل المريبط) هو المكان الوحيد حتى الآن الذي شهد مسيرة حضارية متواصلة ومتدرجة من العصر النطوفي الحديث حتى الألف الثامن قبل الميلاد، وقد اكتشفت قرى جديدة تؤكد ارتقاءها إلى نفس الزمن أعلاه، ففي

فلسطين وعلى الرغم من أن عدد تلك القــرى قليـل غـير أنهـا تحمـل في طياتهـا دلالات عميقـة، وفي غـور الأردن توجـد (أريحـا) و(جلجـال)، وعلـى السـاحل الكنعاني الفلسطيني هناك (وادي الفلاح)، وفي النقب شمـالي شـرق سـيناء (أبـو سالم) وفي غوطة دمشق (تل أسود)، وهناك (تل المريبط) و(تـل الشـيخ حسـن) على الفرات.

مواقع ما قبل التاريخ في بلاد الشام

١ ـ ست مرخو :

يقع موقع (ست مرخو) في حوض نهر الكبير الشمالي في اللاذقية في القطر العربي السوري الشقيق، ويعتبر من أقدم مواقع عصور ما قبل التاريخ حيث عاشت مجتمعات القسم الأول من العصر الحجري القديم الأدنى «الباليوليت الأدنى الأول» بين حوالي (١٠٠٠٠٠٠ ــ ٧٠٠٠٠٠ سنة)، وهي تعاصر ما يسمى بالآشولي القديم في بقية المناطق في العالم، وتمثل طلائع مجتمعات ما قبل التاريخ ليس فقط في بلاد الشام وإنما في منطقة غرب آسيا أيضاً، ومن بلاد الشام تحركت تلك المجتمعات شرقاً إلى وسط شرق آسيا وشمالاً إلى أوروبا، وقد أتت المواقع الممثلة لهذه المرحلة الباكرة من عصور ما قبل التاريخ من المناطق الساحلية لبلاد الشام ومن المناطق الداخلية لتلك البلاد أيضاً.

لقد عُثِرَ في موقع ست مرخو في حوض نهر الكبير الشمالي في منطقة الساحل السوري على أقدم آثار لإنسان ما قبل التاريخ معروفة حتى الآن من خارج القارة الأفريقية، حيث وجدت في المصطبة العليا لهذا النهر المنسوبة إلى ما يسمى بالسرير النهري الرابع ـ الرباعي النهري أو عصر ست مرخو ـ والتي ترتفع عن مستوى مياه النهر الحالي حوالي ١٣٠ م، عُثِرَ على مجموعة من الأدوات الحجرية هي فؤوس وقواطع ومعاول وسواطير وشظايا ونوى..

إن أنماط هذه الأدوات البدائية المصنعة بالمطرقة الحجرية الثقيلة، والكمخة الكثيفة التي تحملها، وتوضعها الجيولوجي، تؤهلنا بأن نُورخها على ما يقارب المليون سنة وهذا أبكر تاريخ للإنسان في بلاد الشام معروف حتى الآن.

وفي الوقت الذي سكن فيه حوض نهر الكبير الشمالي كانت جماعات بشرية أخرى تجوبُ حوض العاصي وقد وجدت آثارها في منطقة (خطاب) إلى الغرب من حماه بسورية وهي عبارة عن عدد قليل من الأدوات الحجرية الصغيرة كالشظايا والنوى والقواطع، ولكن لا وجود بينها للفؤوس اليدوية مثل التي وجدت في ست مرخو، مما يدل على أن الجماعات التي سكنت حوض نهر العاصي في ذلك الوقت كانت لها تقاليد حضارية مختلفة عن تقاليد جماعات حوض نهر الكبير الشمالي.

٢ - العبيدية :

يقع موقع (العبيدية) على الضفة اليُمنى لبحيرة طبرية في فلسطين، ويُعتبر هذا الموقع من أشهر وأهم وأقدم مواقع عصور ما قبل التاريخ في بلاد الشام حتى الآن.

لقد سكن العبيدية خلال زمن طويل من قبل جماعات الهومواركتوس التي تراكمت آثارها عبر أكثر من عشر طبقات بعض هذه الطبقات بقي سليماً رغم تعرضه لحركات التصدع والالتواء التي حصلت في وادي نهر الأردن في تلك الحقبة، وقد خلفت هذه الحركة البنيوية صعوبات في تفسير الطبقات الآثارية وفي تحديد تأريخها.

لقد أتى من الطبقات الآثارية المعاصرة للشواطىء المتتالية لبحيرة طبرية، كميات كبيرة من الأدوات الحجرية على رأسها الفؤوس والمعاول والقواطع،

وهذه الأدوات هي أكثر تطوراً من أدوات (ست مرخو) السوري مما يدل على أن موقع العبيدية هو أحدث زمناً من موقع ست مرخو أو ربما مُعاصر له ولكن ليس أقدم منه كما يعتقد البعض.

وقد استخدمت في تاريخ العبيدية طُرق مخبرية متطورة بينها الطريقة المغناطيسية القديمة التي دلت على أن عمر الموقع يعود إلى حوالي (٧٠٠٠٠٠ سنة)، أي أنه الأول، ويقترح آخرون له تاريخاً قديماً جداً هو ١,٤ مليون سنة معتمدين على دراسة البقايا الحيوانية لكن ذلك لم يلق قبولاً شاملاً من الباحثين.

إن جماعات العبيدية الأولى تغذت من صيد الفيل والحصان والوعل والغزال وفرس الماء، كما التقطت ثمار الزعرور والبطم واللوز وغيره.

ومن جهة أخرى فقد عثر في موقع العبيدية على أربعة أجزاء من جمجمة وأسنان دلت دراستها المتأنية أنها تعود إلى نوع الهوموار كتوس، وهي بذلك أقدم هياكل عظمية إنسانية أتت من بلاد الشام لحد الآن.

٣ ـ اللطامنة :

يقع موقع (اللطامنة) على بعد ٤٠ كم شمال غرب حماه في سورية، ويعود إلى عصر الباليوليت الأدنى الثاني، عصر المراكز الحضارية، ويُعتبر موقع اللطامنة أهم موقع أثري معروف حتى الآن من ذلك العصر، وقد تم اكتشافه منذ الستينات من القرن العشرين.

لقد عُثِرَ في موقع اللطامنة ضمن طبقة من الترسبات الناعمة والعائدة للسرير النهري الثالث (عصر اللطامنة) على بقايا معسكر بقي سليماً رغم مرور أكثر من نصف مليون سنة عليه، وكشفت التنقيبات الآثارية عن وجود أرضية

سكن أصلية لم يلحق بها تخريب كبير، إذ بقي كل شيء كما تركه السكان الأوائل.. فقد احتوى المعسكر على عدة آلاف من الأدوات الحجرية بينها فؤوس يدوية مُتطاولة وكبيرة دقيقة الصنع ندر أن وجد ما يُشابهها من هذا العصر في العالم، وقد رافقت تلك الفؤوس معاول وقواطع ومقاحف وسواطير وأدوات متنوعة بعضها ثقيل وأخرى خفيفة.

لقد وجدت في اللطامنة دلائل باكرة للبناء والنار هي الأولى من نوعها في هذا المضمار، إذ كشفت عن مجموعات مُنتظمة من الأحجار الكبيرة التي نقلت إلى الموقع من مقلع مجاور وكانت هذه الأحجار تسندُ جدران أكواخ من الجلد والغصان والعشاب تشبه خيام البدو التي لا زالت تستخدم حتى الآن، ولكن الزمن أتى على هذه الأكواخ فلم يبق ما يدل عليها إلا تلك الأحجار الكبيرة، وهذا البناء هو أقدم دليل من بلاد الشام ومن خارج أفريقيا على قيام مجتمعات الهوموار كتوس ببناء أكواخ في العراء، وهو دليل تحرر من الاعتماد الكلي على المغاور والملاجىء الطبيعية.

كما عُثِرَ في اللطامنة على أحجار مُحترقة تدلُ على أن السكان قد استفادوا من النار سواء عندما كانت تلك النار تشتعلُ بشكل طبيعي أو ربما أنهم أوقدوها بانتظام.

إن مُجمل مُكتشفات موقع اللطامنة تدل على أنه سُكِنَ من قبل جماعة صغيرة من الناس، تراوح عددها بين ١٠ ـ ١٥ شخصاً، أقامت في الموقع لمدة قصيرة اقتصرت على موسم أو موسمين، وقد اصطادت الحيوانات الكبيرة والمتوسطة كالفيل ووحيد القرن وفرس الماء والجمل والحصاة والثور والغزال والوعل وغيرها..

كما التقطت الثمار البرية كاللوز والزعرور التي نمت في حوض نهر العاصي الغني الذي كان أشبه بغابة في تلك العصور، في حين انتشرت الأحراج على المرتفعات المحيطة به، بينما كان مناخه أكثر برودة مما هو عليه في الوقت الراهن..

٤ ـ القرماشي :

ويقع في حوض نهر العاصي الوسط بسورية، ويعود موقع (القرماشي) إلى عصر الباليوليت الأدنى الثالث الذي يمثلُ المرحلة الأخيرة من الباليوليت الأدنى المؤرخ بين حوالي (٢٥٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠٠ سنة) مضت، والموازي عالمياً لما يعرف بالعصر الأشولي الأعلى، وهو العصر الذي تابعت فيه مجتمعات ما قبل التاريخ في بلاد الشام تطورها.

لقد وجدت آثار هذا العصر ضمن التشكيلات الجيمورفولوجية العائدة إلى السرير النهري الثاني ـ عصر أبو جمعة ـ ويُعتبرُ موقع القرماشي من أهم مواقع هذا العصر.

تم التنقيب في هذا الموقع من قبل بعثة آثارية سورية ـ فرنسية مُشتركة بإدارة سلطان محيسن وفرنسيس أور، وتم الكشف عن معسكر نادر من نوعه وغير مخرب سكن من قبل جماعة بشرية صغيرة تنتمي إلى نوع مُتطور من الهوموراكتوس أقامت في المكان مدة قصيرة جداً ربما لم تتجاوز عدة أسابيع تاركة بقاياها التي غطتها طبقة من التربة الحمراء فحفظتها سليمة رغم مرور ٢٠٠٠٠ سنة على هجر هذا الموقع.

إن الأدوات الحجرية الصوانية هي أهم آثار هذا العصر، فقد وجدت في القرماشي فؤوس يدوية جميلة لوزية أو قلبية الشكل بعضها مدبب وله ثلاث أضلاع، وهناك الأدوات القاطعة والمقاحف والمثاقب والأدوات المُسننة والمقرضة والشظايا المتنوعة التي تدلُ على أن عمليات تصنيع الأدوات الحجرية قد حصلت على أرض المعسكر مباشرة.

وكما كان الحال في اللطامنة فقد بنى سكان القرماشي القدماء كوخاً بسيطاً دلت عليه الأحجار المُنتظمة التي بقيت على أرضية الموقع، ويدلُ التنقيب الأثري على وجود آثار مواقد تدلُ على استخدام النار فإن التكسر والإحمرار على بعض الأدوات الحجرية يدل على أن السكان قد استفادوا من النار سيما وأنها أصبحت معروفة بشكل واسع النطاق في ذلك العصر وأتت دلائلها المباشر - أي فحمها ورمادها - من عدة مواقع معاصرة للقرماشي في العالم.

٥ - أريحا :

وتقع في شرقي فلسطين، وسميت في العصور التالية باسم (يريحو) أي مدينة القمر، وتُعتبر من أوائل مواقع ما قبل التاريخ في المنطقة العربية، وقد كان لاكتشاف المرحلة - أ - من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار فيها صدىً كبيراً وقيمة حضارية عليا وذلك لكثرة المعالم المعمارية التي ظهرت فيها.

نقبت في موقع أريحا كاثلين كينيون واكتشفت في بقعة واحدة من التل مساحتها خمسة أمتار مربعة مسكناً مؤقتاً ومحدوداً للغاية، وكانت هذه الطبقة الأثرية تُغطي الطبقة التي تضم في ثناياها آخر المرحلة المذكورة أعلاه، وتنسب طبقة السكن تلك إلى العصر الحجري الحديث والمراحل المُتقدمة منه تحديداً على

الرغم من كون البقايا المعمارية قليلة جداً، لكن موقع الحفرة المحدودة التي تم تنقيبها يضمُ في طياته عدداً لا يُحصى من الأرضيات المُتعاقبة، وهذه الأرضيات لا تنتهي بحيطان بل بحدبات صغيرة اعتبرتها كاثلين كينيون قواعد لحمل بنيان خفيف سكانه من البداة[1].

وتقدر المساحة التي شغلتها مخلفات المرحلة ـ أ ـ من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار بحوالي ثلاثة هكتارات وقد ظهرت آثار تلك المرحلة في الأنفاق الثلاثة التي جرى تنقيبها في الأجزاء الشمالية والجنوبية والغربية من سطح التل.

وكما في العصر النطوفي كانت المساكن المُكتشفة في هذا المكان مُستديرة الشكل ومعبأة بالتراب، أما الدخول إلى كل منها فيتم بواسطة درجات أو حائط مُنحدر من التراب، وهناك حائط يغلف الوجه الداخلي للحفرة الداخلية وهو مبني باللبن المتطاول، أما اللبن نفسه فيحتوي على عناصر خشبية.

غير أن العمارة ذات الدلالة الهامة ليست من نوع المباني الخاصة بالأفراد فقد ظهر في أريحا المرحلة ـ أ ـ من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار الفلسطيني المُبكر، برج كبير مبني بالحجارة ويبلغ ارتفاعه ٨,٥ م ويصل عرضه عند القاعدة إلى عشرة أمتار وبداخله درج يصعد نحو الفوهة ويتخطى حدودها ويتألف الدرج من ٢٢ درجة.

ومن جهة أخرى ظهر جدار بطول ٨ م يستند على البرج مبني بالحجارة أيضاً يبلغ عرضه ٣ أمتار وارتفاعه ٩٠,٣ م وقد ظهر استمرار لهذا الجدار لكن

---

[1] .KENYON-Degging up jeriche LONDON 1957. K M

بعرض أقل من النفقين الجنوبي والشمالي اعتبر سوراً دفاعياً أولاً، غير أن ذلك البرج يبرز نحو داخل الجدار وليس نحو خارجه، كما أن جوار الجدار يغص بحفر الصوامع وبالمساكن التي تعرقل حركة المرور وتسده تدريجياً، وفي ضوء ذلك فإن الوظيفة الدفاعية لذلك الجدار أو - السور الأول - ليست واضحة، ومهما يكن من أمر فإن الجدار بحد ذاته عمل جماعي هام يمثلُ الفعاليات المشتركة لأهل القرية.

ولا بد أن نشير هنا إلى أنه لم ينشر إلا القليل عن اللقى الأثرية التي ظهرت في طبقات بواكير العصر الحجري الحديث والمرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار في أريحا، وما نشر حتى الآن من تلك المواد يتميز بكثرة الشظايا الصوانية ذات الحدين مع عدد قليل في السهام ولا أثر للأدوات الصوانية الدقيقة، ولا بد أن نذكر أيضاً بأن المساكن المستديرة المكتشفة في أريحا تشكل سمة رئيسية من سمات العصر النطوفي.

٦ - جلجال :

تقع جلجال على بعد ٢٠ كم إلى الشمال من أريحا في غور الأردن، وقد ظهر فيها أدلة أثرية حديثة تنسب إلى الحقبة الثانية من بدايات العصر الحجري الحديث.

لقد أمكن التعرف على موقع قرية جلجال من حيث احتوائها على حوالي ١٢ مسكناً مُستديراً وبيضوياً وعلى حيطان من الحجر، وقد أسفر النقاب عن مسكن واحد يضمُّ في موجوداته أدوات حجرية وصوانية مؤلفة من سهام وأجران ذات قواعد منبسطة.

وكما هو الحال في مواقع المريبط (المرحلة الأولى ـ ب) ووادي الفلاح والخيام فقد واكبت السهام المُكتشفة في جلجال الصناعة المُستمدة مباشرة من حضارة العصر النطوفي في نهاية الألف التاسع ق.م، غير أن وجودها في جلجال وفي طبقة أثرية مُماثلة في عصرها للطبقة المُكتشفة في أريحا تأكيد المسألة تجانس حضارات وادي نهر الأردن في المرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار.

أما بالنسبة للزراعة فقد تم العثور على ست حبات من الشعير المزدوج وهو من النوع الأليف، وشهدت المرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار في أريحا مرحلة زراعية كافية لتوليد أنواع جديدة من النباتات.

وفي البدء افترض البعض وجود الزراعة في أريحا ثم استبعد ذلك الافتراض بناء على أُسس استنتاجية بحتة وقبل القيام بأي تحليل للبقايا النباتية، وقد أكد على عدم وجود تأهيل للحيوانات في أريحا، وأن الأدلة كانت فقيرة حقاً فيما يتعلق بالقمح لا سيما وأن التحاليل كانت تتعلق بالقمح النشوي والقمح النشوي البري الذي ينبت عفوياً كنبات طبيعي في وادي نهر الأردن..

٧ ـ وادي الفلاح :

ويقع في جبل الكرمل بفلسطين، وقد شملت التنقيبات الآثارية مساحة كبيرة في شرفة هذا الموقع حيث ظهر في السوية الثانية ما لا يقل عن ١٤ مسكناً يعود إلى المرحلة (أ) من العصر الحديث السابق للفخار المبكر.

تتمتع الشرفة بمنحدر شديد يتجه من الشمال إلى الجنوب وتوجد فيه أربع مصاطب تحصر بينها مساكن مُستديرة أو بيضوية الشكل، ويتراوح قطر كل منها بين ٣-٤م.

وغالباً ما تكون المساكن مُتلاصقة حيث تشتمل هذه المساكن على حائط من الحجر قائم لحد ارتفاع متر واحد، وقد كان ذلك الحائط مشتركاً فهو يشكل الضلع الشمالي لمسكن سفلي قائم فوق مصطبة، وقد كان للجزء السفلي من قاعدة الحائط نفسه وظيفة دعم وجه الحفرة ومنع التربة من الإنهيار ـ أي كما كان يفعل الإنسان النطوفي ـ لكن الحائط هنا يرتفع ويتخطى فوهة الحفرة ليكون معلماً خارجياً لحدود المسكن، وكما هو الحال عادة في المنحدرات المميزة فقد توجب ردم الحفرة السكنية حتى مُستواها العلوي ومن ثم يبنى المسكن مائلاً فوق سطح الأرض.

لقد كانت أرضية المسكن مفروشة بملاط من الطين وفيها حفرة موقد مُحددة بالحجارة، وكان في داخل المسكن عدد وتجهيزات حجرية كالأجران وغيرها.. أما مدخل المسكن فيقع في الشمال أو الشمال الغربي مقابل المُنحدر، وغالباً ما يبرز من جراء تقلص مزدوج لنهايتي الحائط مشكلاً بذلك نوعاً من ردهة أمامية، وهذه سمة خاصة نواجهها في مساكن السوية الثانية في موقع (المريبط) على الفرات.

وقد نشأت الأعمال الفنية الأولى في مشرق الوطن العربي منذ العصر النطوفي الذي كان يعيش الإنسان خلاله على الصيد والالتقاط، وأن مصدر القسم الأعظم من الشواهد المادية يأتي من منطقتين كانت الآثار النطوفية فيهما هدفاً للتنقيب، وهما جبال الكرمل وهضاب القدس في فلسطين، وقد تم العثور على تلك الشواهد في قلب الكهوف وهذا يعني أنها شواهد مادية على المرحلة البدائية ما قبل القروية للحضارة النطوفية، ففيما يتعلق بمنطقة الكرمل فقد عُثِرَ على الدُمى العظمية الثلاث التي فيها رؤوس غزلان والمنفذة بأسلوب مُبسط والمكتشفة في موقع وادي الفلاح.

٨ ـ أبو سالم :

تقع قرية (أبو سالم) في النقب الأوسط، ويعود تاريخ هـذا الموقـع إلى نهايـة الألف التاسع ق.م، أي منذ بداية تاريخ المرحلة الأولى ـ ب ـ المماثلة له في تـل المريبط، ويمتد حتى حوالي الألف الثامن ق.م، كما يُعاصر هو والمرحلة الثانية في المريبط، الحضارة المكتشفة في موقع جلجال وبواكير العصر الحجري الحديث في أريحا.

شملت التنقيبات الآثارية في موقـع أبـي سـالم مسـاحة ٢٣٤ م^{٢} ــ أي ثلـث مساحة الموقع ككـل ــ وقـد ظهـرت في تلـك المسـاحة ثلاثـة مسـاكن بيضويـة الشكل يتراوح قطر كل منها بين ٣ ـ ٤ أمتار، وللمساكن حائط تتراوح سماكته بين ٢٥ ـ ٥٠ سم قـائم علـى ارتفـاع ٥٠ سـم، كمـا استخدمت الحجـارة أو الكتل الكبيرة عند سد المساحات بالوحل.

كانت أرضية المسكن رقم (١) ـ وهو بحالة أفضل من حالة بقية المساكن ــ مقعرة تقعراً خفيفاً وتحتوي على حفرة للنار كموقد قريب مـن الوسـط وبجـانب الموقد جرن حجري كبير، ويبدو أن المدخـل يقـع في الجـانب الجنوبـي الشـرقي وهو مُشيد بالحجارة والملاط.

٩ ـ تل أسود :

يقع (تل أسود) في غوطة دمشق في منطقة تكثر فيها المُستنقعات الواقعة بين بحيرتين، وقد ظهرت في السوية الثرية الأولى (أ) داخل سـبر مسـاحته ١٦ م^{٢} في الجانب الشرقي من التل آثار يعود تاريخها إلى المرحلـة (أ) مـن العصـر الحجـري الحديث السـابق لظهور الفخـار، وذلك بنـاء علـى نتـائج تحليـل مـادة الكربـون ١٤ (C14)، وعلى مُقارنة أنماط البناء والأدوات الحجرية والصوانية المُكتشفة.

لقد كانت الآثار المُكتشفة في تلك المساحة مؤلفة من مجموعة كثيفة من الجيوب المستديرة المملوءة بالرماد والمواد النباتية المحروقة.. وتتقاطع تلك الجيوب بعضها مع بعض في أكثر الحالات كما أن الأحدث عهداً يشتبك مع الأقدم، أما قطر كل واحد منهم لا يتجاوز المترين، ويتخلل تلك الجيوب حفر اسطوانية مستقيمة الجوانب لعلها صوامع، وقد عثر المنقبون الآثاريون بين الأنقاض على أعداد كبيرة من اللبن المصنوع من الطين الممزوج بالتبن، واللبنة مُسطحة في الأسفل ومُحدبة في الأعلى وتظهر على وجهها العلوي طبعة أصابع بشرية، وكانت قطع اللبن تلك حطاماً محترقاً بين الأنقاض.

بناء على ذلك كانت القرية مُؤلفة من أكواخ صغيرة الحجم ومُستديرة الشكل تتلاصق بكثافة مع بعضها البعض وتكون مملوءة بالتراب حتى مُنتصفها، وقد استخدم الطين في صنع اللبن الذي كانت تفرش به أرضية المسكن أو لبناء مصطبات مُنخفضة، أما البنيان العلوي للكوخ فلا بد أن كانت معظم عناصره مؤلفة من مواد نباتية خفيفة سريعة الاشتعال، وتشير دلائل الحريق إلى أن الأكواخ تعرضت مراراً للحرق وفي كل مرة كان يُعاد بناء الكوخ، وخلافاً للعصر النطوفي والمرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار فإن الأدلة الآثارية المكتشفة في هذا الموقع تخولنا الحديث عن وجود أكيد لبناء علوي خفيف.

وتجدر الإشارة إلى أن طبيعة البيئة المُحيطة بموقع تل أسود أوجبت اللجوء إلى استخدام المواد الخفيفة، وهي النباتات الناشئة من وجود المستنقعات، لكننا لا نستطيع استخلاص درجة ثبات القرى واستقرارها، حيث كانت الأكواخ في قرى منطقة (الغاب) مثلاً والشبيهة في طبيعتها البيئية لموقع تل أسود مصنوعة من القصب وعيدان النباتات.

١٠ ـ تل المريبط :

يقع (تل المريبط) في منطقة الفرات، حيث تتوفر بيئة ملائمة للقيام بأعمال البناء والإنشاء وذلك لتوفر المواد اللازمة وتنوعها كأشجار الحور على ضفاف النهر، والبلوط المبعثر في البادية، والخضار على أطراف النهر، والحصى في الوادي، وطبقات الصخر الحواري الهش الذي يسهلُ قطعه.

غير أن الإنسان لم يستغل تلك المصادر المتنوعة استغلالاً كاملاً إلا في الألف الثامن ق.م، لا سيما وأننا رأينا كيف اقتصر الإنسان النطوفي على الطين والخشب دون غيرهما من مواد البناء الأخرى.

وعلى الرغم من كون الأدلة الأثرية ما تزال نادرة فإن الإنسان استخدم الحجارة في صنع أدواته المنقولة واستخدامها في البناء نادراً.

لقد ظهرت في (المريبط) سويتان أساسيتان كانتا دليلاً في طريق ذلك الارتقاء.. فالسوية الثانية (٨٢٠٠ ـ ٨٠٠٠ ق.م) تتفق دون جدال مع بواكير العصر الحجري الحديث في (أريحا) و(جلجال) و(أبو سالم)، أما السوية الثالثة (٨٠٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م) فتتفق مع المرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار ومع المرحلة الأولى (أ) في (تل أسود) بدمشق.

وقد ظهرت في السوية الثانية التي تمتد مباشرة حتى أواخر المرحلة الأولى (ب) من العصر النطوفي، عدد من المساكن المستديرة في مواسم التنقيب الأثري لأعوام ١٩٦٥ ـ ١٩٧١ ـ ١٩٧٤، وكانت تلك المساكن صغيرة الحجم بقطر يتراوح ما بين ٣ـ٤م، مبنية في باطن الأرض أو قائمة فوق سطحه، وكان الحائط الذي يحيط بدائرة المسكن مُشيداً بالطين وأساسه إما أن يكون معززاً بصف من الحجارة المسطحة المرصوفة رصفاً واقفاً على السطح، أو أن يكون مدعماً

بأساس من الحجارة الكلسية والأجران[1] المستخدمة للمرة الثانية وجميعها مربوطة بمونة من الطين.

وكان يجري تحسين الأرضية عدة مرات قبل البدء بعملية بناء المسكن وذلك بفرشها أولاً بحصيرة من الحجارة الصغيرة، ثم تبليطها بقطع الحجارة المسطحة وأخيراً تدعيمها بطبقة من الملاط الطيني.

ويظهر نفس الإنفراج في محيط الحائط وفي جانبي المدخل في المسكن الذي كشف عنه فان لون ونشر مخططه عام ١٩٦٥، ذلك الانفراج الذي سبق وأن واجهناه في دراستنا لمساكن (وادي الفلاح).

ولا توجد في تلك المساكن تقسيمات داخلية باستثناء حالة واحدة، حيث نجد طبقات ستة سيقان خشبية قطر كل منها ١٠ سم، وتمتدُّ باستقامة مسافتها ١,٥ م، حيث كانت جزءاً من حائط خفيف البنية يعترض المسكن ويقسمه إلى قسمين.

كانت معظم تلك المساكن متجاورة لكنها ليست متلاصقة مع بعض، غير أن فان لون أشار إلى اكتشافه أرضيتين من عصر زمني واحد تلتصقان بعضهما مع بعض مسافة أكثر من متر واحد.

وتتفق السوية الثالثة مع الطبقات العاشرة حتى السابعة عشر التي كان فان لون قد كشف عنها خلال تنقيباته في المريبط عام ١٩٦٥، وقد أطلق عليها اسم «سوية المساكن المستطيلة».

---

(١) الأجران: وهي الأحجار المقعرة.

وقد أكدت التنقيبات الآثارية اللاحقة بـأن السوية الثالثـة لم تشـهد الفـترة الزمنية التي تم خلالها تحول بالغ الأهمية في مجال العمارة في منطقة الفرات، فمـن ناحية لم يتبين في حضارة تلك السوية وجـود أي انقطـاع مـع المـاضي بـل هـي تواصل له، كما أن النمط السكني ـ أي المساكن المستديرة ـ ظل مسـتمراً حتـى نهاية عصر تلك السوية، غير أن الظـاهرة الجديـدة الـتي مـيزت بدايـات السـوية الثالثة (أ) تجلت في ظهور الحيطان المستقيمة التي تتقاطع بزاوية قائمة مع بعضهـا البعـض، لكـن تلـك الحيطـان لم تكـن حيطـان مسـاكن مستطيلة بـل كـانت تقسيمات ذات زوايا قائمة لداخل البيت المستدير.

تم الكشـف عـن المسـكن رقـم ٤٧وهـو أفضـل المسـاكن المسـتديرة ذات التقسيمات الداخلية، وقد كان المسكن مطموراً حتى منتصف ارتفاعه في بـاطن المنحدر أي أن حائطه الشرقي يميل مع المنحدر، وهذا يعني أنه جـزء مـن الحفـرة المستديرة للمسكن، ويضاف إلى ذلك أن هذا الجزء الشرقي معـزز بسـيقان مـن الخشب ـ خشب الحور ـ وبالطلاء الطيني، أما الجانب الغربي مـن المسـكن فهـو حائط من الطين المدكوك تبلغ سماكته ٥٠ سـم، وقـد بـني معظمـه فـوق سـطح الأرض، وبالتالي يحدد هذا الحائط حدود المسكن الخارجية، ويطوق المسـكن في ناحيته الجنوبية الشرقية حائط سميك مبني كليـاً مـن الحجـارة المسـطحة والطـلاء الطيني، لكن هذا الحائط مشترك مع مسكن مجاور حتى مسافة ٢ م.

يبلغ قطر هذا المسكن الكبـير ٦ م وتقسـم داخلـه حيطـان صغـيرة يـتراوح ارتفاعها بـين ٧٠ ــ ١٠٠ سم، إلى تسـع حجـيرات مغلقـة أو مفتوحـة جزئيـاً وهناك حجيرة مفتوحة كلياً تتوسط داخل المسكن لعلها كانت دهلـيزاً رئيسـياً، وتبلغ سماكة الحيطان ـ أي حيطان الحجيرات ـ مقدار ٢٠ سم، وهـي إمـا مبنيـة من صف واحد من الحجارة أو من صفائح خشبية مغموسة أفقياً في قلب الطين.

لقد ثبت أن هذا المسكن المشار إليه أعلاه كان مسقوفاً بسطح مستوٍ من الطين المدكوك فوق صفوف متجاورة من الألواح الخشبية، علماً أن أرضية المسكن كانت تغص بالبقايا المتفحمة لتلك العوارض، وكانت تلك الألواح الخشبية تستند على عوارض متينة من خشب الحور أو البلوط.

ويؤكد الدكتور جاك كوفان[1] بأنه قد اتحدت متانة البناء مع مجموعة متنوعة من المواد والخبرة في مجالات العمارة والتشييد لتحقيق درجة عالية من الكفاءة المعمارية..

أما القرية نفسها فقد كانت في السوية الثالثة مجموعة غير منتظمة من مساكن مستديرة ذات أبعاد مختلفة تقوم فوق منحدر - كما في وادي الفلاح - وتلتصق بعضها ببعض حول فراغ - أي ساحة - تنتشر في جنباته حفر المواقد والمساحات المحددة بالأحجار.

ويضيف الدكتور جاك كوفان[2]: إنه لمن دواعي الاستغراب أن لا نجد في السوية الثالثة (ب) التي تعلو السوية السابقة (٧٧٠٠ - ٧٦٠٠ ق.م) غير المساكن المستديرة ذات الأقطار الصغيرة ٣-٤م والخالية من التقسيمات الداخلية، فهذا النمط النطوفي من المساكن استمر في المريبط حتى نهاية السوية الثالثة.

غير أن العمارة التي كشف عنها فان لون خلال عام ١٩٦٥ في السويات ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧ كانت من نمط مغاير كلياً.. فهي بيوت مؤلفة من حجيرات مربعة الشكل ترتصف وفق رقعة الدومينة - الدومينو - بطول ١,٥م

---

(١) الدكتور جاك كوفان: مرجع سبق ذكره.

(٢) نفس المرجع.

للضلع الواحد ولها أرضية مبلطة وحيطانها مؤلفة من صف واحد من حجارة كلسية منحوتة بأداة صوانية ومرصوفة طولانياً ومربوطة بمونة من الطين، وهذه الحيطان الداخلية تتقاطع بعضها مع بعض بزاوية قائمة فعلياً، لكن هذه الحيطان لا تبدو أنها كانت تقسيمات داخلية لمسكن دائري، بل هي عناصر بناء مربع بحد ذاته، ومع هذا لم تتبين لنا مُؤشرات الاستخدام الفعلي لمثل هذه الغرف المربعة، غير أنه من المثير للاهتمام أن نجدها قائمة إلى جانب مساكن مستديرة.

أما بالنسبة للزراعة فقد أكدت التنقيبات الأخيرة في السويات النطوفية السفلية في المريبط على أن القمح كان موجوداً. ومن المؤكد تقريباً أنه كان من أصل محلي.

ومن جهة أخرى كانت الحبوب من جملة المصادر الغذائية الأخرى التي استغلها الإنسان النطوفي منذ المرحلة الثانية حتى المرحلة الثالثة استغلالاً واسع النطاق مثل النباتات البرية المختلفة، ومختلف أنواع الحيوانات البرية ثم الثروة السمكية، غير أن الانقلاب الشامل في الاستراتيجية الغذائية يبدأ في المرحلة الثالثة (ب) من العصر النطوفي أي ابتداءً من حوالي (٧٧٠٠ ق.م).

كانت البقار والحمير البرية متوفرة، وكانت الغزلان ما تزال سائدة، وقد انتقل إنسان المريبط من الذبح العشوائي والمتنوع إلى الذبح الانتقالي، حيث صار يذبح الأكبر حجماً كالحمير والأبقار البرية.

وقد أكدت التنقيبات الآثارية أن عدد الهياكل العظمية للأسماك أصبح قليلاً إذا ما قُورن بالأعداد التي ظهرت في السويات السابقة، وكان صيد السمك من أبرز خصائص الاقتصاد النطوفي.

وهذا يعني أن جماعة المريبط قامت بعملية انتقاء دقيق في قائمة مصادر غذائهم الوفيرة بحيث أنهم عزفوا عن استهلاك أنواع معينة منها، وهذا الاصطفاء أدى إلى عملية تأهيل، لكنه في المجالات النباتية يعني الخطوات الأولى نحو ممارسة الزراعة، غير أن هذا التغيير لم يكن ناتجاً عن نشوء شح في البيئة بل على العكس، فقد أكدت نتائج تحليل غبار الطلع أن رطوبة مُعينة هيمنت على المناخ ابتداءً من الألف الثامن ق.م، وهذا ما أكسب بادية تدمر المجاورة للمريبط بساطاً من الحشائش والأعشاب وزاد في تكاثر الحبوب البرية..

وفي الفترة (٨٣٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م) تم ابتكار أدوات جديدة للاستخدامات العامة مثل (رأس النبلة) أي رأس من الصوان يفصح شكله عن نوع الوظيفة التي يؤديها وهي القذف والرمي وذلك من خلال حجمه وتناظر جانبيه ولسان تثبيته في العصا (النبلة).

وقد ظهرت رأس نبلة الخيام للوجود في كل من المريبط (السوية الأولى ـ ب) وفي فلسطين أيضاً (في منطقة الخيام ـ السوية الرابعة) وفي مواقع مختلفة من الساحل الفلسطيني، كما تم العثور على مثيل لها في دلتا نهر النيل في منطقة حلوان.

أما رؤوس النبال البسيطة ـ بدون لسان تثبيت لكن مثلمة ـ فهي شائعة منذ فترة السوية الأولى (ب) في المريبط، ونلاحظ في السوية الثالثة بالمريبط وجود رؤوس نبال أكبر حجماً وخالية من الثلمات بدأت تطغى على غيرها من الأنواع، كما ظهرت تقنيات أخرى للنبال في (جبيل) على الساحل اللبناني وشاع استعمال نبال جبيل في بلاد الشام، وكانت نصال المناجل ترافق كل تلك الأدوات، وإن شكلها يدل على أنها جزء أساسي من أداة مركبة «نصل ومقبض».

في الوقت الذي ظل فيه «منكاش المريبط» شائعاً في السوية الثالثة بالمريبط وفي تل الشيخ حسن ظهرت في سوية بواكير العصر الحجري الحديث وسوية المرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور فخار أريحا وفي مواقع أخرى بالضفة الغربية بفلسطين أداة ذات حدين وهي الفأس.

و لم يكن صقل الحجارة موجوداً بشكل دائمي إلا في المريبط حيث استعمل في نحت العصي الحجرية الصلبة وذلك في السوية الثالثة بالمريبط وهي تل الشيخ حسن.

بيد أن الفؤوس المصقولة لم تنتشر - إلى جانب المنكاش المذكور آنفاً - في الموقعين السابقين إلا في نهاية السوية الثالثة، وظهر في المريبط والشيخ حسن أولى الأواني المصنوعة من الطين المشوي أو الفخار - فناجين صغيرة وعددها خمسة - وتماثيل نساء من الطين وقطع فخارية أخرى على شكل أقراص واسطوانات تنتهي بلسان محوري.

وحول بدايات الفخار فقد كانت الآنية الفخارية من الناحية التقنية حصيلة اكتشاف الإنسان للخصائص اللدنة للغضار الممزوج بالماء من ناحية، إذ يصبح الطين الناتج طيعاً وقابلاً للتشكيل، ومن ناحية أخرى معرفة الإنسان ومهاراته في استخدام النار من أجل تقسية الكتلة الطينية التي شكلها، وكان إنسان وادي نهر الفرات رائداً في إنماء ملكاته ومعارفه وقدراته ويتجلى ذلك في استعمال الطين في العمارة والبناء.

فإنسان المريبط لم يطل الحيطان والأرضيات بالطين فحسب، بل طلى أيضاً جدران حفر المواقد المستديرة الذي كان الإنسان يطبخ فيها طعامه فوق طبقة من الحصى.

لقد كانت تلك الحفر المستديرة مطلية بطبقة مـن الطين منـذ فـترة السـوية الثانية بالمريبط، ونتيجة للاستخدام المتكرر لتلك الحفـر في طبـخ الطعـام تحولـت طبقة الطين إلى فخارٍ قاسٍ، وفي فترة السوية الثالثة بالمريبط انتقل الطبخ العفـوي للطين إلى طبخ مقصود لأولى الأشياء المصنوعة مـن الطين وذلـك طبقاً للمبـدأ السابق ذكره.

وقد تألفت الأشياء الفخارية الأولى من الدمى التي تمثـل الربـة الأم وكـانت طينتها ناضجة - أي تعرضت لدرجة كافية من الحـرارة - والبعـض الآخـر قليـل الإتقان، ومع هذا فتُعتبر الشواهد الأولى على صناعة الفخار بشكل فعلي وأكيـد في حوالي الألـف الثـامن ق.م، غـير أن تلـك الفنـاجين الـتي تم العثـور عليهـا في المريبط كانت صغيرة الحجم ونادرة في الوقـت ذاتـه بحيـث لا تكـون قـد لعبـت دوراً فعالاً في حياة المطبخ في تلك الحقبة، وبعد هذا الحدث الصغير بعـدة قـرون يمر وقت طويل لم يصمد خلاله الطين المشوي إلا على هيئـة دمـى نسـائية، وفي مطلع الألف السابع ق.م نواجه في السوية الثانيـة في تـل أسـود الشـواهد الأولى على الطين المشوي.

لكن الأواني الفخارية الفعليـة لم تصبـح قيـداً الاسـتعمال إلا بعـد النصـف الثاني للألف السابع ق.م نفسه إذ غـدت جـزءاً مـن الأدوات المنزليـة في مواقـع معينة مثل تل أسود بالجزيرة العليا، وهذا يعني منطقة الفرات مرة ثانية.

ولم يظهر في المريبط دُمى حيوانية فلقد تم العثور على شواهد تشـخيصية - غير فنية - لكن في غاية الأهميـة، وقـد ظهـرت أقدمهـا عهـداً في السـوية الثانيـة المؤرخة بحوالي (٨٢٠٠ ق.م).

وفي الفترة (٧٦٠٠ ــ ٦٦٠٠ ق.م) وهي الفترة التي تؤرخ بها السوية الرابعة في المريبط، وسوية المرحلة (ب) القديمة من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار الفلسطيني المبكر، وقد زودتنا هذه الفترة بعدد كبير من تماثيل الحيوانات المصنوعة من الطين.

١١ ـ تل الشيخ حسن :

يقع (تل الشيخ حسن) على بعد ٢٠ كم إلى الشمال من تل المريبط على نهر الفرات، وقد قام الدكتور جاك كوفان أستاذ آثار ما قبل التاريخ بجامعة ليون، بإجراء سبر في تل الشيخ حسن فظهرت آثار منقولة[١]، كأدوات حجرية وغيرها، كما ظهرت معالم معمارية لحجيرات مربعة ترتصف كرقعة الدومينة ولا يتجاوز طول ضلع كل حجيرة المتر الواحد، أما الحيطان التي تحددها فهي إما من الطين المدكوك أو مصنوعة من سيقان الخشب المغموسة أفقياً بعضها فوق بعض في قلب الطين.

ظهرت في الطبقة الأثرية الأدنى من الأولى آثار منقولة لعلها ترقى إلى مرحلة أكثر نضوجاً من مرحلة السوية الثالثة، وظهرت حيطان مستقيمة ومتقاطعة بزاوية قائمة مبنية بحجارة كلسية منحوتة بأداة من الصوان ومرصوفة رصفاً طولانياً.

يتألف الحائط من صف واحد من تلك الحجارة لكن فوق أساس من الحصى الكبيرة، أما في السوية الأعلى وهي السوية الثالثة (ب)، فقد ظهر جداران سميكان متوازيان من الحجارة يوحيان بوجود بنيان مستطيل الشكل وكبير الأبعاد وله أرضية من الطين.

---

(١) الآثار المنقولة: هي الآثار بكافة أنواعها وأشكالها التي يستطاع حملها ونقلها من مكان إلى آخر.

وفي ضوء التصاق الحجيرات مع بعضها البعض فإن انتظام الحجيرات كما في رقعة الدومينة لا يجعلها تصلح للسكن بل هي مستودعات وصوامع، يضاف إلى ذلك أن هذا النوع من البنيان ليس محاطاً بمساحة مستديرة، وبذلك يعتبر موقع الشيخ حسن أول موقع أثري يزودنا بنمط بنيان مربع تبين بشكل أكيد أنه صومعة أو مستودع وليس مسكناً[1].

هذه هي أنواع الأدلة المتوفرة على حضارة المرحلة (أ) للعصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار، وبناء على تلك الأدلة يمكن الخروج بالاستنتاجات الثلاثة التالية:

أولاً: يتعلق الاستنتاج الأول بتقنية العمارة والإنشاء والتشييد، حيث نجد أن المساكن ظلت مستديرة الشكل كما في المريبط وأريحا وتل أسود، لكن بالإضافة إلى ظهور النصف العلوي فوق سطح الأرض وبقاء النصف الأسفل في باطن الأرض، يبدو أن إنسان تلك القرى كان يعرف مواد بناء أخرى غير الخشب، ففي تلك المرحلة الحضارية عرف الإنسان كيف ينحت الحجارة وكيف يربطها مع بعضها بواسطة الطين، كما كان يطلي وجوه الحفرة الداخلية بذلك الطين ويستمر في طلاء الحائط القائم على حافة الحفرة تماماً كما كان يفعل الإنسان النطوفي، في حين أن الحيطان المبنية من الحجارة معروفة منذ الألف التاسع ق.م، ونجد أن الإنسان في السوية الثالثة بالمريبط قد أقام الحيطان

---

(١) كانت الأسبار التي تمت في موقع الشيخ حسن محدودة بحيث لا تفسح المجال لأخذ فكرة عن تنظيم القرية أو مساحتها الفعلية، لكن خلال ارتفاع مياه بحيرة الأسد انهار الجانب الغربي للتل وظهر مقطع للسوية الثالثة على امتداد ٢٠٠م، وبما أن تل الشيخ حسن نفسه يمتد ٢٠٠م من الشرق إلى الغرب فقد قدرت مساحة القرية في الألف الثامن ق.م بين ٣-٤ هكتارات.

المصنوعة من الطين المدكوك فوق أساس من الحجارة المربوطة بالطين ربما لوقايتها من تسرب المياه مثلما يحدث في أيامنا الراهنة.

وبما أن الإنسان في الألف الثامن ق.م كان قد بدأ فعلاً بمعالجة مواد المواد، ففي منطقة الفرات قطع حجرية ـ قطع أحجار حوارية على شكل متطاول يُشبه الخبز الوربي أو يشبه السيجار ـ وفي أريحا وتل أسود صنع اللبن في أشكال مماثلة ـ ويقصد هنا اللبن المصنوع باليد وليس بالقالب ـ ولم يكتف باستخدام السيقان الخشبية شاقولياً بل صنع منها صفائح ثم غمسها في الطين صفوفاً أفقية فوق بعضها البعض، إن التنوع الهائل في التقنيات الإنشائية في حضارة السوية الثالثة في المريبط وفي عمائر أريحا تشهد على مهارة معمارية جديدة كلياً.

ثانياً: والاستنتاج الثاني يتعلق بمساحة القرى نفسها، فالقرية أصبحت تشغل مساحة ملحوظة خلال النصف الثاني من المرحلة آنفة الذكر ـ أي في أوائل الألف الثامن ق.م ـ وهذا ما يتجلى بوضوح في أريحا خلال المرحلة (أ) من العصر الحجري الحديث السابق لظهور الفخار، لكن العكس هو خلال بدايات العصر الحجري الحديث، ولقد رأينا الامتداد الذي وصلت إليه قرية الشيخ حسن في نهاية السوية الثالثة، وتوجد بعض الأدلة على امتداد قرية المريبط امتداداً واسعاً خلال الفترة نفسها، بيد أنه من الصعب معرفة الزمن الدقيق الذي أخذت فيه قرية وادي الفلاح امتدادها وذلك لعدم معرفتنا الكافية بالأدوات الصوانية والحجرية المرتبطة بهذه القرية..

ومهما يكن من أمر فيبدو أن أعداداً متزايدة من السكان أصبحت تتجمع في قرى الألف الثامن ق.م سواء كان ذلك في سورية أو في فلسطين، يضاف إلى ما تقدم أن البرج والسور المكتشفين في أريحا ـ مهما كانت وظيفتهما ـ فهما

ينمان عن وجود نظام اجتماعي مختلف فهو أكثر تنظيماً وجماعية في تنفيذ الأعمال المعمارية من مجتمعات القرى الأخرى.

ثالثاً: أما الاستنتاج الثالث فيتعلق بمرحلة الانتقال من المسكن المستدير إلى المسكن المستطيل، ويتمتع هذا التحول في المخطط المعماري بأهمية سوسيولوجية، وفي حين أن المسكن المستدير مفيد بمساحة سكنية محددة ـ الحفرة المستديرة ـ غير قابلة للتوسع نجد أن المسكن المستطيل قابل لكل أنواع التوسع من خلال إضافة المزيد من الحجيرات الجديدة إليه، وبناء على ذلك أصبح هذا النوع الجديد من السكن يستوعب العائلة التي يتكاثر أفرادها باضطراد أي أنه يفسح المجال لأنماط جديدة من السكن الجماعي أو المشترك.

لقد مر العالم بأجمعه بهذه المرحلة الانتقالية ولكن الأزمنة تختلف من مكان لآخر، ويبدو أن هذه المرحلة نضجت على الفرات قبل غيرها من الأماكن، فقد بدأت هناك منذ مطلع الألف الثامن ق.م حيث تدرجت بصورة متلاحقة إلى أن أتقن الإنسان بناء الحيطان المستقيمة التي تلتقي بعضها مع بعض بزوايا قائمة، ففي السوية الثالثة (أ) في المريبط لم يكن للحيطان المستقيمة من وظيفة أخرى غير تقسيم المساحة الداخلية للمسكن المستدير إلى أكثر من حيز واحد، لكننا اكتشفنا بأن الإنسان بدأ يعرف نحت الحجارة وتسليح الحائط الطيني بالخشب، ومنذ بداية السوية الثالثة (ب) حدثت في المريبط وتل الشيخ حسن القطيعة مع المساحة المستديرة، وانتقل الإنسان إلى الحجيرات مربعة التنظيم ودون أن تكون محصورة داخل مساحة مستديرة، غير أن التصاق تلك الحجيرات مع بعضها البعض ينفي صلاح استعمالها للسكن، لكنها تطرح احتمال استخدامها صوامعاً ومستودعات مؤونة ملحقة بالمسكن الفعلي كما في المريبط حيث توجد أولى العمائر المستطيلة.

أما في موقع تل الشيخ حسن فيوجد الشاهد الأول على المسكن المستطيل الذي مهد الطريق لظهور المسكن المؤلف من عدة غرف، وذلك في السوية الرابعة في كل من موقعي المريبط وأبو هريرة.

وحول القبور وأساليب الدفن فقد زودتنا منطقة الفرات بشواهد عديدة، فالسوية الثالثة (أ) في المريبط احتوت على قبرين كلاهما من الدرجة الثانية، وكانت السوية الثالثة (ب) خالية من القبور لكن موقع الشيخ حسن المعاصر لهذه السوية احتوى على عدد من القبور، أما طريقة الدفن فهي إما من الدرجة الأولى أو أن يكون القبر مستودعاً يحتوي على ثلاث جماجم لا ترافقها بقايا عظمية أخرى، حيث شاعت عادة فصل الجمجمة عن الهيكل العظمي في بلاد الشام في حوالي (٧٥٠٠ ق.م).

١٢ ـ أبو هريرة :

تقع قرية (أبو هريرة) على شاطىء نهر الفرات في القطر العربي السوري، ولم يعد بها انسان منذ العصر النطوفي، ثم عادت إليها الحياة في الألف السابع ق.م، ولا يوجد تحليل بطريقة الفحم ١٤ (C 14) في الأجسام العضوية، لتحديد تاريخ الحياة الجديدة، لكن أسلوب الصناعة الصوانية والحجرية يوحي بأن تاريخها أحدث عهداً من تاريخ السوية الرابعة (ب) في المريبط، وربما أحدث عهداً من تاريخ مثيلاتها في (تل أسود) بالجزيرة العليا وفي (تل بقرص) قرب الميادين، أي مواقع النصف الثاني للألف السابع ق.م.

لقد ظهرت ثلاثة سويات أثرية، الأولى خالية من الفخار ومساحتها ما تزال ضيقة نسبياً، لكن معالمها الحضارية المعمارية مستقيمة الحيطان وقائمة الزوايا

ومبنية من اللبن ويُحتمل أن تكون مُتعددة الحجيرات، والأرضيات مفروشة بملاط أسود لماع لكن لم يتم التعرف بدقة على ماهيته، علماً أنه يظهر في السويات الأثرية اللاحقة.

امتدت القرية في السوية الثانية امتداداً ملحوظاً يصل إلى حوالي ١٢ هكتاراً، وظل اللبن مُستعملاً في البناء، أما أبعاد المساكن فكانت مُختلفة، وهي تتألف من عدة حُجيرات مُستقيمة الجدران وقائمة الزوايا، ويصلُ عدد الحجيرات في بعض المساكن إلى خمسة أمتار وطول الحجيرة الواحدة ضعف عرضها، ويحتوي المسكن على مصاطب منخفضة وأحياناً تكون مدهونة باللون الأحمر، ولم تكن المساكن متباعدة بل متراصة حول ساحات وأزقة.

كانت السوية الثالثة تحتوي على أوائل الشواهد المادية على صناعة الفخار، لكن تقلص حجم مساحة القرية إلى النصف، حيث تبلغ مساحتها حوالي ٦ هكتارات، أما العمارة فهي على نسق عمارة السويات السابقة.

وقد كان أهالي موقع أبي هريرة من المزارعين أيضاً، وكما في (تل الرماد) فقد استمرت الجماعة البشرية على نهج سابقتها في زراعة الأنواع الأليفة (الحبوب والقمح النشوي)، وزرعت أنواعاً جديدة كالشعير المؤلف من ستة صفوف والحمص والعدس والباقلاء والعنب.

وفي الفترة (٦٦٠٠ ــ ٦٠٠٠ ق.م) ظهرت في موقع أبو هريرة تماثيل حيوانات مصنوعة من الطين المُجفف، علماً أن أشياء أُخرى كانت مصنوعة من الطين المحروق، بيد أنه لم يستطع أحد التعرف على أنواع الحيوانات المشخصة مثلما الحال في تماثيل الحيوانات المُكتشفة في تل أسود في منطقة الجزيرة العراقية ـ السورية.

وإن طقوس الدفن في موقع أبي هريرة يتم عن طريق فصل الجمجمة عن الجثة بعد الوفاة، إلا أن المنقبين عثروا على مدافن داخل حفرة ليست عميقة في باطن المساكن أو باحاتها وكان في داخل تلك الحفر هياكل عظمية النادر منها مجرد من جمجمته، أو أجزاء من هياكل، أو مجموعة من جماجم أو عظام مختلطة وأن الجماجم فيها لا تخص الهياكل المختلطة معها، يضاف إلى ذلك أن الجماجم لم تكن مطلية بالجص ولا تحمل أي أثر يوحي بأنها كانت جزءاً من أثاث العبادة.

إن الوصف الذي ينطبق على السوية الرابعة في المريبط حيث كانت الجماجم مجردة أيضاً من الطلاء الجصي ينطبق على الشواهد المكتشفة في المواقع الفلسطينية أكثر مما ينطبق على شواهد موقع أبو هريرة.

وبناء على ذلك فقد استخدم الناس في بلاد الشام ـ باستثناء موقع أبو هريرة ـ من أواخر الألف الثامن ق.م حتى أواخر الألف السابع ق.م جزءاً من الهيكل العظمي وهو الجمجمة ليجعلوا منها تشخيصاً حقيقياً للأموات في مساكن الأحياء.

١٣ ـ تل بقرص :

تقع (بقرص) قبالة مصب الخابور في نهر الفرات، وبناء على الأسبار التي قام بتنفيذها كونتانسون وفان لير ضمن مساحة ٣٢ م^{٢} يعود تأريخها إلى نهاية الألف السابع ق.م ظهرت ثلاثة سويات أثرية كانت السفلى تضم في ثناياها حيطان مستقيمة وقائمة الزوايا من الطين المدكوك وأرضيات مفروشة بالجص أو التراب المدكوك وآثار حصيرة قصب متفحمة.

- احتوت السوية الثانية على أرضيات جصية ولبن مستطيل الشكل بمختلف الألوان مستخدم في حيطان مستقيمة وقائمة الزوايا وفي دعامات مربعة، لكن الكشف عن قناة مصنوعة من التراب واللبن هو أول دليل يظهر على عملية توزيع المياه على صعيد قرية.

أما السوية الثالثة التي ظهر فيها الفخار لأول مرة فقد احتوت على حيطان مبنية باللبن الضارب للحمرة، واستناداً إلى تقارير البعثة الآثارية الهولندية التي نقبت في بقرص فإن مساكن هذه السوية كبيرة الحجم ومتعددة الغرف ومشابهة للمساكن التي ظهرت في موقع أبو هريرة.

وحول الزراعة فلم يتم العثور على أدلة نباتية، لكن الغنم والماعز كانت كثيرة، وكان لوجود قرنٍ ملتوٍ قليلاً في السوية الثانية أكد بوجود تأهيل للماعز في بقرص، غير أن اتساع رقعة القرية يجعل من الصعب أن تتصور عزوف الجماعة البشرية هناك عن ممارسة الزراعة وتربية الحيوانات.

١٤ ـ تل أسود في الجزيرة العليا :

يقع (تل أسود) على ضفاف نهر البليخ بالجزيرة العليا ـ في القطر العربي السوري ـ ولم ينفذ فيه إلا سبر واحد مُدرج وقد رقمت الدرجات ١ ـ ٨ بدءاً من سطح التل، وأرخت تحاليل مادة الفحم ١٤ (C 14) السويات الثامنة والرابعة بحوالي (٦٥٠٠ ق.م)[1]، وهذا يعني أن متوسط تاريخ السويات الثمانية جميعها هو النصف الثاني للألف السابع ق.م، وقد احتوت السويات السفلية الثامنة والسابعة على فخار لامع وناضج، أما السويات العليا السادسة حتى الأولى فإنها مماثلة للسويات الخالية من الفخار في كل من أبو هريرة وبقرص.

---

(١) تاريخ السوية الثانية (٦٥٠٠ ق.م)، والسوية الرابعة (٦٦٧٠ ق.م).

تتألف المعالم المكتشفة من حيطان مستقيمة قائمة الزوايا ومبنية من اللبن المستطيل الشكل لكن بحجمين مختلفين وألوان مختلفة كما في بقرص، كذلك تم التأكد أن الجص كان مستخدماً إما كطلاء لأرضية متينة ومتماسكة ـ السوية الخامسة ـ أو لطلي الحيطان أو في فرش الأرض.

١٥ ـ الكوم :

يقع (تل الكوم) في منتصف المسافة بين الرقة وتدمر، وقد أُجري سبر مُدرج في الموقع كانت السوية السفلى خالية من الفخار، ولم يظهر من المعالم المعمارية فيها غير بقايا أرضيات وحيطان من الطين.

وفي السوية التي تعلو السابقة ظهرت أواني مصنوعة من الجص كما في (تل الرماد)، ومساكن مُستطيلة الشكل ومُتعددة الغرف، وحيطانها وأرضياتها مطلية بالجص، كما أن الغرف متصلة مع بعضها بواسطة درج.

إن هناك ثلاث خصائص تنفرد بها قرى الفرات وبادية تدمر خلال النصف الثاني للألف السابع ق.م وتتجلى في استعمال الجص ـ وهذه مادة جديدة في تلك المنطقتين ـ، وفي استخدام اللبن المستطيل في الفرات، أي المصنوع بالقالب كما هو الحال في الوقت الحاضر، وفي انتشار القرى ذات المساحات الواسعة.

إن الطبيعة الجافة التي تحيط بموقع الكوم وبقرص لا تساعد على الزراعة المطرية، وقد أثبت أن خضاراً معينة كالباقلاء والشعير السداسي أيضاً لا يمكن زراعتهما دون سقاية.

أما موقع الكوم وقرية الكوم الحالية قرب تدمر فإنها تدين للنبع الوحيد الباقي فيها لسقاية المزروعات التي يعيش عليها أهالي القرية الحالية.

١٦ ـ تل الرماد :

يبعد (تل الرماد) حوالي ٢٠ كم جنوبي دمشق، وقد نشأت القرية المكتشفة في موقع تل الرماد في حوالي (٦٢٠٠ ق.م)، ويرتفع تل الرماد ٨٣٠م عن مستوى سطح البحر ويتربع فوق هضبة بازلتية في أسفل جبال لبنان الشرقية.

وصلت المساحة المنقبة أثرياً إلى ١٥٠٠ م^2 وتبين أن القرية الأثرية تشغلُ مساحة ٣ هكتارات، والموقع يتألف من ثلاث سويات أثرية، اثنان منها يدخلان في نطاق الفترة التي نحن بصددها[1]، وهاتان السويتان لا تختلفان عن بعضهما بعضاً في مجال الأدوات الصوانية والحجرية وغيرها بل في المعالم المعمارية.

احتوت السوية الأولى في الأسفل على أكواخ بيضوية الشكل ومغمورة بالتراب حتى النصف ويتراوح قطر كل منها بين ٣ ـ ٤ أمتار، وكانت وجوه الحفر الداخلية مغمورة بالطين المدكوك، أما أرضياتها فكانت مفروشة إما بالكلس أو بالطين أو بألواح الحجارة.

وظهرت في السوية الثانية أوانٍ مصنوعة من الجص، وكانت هذه السوية ممتدة على طول المساحة التي تم تنقيبها (١٥٠٠ م^2)، وقد احتوت على نوعين من المعالم المعمارية: مساكن مستطيلة الشكل وكبيرة الحجم، حيطانها سميكة ٩٠ ـ ١٠٠ سم وأساساتها من الحجارة، وحيطان أخرى من اللبن المصنوع بالقالب، لكن ليس لهذه المساكن أرضيات مفروشة بالجص، والنوع الثاني

---

(١) أعطى تحليل الفحم ١٤ (C 14) تاريخ (٦٢٥٠ ق.م) للسوية الأولى و(٦١٤٠ ق.م). و(٥٩٥٠ ق.م) للسوية الثانية، حسب تحليل فان لير.

مساكن أصغر حجماً وحيطانها أقل سماكة ـ حوالي ٤٠ سم ـ مبنية من الحجارة أو من اللبن، وأرضياتها مفروشة إما بالكلس أو بالطين، أما الغرف في كلا النوعين فتستند على بعضها البعض أو ترتصف على طول زقاق أو حول ساحة.

ولم تظهر لحد الآن في تل الرماد أدلة نباتية قديمة تشهد على جذور زراعية وطيدة بدءاً من السويات الأثرية السفلى، وإلى جانب أنواع الحبوب الأليفة التي ظهرت في السوية الأثرية الأحدث عهداً ظهرت أنواع أخرى، يضاف إلى ذلك العدس الأليف، والشواهد الأولى على الإطلاق كانت لزراعة الكتان.

وقد عُثِرَ في موقع تل الرماد على أشكال وتقنيات مختلفة للأدوات واللوازم المصنوعة من الحجارة مثل نصال المناجل، ورؤوس النبال التي تحتوي على ضربات تهذيب دقيقة.

وعُثِرَ في تل الرماد على العديد من الجماجم المشكلة بطبقة من الجص وذلك في السويتين الأولى والثانية، وهذه الجماجم مجللة بالكلس مثلما الحال في (بيسمون)، ويشمل الطلاء الجصي جزء الفك السفلي الذي كان مجرداً من الأسنان، لكن الطلاء الجصي يمتد حتى الحلق.

ولقد تم إبراز معالم العينين بطبقة ناصعة من الكلس، وكان مستودع الجماجم يضم حوالي ١٢ جمجمة مصبوغة باللون الترابي ومجتمعة داخل حفرة بيضوية محددة بألواح اللبن وبآنية خشبية من الجص، وكان مع الجماجم دمى طينية بشرية يبلغ ارتفاع كل منها حوالي ٢٠ سم وفي حالة جلوس، لكن الرأس مختصر المعالم ويظهر كمجرد انتفاخ وقمته مسطحة، ولا بُدَّ أن كانت تُوضع فوقه الرقبة المجصصة للجماجم، ولا بُدَّ أن مثل هذه التماثيل كانت قواعد ترتكز عليها الجماجم، وكان هناك مستودع جماجم مع تمثال صغير قواعد ترتكز عليها الجماجم، في قلب حفرة منقورة في السوية الأولى لمسكن مستدير.

١٧ ـ اللبوة :

تقعُ (اللبوة) في سهل البقاع اللبناني، ويبدو أن السوية الأثرية الخالية من الفخار مُعاصرة للسوية الثانية في تل الرماد، أي أن تاريخها يعود إلى حوالي (٦٠٠٠ ق.م)، وقد ظهر فيها نفس الأواني الجصية، لكن لم تظهر فيها أية معالم معمارية، غير أن مسكناً مستطيلاً طليت أرضياته بالجص ظهر في السوية التي تليها مباشرة.

١٨ ـ رأس الشمرة :

يقع (تل رأس الشمرة) في اللاذقية على الساحل السوري، وقد ظهرت في السوية الخامسة (ج) معالم معمارية تعود إلى حوالي (٦٢٠٠ ق.م)، وهي تتألف من مساكن مستطيلة متعددة الغرف ومحاطة بحيطان مبنية من الحجارة تتراوح سماكتها بين ٥٠ ـ ٧٠ سم، لكن الجص لم يستخدم في عمارة هذه السوية بل في السوية الخامسة (أ) التي يرقى تاريخها إلى الألف السادس ق.م.

ونجد أن موقع رأس الشمرة (أوغاريت) يقدم لنا الشواهد الأولى على الاستقرار الزراعي في منطقة لا تنبت الحبوب البرية فيها.

١٩ ـ أبو غوش :

يقع موقع (أبو غوش) على ارتفاع ٧٠٠ م فوق مستوى سطح البحر في جبال الضفة الغربية المحتلة بفلسطين، وقد بلغت مساحة السوية الأثرية الخالية من الفخار مقدار ٢٠٠٠ م^2.

وقد تم إجراء أسبار أولية في هذا الموقع بلغت مساحتها ٣٤٠ م٢، وقد أسفرت التقنيات الأثرية عن ظهور أربع وحدات سكنية مستطيلة حيطانها مبنية من الحجارة وأرضياتها مطلية بالكلس.

وتبلغُ أبعاد أفضل المساكن حفظاً ٨ × ٨ م وأرضية مطلية بالكلس فوق حصيرة من الحجارة وقد جددت أكثر من مرة، وتتراوح سماكة الحيطان بين ٥٠ و١١٠ سم، والحيطان مبنية بوجهين من الحجارة وفيما بينهما حشوة من الحجارة الصغيرة.

٢٠ ـ بيسمون :

تقع (بيسمون) في الجليل الأعلى غربي بحيرة الحولة بفلسطين المحتلة، وتبلغ مساحة تل بيسمون ١٣ هكتاراً تم التنقيب فيه ضمن مساحة ٨٠ م٢ وكشف عن مسكن مستطيل الشكل وحيطانه مبنية من الحجارة ويشتمل على خمس غرف مربعة بطول ٤ م، وأرضياتها مطلية بالكلس ومدهونة باللون الأحمر، وقد كان هناك ساقان خشبيان في الوسط يحملان السقف، وتوجد حفرة موقد قرب الباب من الداخل وتطل هذه الغرفة من ناحية الغرب نحو ردهة أرضيتها مبلطة بالحجارة.

وقد تم العثور في هذه الردهة على جمجمتين بالجص، وأن اللقى الأثرية من أدوات صوانية وغيرها مماثلة لنظيراتها المكتشفة في تل الرماد قرب دمشق.

٢١ ـ تل الشيخ علي :

يقع (تل الشيخ علي) على بعد ١٩٠ م تحت مستوى سطح البحر وعلى شاطىء بحيرة طبرية بفلسطين المحتلة، وقد كشفت التنقيبات الآثارية عن مساحة

٣٠٠ م^{٢} من سطح التـل، وكـانت السـويتان الرابعـة والثالثـة تحـوي علـى آثـار منقولة معاصرة لآثار تل الرماد، أي المرحلة (ب) من العصـر الحجـري الحديـث السابق لظهور الفخار.

وقد ظهرت في السـوية الرابعـة مسـاكن مسـتديرة أساسـاتها مـن الحجـارة الصغيرة، أما المساكن المستطيلة فلم يظهر منها إلا حائط واحد في السوية الثالثة.

العصور التاريخية

مرحلة الألف الثالث ق.م إيبلا

◆ مرحلة الألف الثالث ق.م .. إيبلا :

في حلول الألف الثالث ق.م يتضحُ لدينا بأنه كان قد مر على سورية حقب طويلة من التطور الحضاري حيثُ ظهرت منذ أواخر العصر الحجري الحديث مراكز حضارية هامة مثل جبيل وأوغاريت وغيرهما وقامت في هذه المراكز إدارات لتنظيم المجتمعات القديمة، وقد بقي مدى نفوذها محدوداً وحصوراً في نطاق جغرافي صغير.

أمّا التطور لتأسيس أول دولة شمل نفوذها معظم بلاد الشام فقد تم في الألف الثالث ق.م. في زمن معاصر للدول الأولى في العراق ومصر، وفي الوقت الذي كان الغموض يكتنف المعلومات عن الأوضاع في سورية في تلك الحقبة التاريخية في الوقت الذي كانت فيه مصر قد حققت وحدة سياسية كبرى ببسط نفوذ حكومة مركزية على وادي النيل وبالسعي إلى توسع نحو سيناء وفلسطين، وفي الوقت الذي كان فيه الأكاديون في العراق يقيمون صرح أول قوة امبراطورية في الشرق الأدنى القديم كانت إيبلا Ebla كما يتضح من التنقيبات الآثارية والدراسات المنشورة حتى الآن مدينة عامرة متطورة وعاصمة لمملكة تمتد على معظم المناطق الممتدة من نهر الفرات حتى البحر المتوسط، ومركزاً تجارياً امتد تأثيره إلى كل البلاد المجاورة.

إيبـــــلا

١ـ اكتشاف إيبلا:

في عام ١٩٥٥م بينما كان أحد الفلاحين الســوريين يحرث أرضه الواقعة بموقع «تل مرديخ» الواقعة جنوبي حلـب قـرب بلـدة «سراقب»، عثر بطريـق الصدفة على حوض حجري قديـم[1] لعله كما تـدل الدلائـل يعـود إلى الفـترة السورية القديمة الأولى ١٩٠٠ ـ ١٨٥٠ ق.م، ويؤكد هذا الحوض على الأهمية الحضارية الكبيرة للمراحل الأولى من تاريخ سورية سيما وأن التنقيبات السـابقة التي قامت بهـا البعثـة الأثريـة البريطانيـة في تـل العطشـانة «الالاخ» كـانت قـد كشفت في ذلك الموقع نواح مهمة من الحضارة السورية في مراحلها[2].

بدأت أعمال الموسم التنقيبي الأول للبعثـة الأثريـة الإيطاليـة في تـل مرديـخ ابتداءاً من أيلول عام ١٩٦٤م، وقد تم وضع أهم النقاط الطبوغرافية لأهم المواقع الأثرية التي سيتم إنجازها خلال المواسم المقبلة، ويقصـد مـن ذلـك تهيئة سـجل للتلال القديمة قبل العصر الكلاسيكي وإتمام الدراسة الأولية لمواقع الخرائـب العائدة للعصر الروماني البيزنطي التي عرفـت ونقـب بهـا مـن قبـل، بفضـل مـن الرحالـة الآثـاريين الذيـن لم يصلـوا جميعاً إلى منطقـة تـل مرديـخ، وقـد بـدأت الأعمال الأثرية في تل مرديخ الذي يصفه (باولو ماتيه) في تقرير موسمه التنقيبي

---

(١) د. عمر الدقاق ـ إيبلا.... منعطف التاريخ ـ منشورات وزارة الثقافة السورية ـ دمشق عام ١٩٧٩، ص١٧.

(٢) باولوماتيه ـ تل مرديخ (إيبلا) أقدم مملكة عامرة في سورية ـ منشورات جامعة روما ـ روما ١٩٧٨م، ص ص٥،٦.

الأول بأنه يتألف من ذروة أهليجية الشكل مكونة من المرتفعات، وتضم شريطاً واسعاً من استدارات أرضية في وسطها يرتفع الأكروبول الذي هو الحي المرتفع الذي يميل نحو الجنوب، ويبلغ عرض التل نحو ٩٠٠م في قطره الشمالي الجنوبي و ٧٠٠ م في قطره الشرقي الغربي، وأعلى ارتفاع له هو ١٣م بالنسبة للسهول المجاورة، ولا تكاد ترتفع المنطقة المحيطة بالمدينة المنخفضة إلى ثلاثة أو أربعة أمتار عن نفس مستوى السهول، ويوجد أربعة انخفاضات واحدة منها صغيرة وجميعها منظورة وهي تدل على أماكن الأبواب القديمة للمدينة، أمّا البرونز الحاصل فهو كما أظهرته الحفريات يؤلف جداراً هاماً من سور المدينة المبني من الآجر المشوي(١).

وفي عام ١٩٧٤ م قادت التنقيبات إلى اكتشاف أحدث انعطاف كبير في معلوماتنا عن حضارات بلاد الشام القديمة حيث أنه باكتشاف إيبلا وعاصمة مملكتها تحقق جذب عالمي واهتمام واسع النطاق بآثار المنطقة، وقد ورد ذكر مدينة إيبلا في نصوص تعود إلى عصر السلالات الباكرة، كما أن كلاً من «سرجون الأكادي» وحفيده «نرام سين» قاما باحتلالها، ويذكر «كوديا» ملك لكش أنه استورد الأثاث منها، وإن المعلومات المستقاة من الأرشيف الملكي أفادت بأن إيبلا كانت مملكة ذات قوة عسكرية ومزدهرة على الصعيد الثقافي والتجاري.

لقد استفادت إيبلا من موقعها الجغرافي في منطقة خصبة جنوبي حلب تتوسط بين بلاد الرافدين في الجنوب والأناضول وسواحل البحر المتوسط في

---

(١) علي القيم ـ امبراطورية إيبلا ـ دار الأبجدية ـ دمشق ١٩٨٩م، ص١٢ ـ ١٤.

الشمال والغرب، وكـان بعدهـا النسبي عـن التأثير المباشـر لهـذه المنـاطق أحـد الأسباب التي ساعدت على تشكل شخصيتها الحضارية المستقلة.

كانت إيبلا مملكة زراعية وتجارية من الطراز الأول اشتهرت بزراعة الحبوب والكروم والتين والزيتون وصنعت الأثاث والملابـس وصدرتهـا إلى كافـة أرجـاء الشرق القديم، ولقد قُدِّرَ عددُ سكان هـذه المنطقـة بحوالي مليـون إنسـان وهـم أجداد العمورين ـ الكنعانيين وأقرباء الأكاديين في بلاد الرافدين.

وردت في نصـوص إيبـلا ووثائقهـا أسمـاء العديـد مـن المـدن القديمـة مثـل «حـران»، و«لكـش»، «شـورباك»، و«نيبـور»، و«اومـا» و«كيـش»، كمـا ذكرت في نصوصها أيضاً «آشور»، و«إيمار»، و«أرمان»، وكـانت هـذه المـدن على علاقات تجاريـة وروابـط قويـة مـع إيبـلا، ويمكـن القـول قـد شمـل المنطقـة الشمالية الغربية من سورية وامتد من الفرات شـرقاً حتـى البحـر المتوسـط غربـاً ومن سفوح طوروس شمالاً حتى مستوى حماه جنوباً.

ولم يُعثر لحد الآن على قائمـة واحـدة بأسمـاء سـلالات وملـوك إيبـلا لكـن ذكرت أسماء عدة ملوك في النصوص مما سمح بتكويـن تتـابع زمـني محـدد لثلاثـة ملوك أوائل هـم «اجريشِ حلم»، «اركب دامو»، «ار ـ ايتوم» وأن هذا الأخـير كان معاصراً للملك «ماري» المدعو «ابلول ـ ايل»، يلي ذلك ملكان آخران همـا «ابريوم» الذي ربما يكون معـاصراً لملـك اكـاد «سـرجون» وابنـه «دوبوكـو ـ اداد» الذي دُمرت إيبلا في عصره ودُكت علـى يـد ملـك اكـاد «نـرام سـين»، ولقد ذكر هؤلاء الملوك بأسمائهم الصريحة وألقابهم كما ذكـرت أسمـاء أبنـائهم، وقد حكموا جميعاً في عصر يقع في حـدود ٢٣٥٠ ـ ٢٢٥٠ ق.م. وهـو عصـر ازدهار مملكة إيبلا الأول.

إن اكتشاف إيبلا يعتبر واحداً من أهم الكشوفات الآثارية في العالم حيث أوضحت الحفريات المستمرة التي قامت بها البعثة الإيطالية التي يديرها البروفسور باولو ماتيه المراحل التاريخية التي مرت بها مدينة إيبلا، وآخر ما اكتشف من مراحل كان عام ١٩٧٥م، حيث تبين أن هذه المدينة كانت تعيش منذ عام ٢٤٠٠ ق.م، واستمرت على الرغم من الأحداث الكبيرة التي مرت بها حتى عام ٢٢٥٠ ق.م، وفي حدود ٢٤٠٠ - ١٨٠٠ ق.م. كانت إيبلا مركزاً حضارياً هاماً في شمال سورية، وبلغت قوتها السياسية أوجها، ولقد سيطرت على المنطقة وكانت أكثر نفوذاً من مملكة بابل أيام ملكها السادس «حمورابي».

ولقد عُثِرَ على شواهد من حضارة هذه المرحلة تتمثل بثلاثة معابد وقصر ملكي وبوابة ضخمة تقوم جنوبي المدينة، ويُعتبرُ طراز هذه العمارة أساساً للعمارة السورية فيما بعد، كما عُثِر على قطع ثمينة هامة منها أحواض حجرية.

٢- آثار إيبلا:

بشكل عام نستطيع القول إنه منذ بداية السبعينات من هذا القرن أخذت معاول التنقيب تكشف في تل مرديخ مدينة (إيبلا) القديمة عن معالم القصر الملكي الذي تهدم في حدود عام ٢٢٥٠ ق.م، وهذا القصر مُؤلف من باحة سماوية مُحاطة بأروقة ولعلها قاعة الاستقبالات الملكية، ويُحيطُ بالقصر جدار بارتفاع ١٥ م له ثلاث مداخل، إحداها ما زال يحتفظ بمصطبة الشرف يجلس فيها الملك خلال مراسم الاستقبال، ومدخل آخر على شكل بوابة ضخمة ذات درج ينتهي إلى غُرَفِ القصر في الطابق العلوي، وفي أنقاض هذا القصر الذي تهدم كلياً في أقسامه الأمامية، وفي إحدى غرف القصر الواسعة الواقعة عند الرواق الشمالي، تم العثور على آلاف الرقم الطينية، وهذه الرقم هي ألواح طينية منقوش عليها كتابة مسمارية.

إن اللغة التي كتبت بها هذه الألواح هي أقدم لغة عربية معروفة وهي مع ذلك لهجة من لهجات ثلاث كانت معاصرة ولاحقة، هي اللهجة الأكادية في بلاد الرافدين واللهجة الإيبلائية في داخل سورية ثم اللهجة الكنعانية في الساحل السوري ـ الفلسطيني والتي تتضمن أيضاً لهجات فرعية كاللهجة الأوغاريتية واللهجة الفينيقية[1].

في الموسم التنقيبي الأول سمحت المشاهدات السطحية لتل مرديخ ما يؤكد وجود العصر البرونزي القديم الرابع، والعصر البرونزي الوسيط الأول، والصفة المميزة لفخار العصر البرونزي القديم الرابع هو أنه من النوع الصافي الرقيق ذي اللون الأصفر ونادراً وجود اللون الوردي الشاحب، وهذا الفخار ملحوظ في نماذج الزبادي المنتفخة قليلاً والكؤوس والأباريق وجميعها عليها تزيينات طلائية أفقية بلون غامق أحمر أو أسود ومحززة بخطوط حلزونية، كما عُثِرَ على فخار مصنوع باليد مغشى بطبقة زجاجية ذات لون مخضر، وعلى الكثير من النماذج الفخارية المصنوعة ذات اللون الكستنائي ضارب إلى اللون البنفسجي أو الأخضر وهي بشكل صحون وقدور كلها تعود إلى نفس العصر المذكور وإلى هذا العصر أيضاً تعود نماذج التمائم الفخارية الصغيرة.

أمّا العصر البرونزي الوسيط فيتصفُ فخاره باللون البراق والوردي الصافي على شكل جرار نخرة متوسطة الحجم، وكؤوس ذات قعر وأخرى عليها خطوط تقع تحت الفوهة، وبأوانٍ ذات قياس متوسط بتزيينات محززة تحيط بها متوازية ومنفصلة أحياناً بحز مموج، ويُلاحظ بأن هذه الأواني الفخارية مزينة أحياناً بجديلة مشغولة واقعة تحت الحزام الثاني المحزز ومزينة بخطوط عمودية

---

(١) د. عفيف البهنسي: وثائق إيبلا، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ١٩٨٤م.

وبيصمات أصبعية، وهذا النوع من الفخار وجد منتشراً على المرتفعات المحيطة بالمدينة الواطئة، بينما وجد على الأكربول نفس النماذج من الكسر المختلطة مع نماذج أخرى أحدث منها تعود إلى العهدين الهلنستي والروماني.

وبدأ الموسم التنقيبي الثاني في عام ١٩٦٥م، وفي هذا الموسم استؤنفت أعمال الموسم الماضي ففي البقعة (أ) قامت البعثة الأثرية بتوسيع العمل في الخندق الجنوبي باتجاه الجنوب الغربي، وهو الخندق الذي كشفت سنة ١٩٦٤م عن المزايا التقنية لسور المدينة الكبير في محاولة للوصول إلى مكان الانخفاض الجنوبي الغربي للسور ولمعرفة شكل بناء باب المدينة، وكان أهم اكتشاف في هذا القطاع العثور على تمثال من البازلت لرجل جالس دون رأس.

وفي القطاع (ب) تابعت البعثة حفرياتها لاكتشاف العناصر المعمارية ذات الصلة بالجدار الكبير الذي ظهر في الموسم الماضي دون معرفة دوره في البناء، وأدت الحفريات فعلاً إلى اكتشاف حجرة مربعة الزوايا.

وتوسعت الحفريات في القطاع (د) حيث قامت البعثة بحفر خندق على طول المنحدر الغربي من مرتفع التل واكتشفت حجرة كانت تشمل قسماً من بناء مقدس، والواقع أن هذه الحجرة الشمالية الأخيرة كانت من معبد يتجه من الجنوب إلى الشمال ولا بُدَّ أن يكون لها دهليز في المنطقة التي لم تجر فيها أية حفريات والمعبد محفوظ بحالة جيدة، مما سمح بدراسة أصول البناء بكل عناية، والبحث بشكل أعمق لإلقاء الضوء على المشاكل المعمارية والزمنية المتعلقة بأساسات البناء.

وبدأت ورشة جديدة العمل في القطاع (ي) شمال المرتفع الأكربول ــ للحصول على معلومات أدق بالنسبة للمنشآت الحديثة التي وجدت آثاراً لها

خلال الموسم الأول، أو لإنجاز العمل التمهيدي لدراسة طبقية تتيح إلقاء نظرة شاملة لمختلف العصور التي عرفت الحياة في التل.

ويشير تقرير البعثة الأثرية لجامعة روما أن القيمة الفنية والدلالة الخاصة بالنسبة لأصول الثقافة التصويرية السورية التي يتمتع بها الحوض الكلسي الذي وجد في الزاوية الجنوبية الغربية من معبد القطاع (د) والذي يتميز بأنه ذو جرنين، وهي خاصة وجدت في قطعتين بازلتيتين على الأقل في تل مرديخ بينما يندر ذلك في الأماكن الأخرى، وإن هذا الحوض مُزَيّن من أطرافه الثلاثة بنقوش تمثل طقوساً ومناسك على وجهه الأساسي وصوراً دينية وثنية على الوجوه الجانبية، وهو يشبه الحوض البازلتي المحفوظ في متحف حلب الذي قدر تاريخه بالعصر السومري الجديد[1]، دون استبعاد تاريخاً أقدم منه، وتاريخ هذا الحوض يمكن تحديده باللجوء إلى العناصر التزيينية الموجودة فيه، كما أن الطريقة التي رسمت بها ثياب الأشخاص الجالسين بأجزاء من خطوط مائلة هو تحرير واضح لثياب سكان بلاد الرافدين المعروفة باسم «كوناكس» مما لا يعود إلى عصر أحدث من سنة ١٨٢٠ ق.م.

وحول الموسم التنقيبي الثالث فقد تابعت بعثة جامعة روما عملها في تل مرديخ في الفترة الواقعة بين ٢٨ ـ آب و٥ تشرين أول عام ١٩٦٦م. فوضعت تقسيماً أولياً قُصِدَ منه أن يكون أساساً لمحاولة تاريخ منشآت الموقع خلال التنقيب فيه وفق ما يلي: فترة أولى تقابل سوية (F) من سهل العمق، وسوية حماه (K) وسوية مرسين في تركيا (XII-XIV) وآخر الدور الحجري ـ النحاسي في طرسوس بتركيا، وتُعتبرُ هذه الفترة من أقدم فترات التل ـ حتى ذلك التاريخ ـ

(١) عصر سلالة أور الثالثة (عصر الانبعاث والنهضة السومرية)، (٢١١١ ـ ٢٠٠٣ ق.م).

وعُثِرَ على مخلفاتها مُتوضعة فوق الطبقة الصخرية مباشرة في القطاع (B) تحت أساسات معبد المدينة المنخفضة، كما التقطت بعض الكسر الفخارية التي تعودُ لهذه الفترة والتي كانت متناثرة على السطح وخاصة الذروة والسور.

والفترة الثانية تقابل سوية حماه (J)، وسويق العمق (J-I)، وسوية البرونز القديم (III-IV) عند أولبرايت، وهذه الفترة أهم فترات تل مرديخ وأغناها بالمنشآت العمرانية والمُخلفات الحضارية، وعُثِرَ عليها في القطاع الشمالي من الأكربول تحت الأقسام الشمالية الغربية من القصر العائدة للفترة (III)، وفي الأسبار التي تمت. في السطح المرصوف المشيد من اللبن ليكون أساساً للمعبد الكبير، ولا يوجد ما يثير الانتباه في المدينة المنخفضة في هذه الفترة، إلا أن السور يبدو أنه يعود لهذه الفترة.

أمّا الفترة الثالثة فتُقابل سوية حماه (H) وسوية العمق (K)، وتعادل سوية البرونز الوسيط (I-III) وجزئياً سوية البرونز الوسيط (II-B) عند أولبرايت على الأقل، وفي هذه الفترة اتسعت المدينة ولا يعرف كم دام ذلك. ويبدو أن هذه الفترة من حياة المدينة انتهت بأزمة خطيرة وتعرضت فيها لحريق كبير أو عمليات نهب وتدمير.

والفترة الرابعة تقابل سوية حماه (G) وتعادل بشكل عام عصر البرونز الحديث... لقد انحصرت بقايا الاستيطان في هذه الفترة بالأكروبول دون نظام، أمّا في المدينة المنخفضة والسور فلم تجد البعثة ما يخص العصر البرونزي الحديث، وعليه تفترضُ البعثة هنا أن الأكروبول سُكِنَ في هذه الفترة من قبل جماعات صغيرة وعلى فترات متقطعة، وقد ساهم المعبد الذي بقي قائماً على إبقاء الناس حوله.

وتُقابل الفترة الخامسة سوية حماه (E-F) وتُعادل فترة عصر الحديد الأول والثاني، وفي هذه الفترة اقتصر السكن على الأكروبول في تل مرديخ، ويُصبحُ عبارة عن إحدى القرى المهمة من عصر الحديد.

وتعود الفترة السادسة للعهدين الأجنبيين الفارسي والهلنستي، وتمتاز هذه الفترة بازدهار التوطن الآرامي وتوسعه في القسم الشمالي من الأكروبول، أو على الأرجح في بعض المناطق المنخفضة.

وتعود الفترة السابعة إلى عهد الاحتلال الروماني المُتأخر والبيزنطي، وليس ثمة بقايا من هذه الفترة إلا بعض القبور في منطقة المعبد الكبير تحت السطح مباشرة في القطاع (D)، لكن هناك بعض المباني القليلة العائدة إلى هذه الفترة على السطح الغربي من الأكروبول.

أمّا الفترة الثامنة فتعود إلى العصر العربي الإسلامي ـ العهد الأموي ـ ويمكن أن يعود لهذه الفترة جدار حجري عند البوابة الجنوبية حيث وجدت عليه كتابة عربية أمكن تأريخها بالعهد الأموي[١].

وفي الفترة بين ١٠ تشرين الأول و٥ كانون الأول من عام ١٩٦٧م، تابعت البعثة الأثرية أعمال موسمها التنقيبي الرابع في الأقسام السابقة وفي القطاع (A) الواقع عند بوابة المدينة الجنوبية حيث تم كشف عدة غُرف داخل الحصن الشرقي، وشقت أسبار في أعلى سويات السور غربي الباب الجنوبي، وفي القطاع (G) استمر التنقيب في القبر ـ البئر دون الوصول إلى قعر غرفة الدفن،

(١) تقرير موجز عن الموسم التنقيبي الثالث لعام ١٩٦٦م، مجلة الحوليات الأثرية السورية التي تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في القطر العربي السوري، المجلد الثامن عشر، دمشق عام ١٩٦٨م.

وفي القسم الغربي من الأكروبول تم اكتشاف معبد ثلاثي الحُجرات، وفي القطاع (F) جرى سبران للتحقق من البنية الطبقية للأكروبول في المنطقة الواقعة بين المعبد والقصر، وفي القطاع (E) تابعت البعثة ترحيل السويات السطحية في الفترة الرابعة، كما وسعت حفريات القصر العائدة للفترة الثالثة[1].

وفي الموسم الأثري الخامس الذي أُنجز في عام ١٩٦٨م، تابعت البعثة أعمال التنقيب في بعض القطاعات السابقة، وفتح قطاع جديد هو القطاع (G) الذي كان الهدف منه معرفة مدخل القلعة القديم، وقد توصلت البعثة من هذا القطاع إلى أهم النتائج التي حصلت عليها خلال الموسم ألا وهي تحقيق هوية المدينة التي كانت قائمة في تل مرديخ.

إن مسألة تحقيق هوية تل مرديخ طرحت على بساط البحث أثر اكتشاف قطعة من تمثال مسجلة برقم Tm 86. G61 عليها كتابة أكادية مُؤلفة من ٢٦ سطراً في وضع حسن تقريباً.

وبناءً على الاكتشافات الأثرية التي تمت في موسم عام ١٩٧٥م وقبيل العثور على أرشيف السجلات الملكية في البناء (G) اقترح باولو ماتيه سنة ٢٢٥٠ ق.م لتكون تاريخاً لحادثة الدمار الذي سببه (نرام سين) الأكادي، وقد جاءت الوثائق الأثرية فيما بعد لتؤكد ذلك، وخاصة تلك الرِقم التي اكتشفت في القصر الملكي.

واستناداً إلى نتائج الأعمال الأثرية المنشورة لحد الآن نُؤرخ عُصور الاستيطان في تل مرديخ ـ إيبلا ـ على النحو التالي:

---

(١) مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد ٢٠، دمشق عام ١٩٧٠م، ص١٣١.

١ ـ مرديخ ١ حوالي ٣٥٠٠ ـ ٢٩٠٠ ق.م. (فجر التاريخ).

٢ ـ مرديخ IIA حوالي ٢٩٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق.م. (الدور البرونزي القديم) I–III، أو ما يُعرف باسم فجر الدور السوري الأول.

٣ ـ مرديخ I B II حوالي ٢٤٠٠ ـ ٢٢٥٠ ق.م. (الدور البرونزي القديم) IVA، أو ما يُعرف باسم فجر الدور السوري الوسيط.

٤ ـ مرديخ IIB2 حوالي ٢٢٥٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م، (الدور البرونزي القديم IVB، فجر الدور السوري المُتأخر.

٥ ـ مرديخ IIIA حوالي ٢٠٠٠ ـ ١٨٠٠ ق.م، (الدور البرونزي الوسيط) I، الدور السوري القديم الأول.

٦ ـ مرديخ IIIB ١٨٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م، (الدور البرونزي الوسيط) II، الدور السوري القديم.

٧ ـ مرديخ IVA ١٦٠٠ ـ ١٤٠٠ ق.م، (الدور البرونزي الأخير) I، الدور السوري الوسيط الأول.

٨ ـ مرديخ IVB حوالي ١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م، (الدور البرونزي الأخير) II، الدور السوري الوسيط الثاني.

٩ ـ مرديخ VA حوالي ١٢٠٠ ـ ٩٠٠ ق.م، (الدور الحديدي الأول)، الدور السوري الحديث.

١٠ـ مرديخ VB حوالي ٩٠٠ ـ ٧٢٠ ق.م، (الدور الحديدي الثاني)، الدور الآرامي والحثي الجديد.

١١ـ مرديخ VC حوالي ٧٢٠ ـ ٥٣٥ ق.م، (الدور الحديدي الثالث)، الدور الآرامي والحثي الجديد أيضاً.

١٢ـ مرديخ VIA حوالي ٥٣٥ ـ ٣٢٥ ق.م، دور الاحتلال الفارسي.

١٣ـ مرديخ VIB حوالي ٣٢٥ ـ ٦٠ ق.م، دور الاحتلال اليوناني.

١٤ـ مرديخ VII حوالي ٣٠٠ ـ ٧٠٠ ميلادي[١]، دور الاحتلال الروماني المُتأخر والبيزنطي.

لقد شُيدت إيبلا في الألف الثالث ق.م كمدينة ضخمة، لكن الزمن خرب القسم الأكبر منها، إلا أن النصوص الكتابية للأرشيف المكتشف تُخبرنا بأنَّ المدينة كانت مُنقسمة إلى أربعة أقسام على شكل أحياء، وتألفت من الأكروبول والمدينة المنخفضة، كما ورد في هذه النصوص ذكر أكثر من قصر، وذكر أيضاً أن المدينة قد حُصِّنَتْ بسور قوي وكان لها أربع بوابات، وقد أبانت التنقيبات عن قصرٍ منيفٍ أُطلق عليه تسمية «القصر الملكي» ج، وهو يمثلُ أهم بقايا الألف الثالث ق.م في إيبلا.

إن القصر الملكي شُيد على المنحدر الجنوبي الغربي للأكروبول، وتمثله سوية تل مرديخ ٢ بـTMIIBI، وقد كشفت عن جزء هام منه ويتوقع أن تكون بقية أجزائه الشرقية تحت الأنقاض، بينما أزالت العوامل الطبيعية قسمه الغربي.

لقد بُنِيَ هذا القصر حسب مخطط جديد محلي غير معروف سابقاً، وهو بذلك يمثل ظاهرةً فريدةً من نوعها، إذ لم يشد كوحدة معمارية مُصممة بشكل مُسبق بل من وحدات تبدو وكأنها مُستقلة بعضها عن بعض ولكل وحدة وظيفتها الخاصة، ويتداخل بناء القصر مع بقية أجزاء المدينة فيظهرُ وكأنه جزءٌ أساسي منها ليس منعزلاً أو مستقلاً عنها، وقد كشف عن الساحة العامة والبرج والدرج والبوابة الرئيسية وبعض الأبنية الأخرى.

---

(١) علي القيم: مرجع سبق ذكره، ص٢٣، ٢٤.

إن الساحة العامة هي القسم الأضخم في القصر بلغت أبعاد ما كشف منها ٥٠×٢٧ م وهي في موقع وسط بين بقية أجزاء القصر في الشرق وبين أبنية المدينة في الغرب، وهذه من الميزات الهامة في قصر إيبلا على الصعيد المعماري، وقد بُنيَ الجداران الشمالي والشرقي للباحة الكبرى من اللبن على أساسات من الحجر وبلغت سماكتها ٢,٨م، ويحيط بهذين الجداران رواقان حُمِلَتْ سقوفهما على أعمدة خشبية انتصبت فوق بلاطات ضخمة، وتُعتبرُ هذه الأروقة الأولى من نوعها في سورية.

لقد شيدت في الرواق الشمالي منصة من اللبن المطلي بالكلس ويتم الصعود إليها من جهتها الجنوبية والغربية بدرجين بأبعاد ٤,٥ × ٣م، وبارتفاع ٥٠سم، وهي تمثل منصة العرش التي كان يقف عليها الملك تحت مظلة لم يبق منها شيء، وفي الرواق الشرقي للساحة يقوم باب ودرج ضخم يصل بين الباحة وبقية أجزاء القصر الشرقية، على الجهة الشمالية للدرج يوجد باب آخر يقود إلى غرفة الحرس، وإلى الجنوب من باب الدرج الكبير، وعلى الرواق الشرقي أيضاً وجدت غرفة الأرشيف التي أتت منها اللوحات الكتابية، وهي غرفة صغيرة بأبعاد ٣,٥٥ × ٥,١٠م تقع بين المدخل الرئيسي شمالاً وبين مدخل الجناح الإداري جنوباً، وإلى جنوب غرب غرفة الأرشيف توجد غرفة أخرى أكبر وهي مستطيلة الشكل، وقد استخدمت لكتابة اللوحات وذلك قبل حفظها في غرفة الأرشيف كما تدل على ذلك المقاعد الطينية وأدوات الكتابة وهي على شكل أقلام من العظم عُثِرَ عليها في هذه الغرفة.

وفي الزاوية الشمالية الشرقية من الساحة يوجد برج كبير أبعاده ١١×١٠م وسماكة جدرانه ٢,٥م وفي داخله درج مغلف بالخشب المطعم بالصدف يقود

إلى الساحة العامة، وكان يربط بين الطابق العلوي للقصر وبين هذه الساحة، وهو الذي كان يسلكه الملك أثناء توجهه إلى قاعة العرش، وعلى الجدارين الجنوبي والغربي تقوم دعامتان تستند عليهما غرفتان واحدة مربعة والأخرى مستطيلة وجد فيها العديد من الوثائق الكتابية، وإلى الشمال من الدرج توجد حجرتان كبيرتان يمتد جدارهما الشرقي على امتداد الجدار الشرقي للباحة لكنه أقل سماكة وقد وجدت فيهما وثائق كتابية.

وتدل التنقيبات الجارية على أن أقسام القصر الرئيسية تقع إلى الشمال وإلى الشرق من الباحة الكبرى التي كانت بدورها مركزاً هاماً للاجتماعات ولإجراء المبادلات التجارية لمملكة إيبلا، ورغم أن القصر هو الأثر الأهم الذي يعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م إلا أن الأسبار الجارية هناك أكدت وجود أبنية أخرى معاصرة سواء في الجهة الجنوبية الغربية من المدينة (المنطقة أ) أو في وسطها (المنطقة ن)، كما أن القصر نفسه شيد فوق سوية أقدم تعود إلى عصر البرونز القديم الثاني والثالث ٢٧٠٠ - ٢٦٠٠ ق.م.

وحول الأرشيف الملكي في إيبلا فقد حفل بعدد هائل من اللوحات الكتابية حيث صفت هذه اللوحات في غرفة الأرشيف الرئيسية على رفوف خشبية تسندها أعمدة، وإن عمق الرف ٨٠ سم وارتفاعه ٥٠ سم، وقد وُضِعت اللوحات على جانبيها بشكلٍ يُمكنُ فيه قراءة تصنيفها ومعرفة موضوعها وإخراجهما بسرعة عند الحاجة، وقد ساعد الحريق الذي تعرض له القصر على تقوية هذه اللوحات التي تهاوت رفوفها وتراكمت فوق بعضها، ويسعى علماء المسماريات من خلال لجنة دولية لدراسة أرشيف إيبلا الملكي مما يُؤدي إلى قراءة موضوعية ترتكز على منهج البحث العلمي.

وعُثِرَ في إيبلا على نُصوص تجارية واقتصادية وهي تطلعنا على العلاقات التجارية مع جبيل وآشور ومناطق الأناضول وحاصور في فلسطين، كما نتعرفُ منها على نُظم الزراعة والرعي والصناعات، كما عُثِرَ على نصوص إدارية وتاريخية ومراسلات دولية ونصوصاً في القانون، وكلها وثائق تؤكد أهمية المملكة إذ وجدت هدايا ملوك مصر القديمة «خفرع» و«بيبي» في القصر الملكي، كما وجدت ألواح المعاجم باللغتين الإبلائية والسومرية وهي تتضمن مفردات بأسماء حيوانات وطيور وأسماك وأشياء مادية عديدة وأسماء مواضع وأعلام.

كما وُجِدَتْ ألواح النصوص الأدبية الميثولوجية وفيها أناشيد وتراتيل وأمثال، ويُستفاد من هذه النُصوص في التعرف على نظام الحكم، فالملك يُدعى «ملكوم»، والملكة «ملكتوم» والتي تأتي في البروتوكول بالمرتبة الثانية بعد الملك وقبل الوزير، والملكية وراثية ينتقلُ فيها الحكم إلى ولي العهد الذي يُشارك الملك في الحكم وإدارة الأمور الداخلية.

وهناك تقارير دبلوماسية تُبين وجود علاقات مع آشور وجبيل ومدن أخرى مثل حماه ودمشق وماري وإيمار وتوتول وكركميش وحران والالاخ وقطنه وأوغاريت، وفي فلسطين أورشالم وحاصور ولخيش ومجدو وغزه ودور وأسدود.

وتُفيدنا الوثائق السياسية والتاريخية بأنَّ إيبلا كانت تتمتعُ في مرحلة الألف الثالث ق.م بأهمية كُبرى، وكانت الدوافع الاقتصادية من أهم الأسباب لنشوب الحرب، وربما كانت ثروة إيبلا واتساع نفُوذها التجاري سبباً للصراع الذي دار بينها وبين ملوك أكاد[1].

---

(١) د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سورية القديم، الطبعة الخامسة، جامعة دمشق عام ١٩٩٣م، ص٧٤ - ٧٥.

ووجد في إيبلا عدد هائل من التماثيل لكنها لم تكن كلها من الحجر كما كان مألوفاً في ذلك العصر، وإنما صنعت من مواد مركبة من أكثر من مادة كالحجر والخشب والعاج والذهب والمعادن الثمينة الأخرى، وفي أكثر الأحيان ما كان جسم التمثال يصنع من الخشب المغطى بأوراق ذهبية ورأسه من الحجر وعيناه وحاجباه مترله، ويعكس من التماثيل في إيبلا مهارة خاصة في التحكم بصناعة المعادن وطرقها وتشكيلها وفي صناعة العاج والمواد الأخرى، ومن جهة ثانية فإن استخدام هذه المواد المركبة من الخشب والعظم القابلة للتلف أدى إلى ضياع العديد من الآثار المصنوعة منها.

لقد أنتج فنانو إيبلا العديد من التماثيل البشرية والحيوانية الصغيرة والكبيرة، وكانت الأقنعة من المنحوتات الهامة من حجر الستياتيت، وإن هذه الأقنعة تألفت أحياناً من أكثر من قطعة ثبتت مع بعضها ونحتت عليها جدائل الشعر على شكل خطوط متموجة ومحززة، كما وجدت أجزاء من تماثيل حجرية بينهما رداء من حجر الألباتر زخرفت بلسينات متتالية على صفين تشبه الكوناكس المعروف، ومن القطع الأثرية النادرة المكتشفة في إيبلا تمثال لثور بري برأس إنسان وجد في الجناح الإداري للقصر في الغرفة الكبيرة الواقعة إلى يمين الدرج الرئيسي.

كما وجدت في إيبلا تماثيل صغيرة من الكلس لحيوانات جالسة أو واقفة كالنمر والغنم والثور تدل كلها على صفات محلية، لكن غابت عن إيبلا التماثيل البرونزية واقتصرت الآثار المعدنية على المشابك والإبر، بينما عُثِرَ على دمى طينية تمثل الربة الأم[1].

---

(١) د. سلطان محيسن: آثار الوطن العربي القديم، الآثار الشرقية، جامعة دمشق عام ١٩٨٩م، ص٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨ - ٢٤٢.



(١) تمثال من ايبلا (تل مرديخ) .

ووجدت الأختام الاسطوانية في مختلف أرجاء القصر الملكي على مدادات من الطين وضعت على فوهات الجرار وعلى الأواني والصناديق لكن لم يُعثَرْ على الأختام نفسها، وتدل الأشكال الناتجة عن طبع هذه الأختام التي كانت تعود لأفراد الطبقة الحاكمة على نوعيتها الرفيعة وصناعتها الماهرة وقد حَمَلَتْ بعض هذه الأختام أسماء أفراد من تلك الطبقة، وقد كتب على أحدها اسم راين آذا وابتورا وهم من كبار موظفي الملك أبي ذكير الذي ورد اسمه كثيراً من النصوص الاقتصادية من الأرشيف، وظهرت بالمقابل طبعات أختام ذات نوعية متوسطة كانت تعود للطبقات الأدنى من مجتمع إيبلا.

وعُثِرَ في القصر الملكي على فخار من نوع موحد متجانس لا يسبب تاريخه أشكالاً كثيراً ما يصادف الباحثين في تاريخ الأواني الفخارية، حيث وجدت في سوية تل مرديخ ٢ب ١ الأواني الفخارية العادية المصنوعة على الدولاب وهي ذات جدران رقيقة ومصبوغة باللون الأبيض والأصفر والبني والأحمر، ولهذه الأواني حجوم مختلفة أهمها الكؤوس ذات الشكل الأسطواني والتي يتكون قطر كعبها أصغر من قطر فوهتها، وأن بعضها رقيق ومشوي بشكل جيد كالفخار المعدني، وفي كثير من الأحيان كان سطح الأكواب الكبيرة والمتوسطة ونادراً الصغيرة مجعداً وذلك في القسم العلوي من الكوب وقد نفذ التجعيد على الدولاب أيضاً، بينما كانت الشفة سميكة من الخارج قليلاً.

إن فخار القصر الملكي في إيبلا يعود إلى المرحلة الأخيرة من حياة القصر وهو يشبه فخار السوية ٦ ـ ٨ J في حماه وبخاصة وجود الأكواب المجعدة المطعجة غير الملونة، ويوازي أيضاً فخار العمق I، لكن ما يلفت النظر هو غياب الفخار المصقول ذو اللون الأحمر والأسود المعروف بفخار خربة الكرك، وهذا

يجعلنا نعتقد أن فخار قصر إيبلا هو أحدث قليلاً من فخار العمق I، ذلك لأن فخار خربة الكرك يكثُر في بداية مرحلة العمق I ويتلاشى في نهايتها، كما أن فخار خربة الكرك ظهر في السوية الأقدم من سوية القصر (مرديخ ٢ أ)، وربما يكون وجود هذا النوع من الفخار في ذلك العصر مقتصراً على المناطق الساحلية في بلاد الشام ولم يدخل إلى عمقها.

ومهما يكن من أمر فإن فخار تل مرديخ (٢ ب أ) هو نفس فخار بلاد الشام الشمالية الداخلية كما أنه يشبه فخار المناطق الشرقية في منطقة الفرات والمناطق الساحلية غرباً، وهو يشكل عنصراً هاماً في تاريخ هذه المملكة على آخر عصر السلالات الباكرة الثالث، وعلى القسم الأعظم من العصر الأكادي، ويساعد على الاعتقاد بأن «نرام سين» ملك آكاد وليس جده «سرجون»، هو الذي دك إيبلا في حدود ٢٢٥٠ ق.م[1].

٣- مصادر تاريخ إيبلا :

أُشير إلى مدينة باسم «إيبلا» في نص اقتصادي من العصر السومري قبل الأكادي في العراق القديم، ثم يرد ذكرها في السجلات التي تروي أخبار انتصارات الملك الكبير كمدينة هامة من مدن الغرب «أسلمها إليه دجن توتول مع ماري، يرموثي، أرمانوم»، وكان دجن اسم الإله عند الأموريين، وأرمانوم اسم مدينة حلب.

وفي الجملة الثانية لسرجون «شروكين»، اتجه نحو البحر المتوسط ماراً بإيبلا، أمّا أهم النصوص الذي ذكرت فيها إيبلا قبل اكتشافها فهو نص تاريخي

---

(١) نفس المرجع السابق، ص٢٤٦، ٢٤٧.

أعلن فيه ملك أكاد «نرام سين» انتصاراته في الغرب وتوسعه حتى البحر: «لم يحدث مطلقاً منذ أن استقر البشر أن ملكاً من الملوك لم يغز أرمانوم وإيبلا ففتح «نركال» من آلهة العراق القديم، الطريق أمام نرام سين القوي وأعطاه إيبلا وأهداه الأمانوس جبل غابات الصنوبر والبحر الأعلى، وبفضل سلاح «دجن» معبود الأموريين الذي مجد ملكيته قهر نرام سين القوي ارمانوم وإيبلا، ومن شاطىء الفرات حتى أوليشوم تحدى الناس الذين أسلمهم إليه دجن وأخضع الأمانوس جبل الصنوبر».

بهذا الإعلان أعلن نرام سين احتلال إيبلا في حدود ٢٢٥٠ ق.م في نقش مكتوب على نصب منذور للإله سين إله القمر.

وفي العصر السومري الجديد أي بعد سقوط أكاد، ذُكرت إيبلا في نص من عصر «كوديا» ملك لكش «تلو» ٢١٥٠ ق.م، كمورد للخشب من «أورشو» في هضبة إيبلا، وفي العصر السومري الأخير ـ سلالة أور الثالثة ـ وضع شولجي (٢٠٩٣ ـ ٢٠٤٦ ق.م)، وهو ابن «أُورنمو» مؤسس سلالة أور الثالثة ـ عصر النهضة والانبعاث السومري ـ، البنية الأساسية لدولة سومرية كبرى خلال مدة ولايته الطويلة، وترك من عهده سجلات رسمية استخرج في الحفريات الأثرية ٣٠٠٠٠ لوح منها، وقد اشتغل في دراستها ونشرها عدد من العلماء المختصين منهم أوبنهايم وسولبرجر، ويظن بأن شولجي كان يسيطر على بلاد الرافدين وعيلام وآشور والفرات ومعها ماري وتوتول وإيبلا، وبذلك تكون إيبلا أهم مدينة في الشمال السوري في الألف الثالث ق.م.

ولم يرد ذكر إيبلا في السجلات الدبلوماسية لمملكة ماري، ذلك لأن المرجح أنها فقدت استقلالها وأضحت مدينة تابعة لحلب، وربما توصل «يشمع

اداد» إلى مد نفوذه إليها، لكنها ذكرت في سجلات «الالاخ» المعاصرة لمملكة «يمحاض» وهي تظهر الوثائق إلى جانب حلب في نص حوري من «بوغازكوي» «حاتوشا» لا يمكن التعرف عليه زمنياً.

وذكرت إيبلا في اللائحة الجغرافية التي تضمنت أسماء المدن السورية التي فتحها الفرعون المصري «تحوطمس الثالث» على أنها قريبة من حلب وأنها غدت قاعاً صفصفاً ولم يبق منها إلا تجمع ضعيف حول المعبد وذلك في أواسط الألف الثاني ق.م[1].

٤ ـ ثقافة إيبلا :

لقد تأثر سكان إيبلا بالكتابة المسماريةالسومرية في بلاد الرافدين، وكانت لغة الكتابة في إيبلا تشكل ثمانين بالمئة من مفردات اللغة السومرية، واقتصرت لغة إيبلا المحلية على عشرين بالمئة فقط، وبذلك يتضح لدينا بأن دراسة الرقم المسمارية الإيبلائية تتطلب معرفة واسعة تامة باللغة السومرية وأساليب الكتابة بالخط المسماري الذي انتشر في الألف الثالث ق.م.

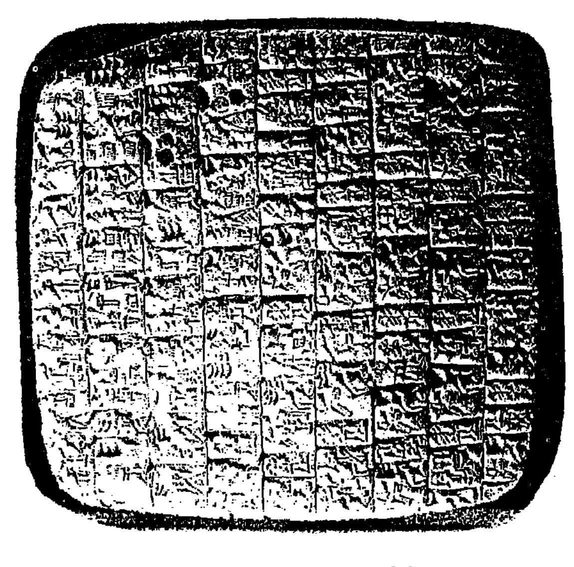
وكان جيوفاني بتيناتو قارىء الخطوط القديمة لدى بعثة جامعة روما قد أشار إلى صعوبات في فك رموز ألواح إيبلا وقد أشار إلى ذلك في تقرير نشره باللغة الإنكليزية عام ١٩٧٦م، وتضمن التقرير محاولات بدائية في قراءة النصوص إلا أنه أغفل الإشارة إلى تاريخ هذه الرقم الكتابية رغم أهمية المسألة بالنسبة لعلماء الآثار واللغات القديمة.

---

(١) د. محمد حرب فرزات: مرجع سبق ذكره، ص٧١-٧٢.

ويعيد الدكتور بيكز أستاذ الآثار في جامعة شيكاغو إلى أذهاننا عصر سرجون الأكادي والعصر السومري السابق له من خلال اللوحات الكتابية المكتشفة في موقعي «فارة» و«أبو صلابيخ» في جنوبي العراق، والتي تُؤرخ حوالي ٢٦٠٠ سنة ق.م، أي الفترة السابقة لكتابات إيبلا بزمن قصير، غير أن رقم إيبلا أيسر قراءة من مثيلاتها في جنوبي الرافدين، ويعلق الأستاذ بيكز على ترجمات بيتاتو الأولية بما يلي: «قام الإيطاليون بترجمة الكلمات المسمارية السومرية المفهومة والتي تشكل ٨٠٪ من مفردات النصوص، في حين عزوا الكلمات غير المفهومة إلى اللغة الإيبلائية، علاوة على ذلك أسماء وصفات الحيوانات والنباتات التي نقلوها عن السومرية وترجموها من خلالها».

ويشير الأستاذ بيكز إلى أن نصوص إيبلا الأدبية تتضمن قصصاً وأساطير وخرافات وأناشيد وتعاويذ وأمثال مشابهة للنصوص الأدبية الرافدينية المعروفة في سومر، كما أن الآلهة «انكي»، و«انليل»، و«أوتو»، و«أنانا»، الوارد ذكرها في النصوص، هي آلهة سومرية بحتة.



(٢) كتابة ايبلائية

«وإن من يتتبع نصوص الأدب القديم الذي اكتشفت نصوصه في إيبلا وماري وأوغاريت وغيرها، يجد بجلاء أن أكثر جوانبه إن لم يكن كله، ممتلىء بالنواحي الدينية وذو طابع الهيمنة الإيمانية الواضحة، وسبب ذلك يعود إلى موظفي المعابد، وهذا لا يمنع من وجود بعض النصوص الأدبية التي تتعلق مواضيعها بالأمور الدينية خاصة ما يُسمى بنصوص الحكم التي تربط الفولكلور والأمثال والنصائح والتعليمات السياسية ونصائح الزواج وغيرها بعضها ببعض، إلا أننا لا نعرف حتى الآن إلا القليل من أدب الحكمة السوري القديم مع أن بعضه متضمن أحياناً في الأساطير والخرافات»[1].

وتُعدُّ قصيدة «أُنشودة النجوم» التي اكتشفت في القصر الملكي (G) في إيبلا من أكمل وأجمل المقطوعات الأدبية التي وصلتنا من الأدب الإيبلائي لحد الآن، وتُعدُّ برأي العلماء والباحثين من أقدم القصائد التي عرفتها الآداب في العصور التاريخية وقد نظمها شاعر إيبلائي منذ ما يزيد عن أربعة وأربعين قرناً، وقد دُونت في مُنتصف الألف الثالث ق.م وفيما يلي مطلعها:

«اصمد خبخبي،
اصمد لسانم،
اصمد دخر سينم،
اصمدك على ابنيم صلميم،
علْ زيدان أمان،
اصمدك علْ زنبات شمش

(١) الآثار السورية، ترجمة: د. نايف بلوز، إصدار مؤسسة البريد الدولي للنشر، فيينا ـ النمسا، عام ١٩٤٨م، ص٣٥٢.

لابنم يلّبن، لبتّم
علْ بابيَ انليل أبي ايلي
وَكَبْكَبْ».

إن الأفعال التي وردت في النص الشعري هي: (اصمدُ، اصمدك، يلبّن، ينخض) وكلها أفعال مضارعة تدور في فلك الأكادية والعربية، اصمدُ فعل مضارع مرفوع، اصمدك: اتصل بالكاف التي هي ضمير المخاطب، أمّا يلبّن وينخّض: متصلة بأحرف المضارعة وتعود إلى الغائب المفرد، أمّا علامات الإعراب فهي متطابقة تماماً مع العربية: علْ ابنيم صلميم: جار ومجرور ومضاف إليه، علْ بابي انليل أبي إيلي: جار ومجرور ومضاف إليه وبدل، لابنم يلبن لبتم: مفعول به منصوب، وعل زنبات: جمع مؤنث سالم.

أمّا ظاهرة المثنى: علْ بابيَ انليل، فنلاحظ علامة التثنية وحذف النون للإضافة، وبهذا الصدد نشير إلى أن ظاهرة المثنى انقرضت في اللغات «السامية» التي سادت في الألف الأول ق.م وانحصرت في كلمات معينة، أمّا في لغة إيبلا وفي اللغة العربية وفي الأكادية في عهد سرجون الأول، فقد كانت هذه الظاهرة شائعة، وهذا مما يؤكد قدم اللغة العربية التي لا تزال تحتفظ بهذه الظاهرة إلى يومنا هذا.

وفي أدبيات إيبلا ما يشيرُ ويستدعي إلى أن قواعدها ونحوها وصرفها يجب أن يدرس في اللغة العربية لأنها هي الأقرب إلى لهجة إيبلا ليس من ناحية القواعد فحسب وإنما من حيث المعاني والدلالات المختلفة[1].

---

(١) علي القيم: مرجع سبق ذكره، ص: ٨٩ ـ ٩١.

وقد ارتأى بعض الباحثين اللغويين فيما يتعلق بلغة إيبلا بأنها تنتمي إلى العائلة الأوغاريتية ـ الفينيقية ـ العبرية، ولكنها أسبق منها كلها وربما تكون هذه الوثائق هي أقدم من الأكادية ببضع سنين، وحيث أن نظام الكتابة المسماري السومري قد استخدم مثلما ذكرنا آنفاً لكتابة عدد من اللغات كالأكادية والإيبلائية اللتين كانتا بالأصل لهجات للأقوام البدوية العربية قبل استقرارها وتحضرها، وقد اختلطت الأكادية بلغة سومر وهو ما لم يحدث للغة إيبلا لعدم وجود عامل لغوي أسبق منها بنفس الدرجة من الأهمية، ولذا فإن اللغة الإيبلائية كانت أنقى من الأكادية وأقرب إلى العربية التي تتضمن العنصر المشترك بين هذه اللغات في المشرق العربي القديم، وما يزال من السابق لأوانه الكلام عن كل ما يخص لغة إيبلا وسماتها وخصائصها فيما يُعتبر بتناتو وهو المفسر الأقدم لنصوص إيبلا بأنها اقدم مرحلة من الكنعانية، وهو الذي أطلق عليها اسم اللغة الإيبلائية معتمداً على دراسات مقارنة تستند إلى اللغة العبرية لتفسير النصوص مما أدى إلى كثير من التعسف والتسرع الذي قوبل بمعارضة شديدة من المختصين، ومن الآراء المطروحة حول ذلك رأي لأحد العلماء يقول بأن اللغة الإيبلائية ليست لغة سامية شمالية غربية بل لغة سامية جديدة يمكن ضمها إلى الأكادية والأمورية ـ البابلية ـ أكثر مما يمكن ضمها إلى الأوغاريتية والفينيقية والعبرية[1].

ومن المكتشفات الهامة التي أسفرت عنها إيبلا، ذلك المعجم اللغوي النادر في مكتشفات العالم والذي يعتبر بمثابة ثورة ثقافية ولغوية تمثل أقدم المعاجم اللغوية القائمة بين لغتين على الإطلاق في مسيرة المعرفة البشرية، حيث أن هذا

---

(١) د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سورية القديم، جامعة دمشق، ص٧٥، ٧٦.

المعجم يبين مدى تطور الثقافة في إيبلا والتطور المدرسي الذي يبدأ من الدرجات الأولى من التعليم، وكما يبدو أنه تطور عبر زمن لا يستهان به، إذ أن إيبلا عَرَفَتْ المدرسة التي عرفها الشرق القديم، والتي كان من المفروض فيها أن تعد (الكتّاب) الذين يحتاجهم القصر لتسيير أموره، والسوق لترتيب الحسابات، والمعبد لتدوين وارداته.

وسواء سُميتْ هذه المؤسسة مدرسة أم أكاديمية فالمهم أنها كانت في إيبلا كما في سومر القديمة تؤدي هذه المهمة الثقافية، ومما يدل على وجود هذه المؤسسة في إيبلا وجود دفاتر التلاميذ التي كانوا يستعملونها في تحسين خطوطهم، وقد كانت ثمة عناية دقيقة بالحفاظ على هذه الوثائق وترتيبها على درجة لا تقل عن العناية بالوثائق الأخرى، وقد كان من بين هذه الرقم المسمارية وثائق معجمية وأخرى تحوي على مفردات، والمعجمية كانت بين اللغة السومرية ولغة إيبلا، أمّا المفردات فهي في لغة إيبلا في أكثرها وبينها كتب مفردات سومرية.

إن هذا المعجم قد وضع لمواطني إيبلا، فقد وضعت الكلمات الإيبلائية ثم ما يقابلها من الكلمات السومرية مع توضيح بكيفية نطق الكلمات السومرية في بعض الأحيان وذلك بالنسبة للكلمات المتداولة في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، وقد بلغ عدد الكلمات التي وردت بقصد معرفة ما يقابلها زهاء ١٠٠٠ كلمة، ومن نعم البحث أن يؤدي هذا المعجم بكلماته الإيبلائية الألف، خدمة جُلّى في طريق الدرس وحل المدلولات اللغوية، مما لم يكن يخطر قط على بال واضعيه أنفسهم في تلك الحقب الماضية، حيث استطاع العلماء معرفة جانب كبير من معاني اللغة الإيبلائية الغامضة بفضل الكلمات السومرية، التي كانت تقابلها في رقم إيبلا والتي تم العثور عليها في الغرفة عند الجدار الشمالي في حملة

كنوز القصر الملكي، ولا بد من الإشارة إلى أن هذه المعاجم المزدوجة وارد بين الكلمة من تلك اللغة والكلمة الإيبلائية المترجمة إليها، ويدل ذلك على عناية (أكاديمية) إيبلا باللغة ويبدو ذلك أيضاً فيما يسميه بعض الباحثين بإيبلا وآدابها «الموسوعات»، وهي كتب تضم معلومات أساسية موزعة على أبواب المعرفة.

وكانت مدرسة إيبلا على صلات وثيقة بمدارس وأكاديميات سومر المعاصرة لها في «الوركاء» و«فارة» و«أبو صلابيخ»، وكانت تقام مسائل التنسيق الثنائي فيما يتعلق بالتعاون العلمي على صعيد المؤتمرات والندوات العلمية، وكان المدرسون في سومر يزورون أكاديمية إيبلا ونقرأ في ترجمة رقيم مسماري إيبلائي عن أستاذ اسمه «إشما ـ يا» وضع كتيباً في مادة الرياضيات وكان زائراً في إيبلا وهو من مدينة «كيش» الرافدينية.

وحول معطيات إيبلا اللغوية نؤكد بأن مسألة قراءة الألواح الكتابية التي حفلت بها إيبلا يحتاج إلى جهد كبير ووقت واسع يمثل لعدة سنوات من المثابرة والعمل الجاد المثمر لنستنبط كثيراً من المسائل وحتى يمكن إعطاء الرأي القاطع بصدد محتوياتها ومضامينها ودلالاتها التي ستؤكد ما سبقها من قراءات وتراجم حول الانتماء العروبي للمنطقة والدور الحضاري الذي لعبته في تاريخ الشرق القديم.

٥ـ نظام الحكم :

بدأت الوثائق المكتوبة بالظهور في موسم التنقيب عام ١٩٧٤م عندما عُثِرَ على ٤٢ لوحاً ذو مضمون إداري، وفي العام ١٩٧٥م، عُثِرَ على مكتبة القصر الملكي واستخرج منها آلاف الألواح التي تختلف تقديراتها ما بين ١٦٠٠٠ و٢٠٠٠٠ لوح، وتعود هذه السجلات إلى مرحلة من تاريخ إيبلا تنحصر في

النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، وإن هذه الوثائق تمثل مجموعة لا مثيل لها وهي تمثل مثلما ذكرنا آنفاً قسم المخفوظات والأرشيف المركزي في مملكة إيبلا أول دولة قامت في سورية، وبالاستعانة بهذه الوثائق الدامغة يمكن أن نتعرف على هذه المرحلة المجهولة من تاريخ بلاد الشام القديم.

ومما اكتشف على هذا الصعيد ألواح النصوص الأدبية الميثولوجية، وفيها أناشيد وتراتيل وأمثال حيث يستفاد من هذه النصوص في التعرف على نظام الحكم، فالملك يدعى «ملكوم»، والملكة «ملكتوم» التي تأتي في البرتوكول بالمرتبة الثانية بعد الملك وقبل الوزير.

إن الملكية والولاية في دولة إيبلا وراثية ينتقل الحكم فيها إلى ولي العهد الذي يشارك أباه في الإدارة والحكم وتمشية الأمور الداخلية، بينما تترك الشؤون الخارجية والدبلوماسية للابن الأصغر، وفي إيبلا مجلس للحكماء أو العقلاء، وفي بلاط إيبلا تقاليد في مخاطبة رؤساء الدول، فالدول التي ليس لإيبلا سيادة عليها، يدعى الملك فيها «إن» EN، أما الدول التي كانت لإيبلا سلطة عليها، فالحاكم يدعى فيها في المراسلات «ديكو» أو «لوكال»، وهذه كلمة سومرية الأصل لكن في إيبلا تعني القاضي.

وتتضمن مجموعة النصوص الإدارية تقارير ترسل إلى الملك من قبل الموظفين المختصين، وهناك تقارير دبلوماسية تبين وجود علاقات مع جبيل وآشور ومدن أخرى كانت تدفع الجزية إلى إيبلا، أو ربما رسوماً تجارية متفقاً عليها، ومن المدن المذكورة في النصوص: حماه، دمشق، جبيل، ماري، إيمار، توتول، كركميش، حران، الآلاخ، قطنة، أوغاريت، وفي فلسطين: أور سالم، حاصور، لخيش، مجدو، غزة، دور، اسدود.

وتفيدنا الوثائق السياسية والتاريخية أن إيبلا كانت تتمتع في الألف الثالث ق.م بأهمية أكبر من بعض الدول مثل آشور التي عقدت معاهدات تجارية مع إيبلا بشروط متفق عليها، وهو الأسلوب الذي توسعت آشور في استخدامه للحصول على موافقة أطراف أخرى كما حدث في الأناضول في الألف الثاني ق.م من أجل الحصول على امتيازات تجارية.

وكانت الدوافع الاقتصادية من أهم الدوافع لنشوب الحروب فعندما رفضت ماري دفع الجزية قام «دينار - دجن» بتجهيز حملة حربية ضد «أبلول — إيل» ملك ماري، حيث دارت معركة دامية في إيمار على نهر الفرات، وبعد انتصار إيبلا تلقت من ماري غرامة كبيرة من الذهب والفضة، وربما كانت ثروة إيبلا واتساع نفوذها التجاري سبباً للصراع الذي دار فيما بينها وبين الملوك الأكاديين الفاتحين[1].

لقد أتاحت الوثائق الرسمية المكتشفة في المستودع رقم ٢٧١٢ — ل، وفي المكتبة رقم ٢٧٦٩ - ل رغم الطابع الإداري والاقتصادي لمحتوى السواد الأعظم منها التعرف على تسلسل لأسماء ستة من الملوك الذين حكموا إيبلا وهم: أغريش حلم آر - إيبريوم، أبي رسيبش، دوبوحو - عدا، اركب — دامو، وبناء على قراءة المزيد من الرقم المسمارية فقد تبين أن (اركب - دامو)) قد حكم بعد (اغريش حلم) وقبل الملك (ار - يانوم)، كما أن (دبوحو - عدا) هو ابن (أبي سيبش)، ولم يصل إلى العرش لأن المدينة شهدت نهايتها الأولى على يد الملك العراقي الأكادي (نرام - سين).

---

(١) نفس المرجع السابق، ص٧٣، ٧٤، ٧٥.

وبعد أن تم فك رموز الرقيم المسماري رقم ت ـ م /٧٥ ج/ ٢٦٢٨ ونشر في المجلد السابع من سلسلة مطبوعات الأرشيف الملكي لنصوص إيبلا (ARET) تحت رقم ١٥٠، وجد على هذا الرقيم أسماء سلالة ملكية حكمت في فترة ازدهار إيبلا، ومن خلالها أصبحنا نعرف أسماء عشرة ملوك، ثمانية منهم نتعرف عليهم لأول مرة، ويذكر الرقيم أن أحد الرجال قدم عشرة أضحيات من الضأن لآلهة المدن التي يقطن جوهرها في مدينة (داري ـ أيب) عن أرواح ملوك إيبلا المدونة أسماؤهم أدناه:

١ ـ اركب ـ دامو.
٢ ـ اغريش ـ حلم.
٣ ـ ادوب ـ دامو.
٤ ـ كوم ـ دامو.
٥ ـ ايسار ـ ملك.
٦ ـ اينار ـ دامو.
٧ ـ با ـ دامو.
٨ ـ ايبي ـ دامو.
٩ ـ اغور ـ ليم.
١٠ـ أبور ـ ليم.

ومن خلال الدراسة والتفحص اللغوي تبين أن أسماء هؤلاء الملوك العشرة عربية قديمة، فالاسم الأول (اركب دامو) مؤلف من فعل ماض من جذر (ركب)، والجزء الثاني اسم إله، ولا بد من الإشارة إلى أن الرقيم يسلسل أسماء الملوك بالأقدم عهداً وينتهي بالأحدث عهداً وهي الطريقة المتبعة في كافة النصوص الإدارية والنصوص المتعلقة بمسك الدفاتر، وقد قدر تاريخ هذه الوثيقة الهامة في القرن الخامس والعشرين ق.م، وبما أن الملكية لم تكن وراثية وتنتقل من الأب إلى الابن فلا بد من التحذير بأن عشرة ملوك لا يعنون عشرة أجيال من التعاقب الزمني.

وعلى الرغم من العدد الكبير للرقم المسمارية التي تتحدث عن طابع السلطة السياسية وأحوال القصر الملكي في إيبلا، فإن إعطاء صورة كاملة لا يزال يحتاج إلى وقت طويل لأن المعلومات المبعثرة في مختلف أنواع الرقم تحتاج إلى الربط العضوي فيما بينها حتى نتمكن من أخذ فكرة كاملة عن أجهزة السلطة الإدارية التي كان حكم الدولة في إيبلا يقوم عليها، ومع ذلك فإن المعلومات المترجمة حتى الآن تفيدنا بأن السلطة العليا بإمبراطورية إيبلا تتمثل في شخص الملك الذي يأتي ذكره في الوثائق التجارية باستمرار في مقدمة الأشخاص، ثم يليه اسم زوجته الملكة، ويتبع ذلك اسم الأمير ـ ولي العهد، وباقي أولاد الملك بالتسلسل.

ومع أن كلمة (لوكال) في السومرية تعني الملك، إلا أنها ترد في نصوص إيبلا بالتناوب مع كلمة (أوكولا) التي تعني (الناظر) كلقب لكبار موظفي الدولة، وكان يحمل هذا اللقب في وقت واحد موظفين يشغلون مراتب كبيرة في البلاط الملكي.

ويشارك الملك في حمل أعباء الحكم عددٌ من الموظفين الذين يحمل كل واحد منهم اللقب السومري (ديكو) الذي يعني (القاضي)، في حين يحمل الموظفون ذوو الدرجة المتوسطة اللقب السومري (اب ــ اب) أي (المسنون)، وتوكل إلى الموظفين الذين يحملون لقب (أوكولا) أعباء الإشراف على قطاعات معينة من جهاز الدولة وهم عادة أولاد الملك أي القضاة.

ومن خلال ترجمة إحدى الوثائق المسمارية التي يُرجح أنها صدرت في ظل حكم الملك (أر ــ يانوم) بأسماء القضاة في القصر مع ذكر العدد الدقيق للموظفين العاملين تحت أمرة كل واحد منهم، وبناء على ذلك يقدر باولو ماتيه

العدد الكامل للعاملين في إدارة الدولة الإيبلائية بنحو ١١٧٠٠ موظف، ويشكل هذا العدد الموظفين العاملين في أجهزة الإدارة المركزية والعمال والمستخدمين في الأقضية الإدارية المنتشرة خارج نطاق العاصمة، وكان (أوكولا) على رأس الهيكل الإداري وتعتبر هذه الوظيفة من أولى المناصب الإدارية في الدولة[١].

٦- ديانة إيبلا:

هناك تصور موحد ومترابط بين الرؤى الدينية في أرجاء كافة بلاد الشام على الرغم من الاختلاف الشاسع بين أجزائها والفروق البينة بين نواحيها، وتوجد أجيال ثلاثة من الآلهة وهي بطبيعة الحال أجيال أساسية انتشرت عبادتها في سورية القديمة، فإلى الجيل الأول يرجع الزوجان (السماء والأرض) اللذان كانا مثل ذلك وحدة واحدة، وقد نشأ المجال الحيوي عن انفصالهما العنيف، أما الجيل الثاني فيتجسد بمسألة خلق الكون وذلك عبر أحد أبناء هذين الزوجين وهو خالق الكون، أي مانح العطاء والزراعة والخصب، وملك الآلهة المرتبط بشكل وثيق بالغلال، أمّا الجيل الثالث يتكون من الآلهة النشطين المتحركين الديناميكيين للعصر الحالي، والسيد هو إله الطقس والعواصف والأمطار، ويشكل بدوره مع أخته إلهة الحب والحرب، زوجاً وثيق الصلة، ويعد كذلك الكوكبان الكبيران القمر والشمس من الآلهة، وفوق ذلك يوجد عدد كبير من القوى المحلية كآلهة الجبل والنهر والنبع والحقول والتي يمكن وصفها بآلهة حماية الجماعة[٢].

---

(١) علي القيم: مرجع سبق ذكره، ص: ٧٦، ٨٦، ٧٢.

(٢) الآثار السومرية: مرجع سبق ذكره، ٣٤٤.

تعود أقدم الوثائق الدينية في بلاد الشام القديمة إلى منتصف الألف الثالث ق.م، وقد وجدت في مدينتي إيبلا وماري وهي من الشواهد على الدين في حضارة المشرق العربي القديم، وعلى الرغم من قلة النصوص الدينية في سجلات إيبلا بالقياس مع نصوص الموضوعات الأخرى، إلا أن العدد المتوفر سلط الأضواء على جوانب هامة من الحياة الدينية، كما أن أسماء الأشخاص التي يقترن معظمها بنصوص ربوبية تُعتبرُ مرجعاً لأسماء الأرباب في إيبلا، وأن المعلومات المتوفرة من ترجمات الرقم المسمارية الإبلائية تفيد بأنه كان في إيبلا ما يُقارب خمسمائة إله بين كبير وصغير، وأن البانتيون الأكبر[1] يتكون من الآلهة (عشتار) وهي شبيهة جداً بالآلهة عشتار في بلاد الرافدين، وتأتي مرتبتها في رأس قائمة مجمع الآله دجن (داجان) الذي يلقب بالسيد، والإله (حدد)، والإله (كاميش)، والإله (كورا)، والإله (إيداكول)، والإله (رشف).

يُعتبرُ الإله دجن (داجان) من كبار آلهة بلاد الشام، ويرد اسمه في الرقم الإيبلائية على هيئة الإشارة السومرية التي تلفظ (بي) وهو لقب قد يكون اختصاراً من نوع خاص لكلمة (بعلوم) أو (بعل) التي تعني السيد.

أمّا (حدد) فهو إله الطقس في بلاد الشام، و(رشف) إله الحرب والعالم السفلي، أمّا (كاميش) فهو من الآلهة السامية الغربية القديمة وقد عُرِفَ في نصوص الألف الأول ق.م بصفته إله بلاد (مؤاب) في شرقي الأردن، أمّا الإله (كورا) فهو مجهول رغم عبادته في إيبلا وكذلك الإله (إيداكول).

(١) البانتيون الأكبر يعني مجمع الآلهة الكبرى.

وعلى خلاف بلاد الرافدين نجد الآلهة السومرية الكبرى مثل (أنكي) إله الحكمة في (إريدو)[1] لا تلعب إلا دوراً محدوداً في إيبلا[2]، وكشفت التنقيبات الآثارية حتى الآن عن عدة معابد لكن علماء الآثار لم يستطيعوا تحديد الأرباب التي كانت في هذا المعبد أو ذاك، وفي دراسة تعتمد على قراءة وتفسير أربع لوحات دينية مسمارية مكتشفة في إيبلا قام بها العالم الآثاري جيوفاني بتيناتو استطعنا أن نتعرف بجلاء على ديانة إيبلا، والعبادة التي كانت متبعة على الصعيد الرسمي، كما تم التعرف على مجمع الأرباب ونوعية الأضاحي ومواعيد تقديمها والمناسبات التي تمت فيها[3].

٧- الجانب الاقتصادي:

تتضمن سجلات إيبلا محوراً خاصاً بالثروة الزراعية، وكان من الطبيعي التوجه نحو الاهتمام بالزراعة لأن بيئة إيبلا تعتبر بالدرجة الأساس بيئة زراعية وقد كانت عاملاً مساعداً للاستقرار والتوطن، حيث أن إيبلا العاصمة ذاتها تتوسط رقعة كبيرة تبلغ مساحتها ٧٥ كيلو متراً مربعاً وتضم عشرة قرى، علاوة على كون الأرجاء المحيطة بمدينة إيبلا والمدن والمناطق التابعة لها تقع ضمن مساحات زراعية خصبة تتوافر فيها المياه.

(١) أريدو Eridu إحدى المدن السومرية المهمة في عصور فجر السلالات واشتهرت بزقورتها Ziggura الضخمة.

(٢) د. قاسم طوير - الصخرة البيضاء - منشورات المديرية العامة للآثار والمتاحف في القطر العربي السوري الشقيق - دمشق ١٩٨٢، ص٣٤، ٣٧.

(٣) علي القيم: مرجع سبق ذكره، ص٧٧- ٧٨.

وقد أبانت النصوص المسمارية بمعلومات مفادها أن أراضي إيبلا كانت تنتج سبعة عشر نوعاً من القمح، وأن الغلات الزراعية الأساسية فيها هي القمح والشعير والزيتون والتين والرمان، كما ازدهرت نباتات الكتان حيث ازدهرت تجارة المنسوجات مما جعل لإيبلا شهرة متميزة حيث أن أقمشة إيبلا ذكرت في وثائق لكش إحدى دويلات المدن السومرية، وقد اعتبر باولو ماتيه في بداية اكتشاف إيبلا، صناعة المنسوجات بأنها من أهم ما اشتهرت به إمبراطورية إيبلا في الألف الثالث ق.م، وكانت تصدر منتوجاتها النسيجية إلى عديد من أقطار المشرق العربي القديم.

ومن ملامح الثروة الزراعية في إيبلا، تربية الحيوانات والمواشي وتدجينها كالأبقار والأغنام، وكانت تقدم قرابين للآلهة وللاستهلاك البشري، ويشير الرقيم (٢٢٨٣ ـ ٧٥ ـ ت م) على وجود ثروة حيوانية كبيرة في إيبلا وأطرافها.

وقد اعتمد الازدهار الاقتصادي في إيبلا في الألف الثالث ق.م على سيطرتها على مصادر التموين بالأخشاب من غابات الجبال في الغرب، وأهم هذه الأخشاب الأرز والصنوبر، كما اعتمدت على التجارة بالمعادن كالذهب والنحاس والفضة المستخرجة من الأناضول.

وكانت التجارة تشرف عليها إدارة الدولة فقد تضمنت صفقات كبيرة من الملبوسات وخاصة أقمشة البروكار الموشى بالذهب، أمّا الخشب فكان يصنع بدرجة عالية من الدقة والمهارة حيث تطورت صناعة الأثاث على اختلاف أنواعها.

«أمّا الآراء الفنية من نحت ونقش فإنها تجعل من إيبلا مبدأً عريقاً في النتاج الفني الذي له صلة وثيقة بالفن الرافديني الذي ساد في العصر ما قبل الأكادي،

ووصلت إلى أيدي المختصين مرتسمات حوالي خمسة عشر ختماً اسطوانياً، أمّا الأختام نفسها فقد فقدت لأنها كانت مصنوعة من الخشب أو العاج، وبقيت أختام بلاد الرافدين لأنها كانت تُصنعُ من الحجارة القاسية، وفي الوثائق الاقتصادية ما يطلعنا على نظام الضرائب والرسوم التي كانت تُسددُ بالذهب أو الفضة»[1].

وقد كانت علاقات إيبلا الاقتصادية أوسع بكثير من رقعة سيطرتها السياسية، ومكتشفاتها العديدة تُؤكد ذلك، فالمنطقة التي كانت إيبلا تُقيمُ معها علاقات اقتصادية وتجارية بصفةٍ دائمةٍ ومستمرةٍ هي منطقة واسعة الأرجاء ونائية في الشرق، وتشملُ وادي الفرات حتى مدينة ماري (تل الحريري)، ثم منطقة وادي دجلة الأعلى ولا سيما مدينة (كامكوم) التي ورد اسمها في كثير من النصوص البابلية القديمة لكن لم يتم التعرف على موقعها لحد الآن، يُضاف إلى ذلك بلاد أكاد وشمالي بلاد بابل إلى الجنوب من بغداد، حيث يرد في نصوص إيبلا بكثرة اسم مدينة كيش «تل الأحيمر».

وكان لإيبلا علاقات تجارية واقتصادية مع المدن التي كانت تقع على الطريق البري الواصل بين إيبلا ونهر الفرات، حيث يرد في النصوص المسمارية أسماء مواضع مدن كثيرة تقع على هذا الطريق مثل مدينة (الطوب)، وإيمار «مسكنة» كما يرد أسماء مواضع يعتقد أنها واقعة في شمال العراق مثل: (بورمان) ، (جرمو)، (نجر)، كما يرد اسم مدينتين آشوريتين هامتين واقعتين شرقي دجلة هما مدينة (حمازي) الواقعة إلى الشمال الشرقي من الموصل، ومدينة (جاسور) القريبة من كركوك، وقد اكتشفت في كركوك اسم مدينة

---

(١) د. محمد حرب فرزات: مرجع سبق ذكره، ص٧٧.

كانت تدعى (دور - إيبلا) أي مدينة إيبلا، ولعلها - كما يعتقد باولو ماتيه - كانت مستوطنة تجارية يقطنها تجار من إيبلا، إن لم تكن قاعدة إيبلائية في شرقي بلاد نينوى.

ومن جهة الغرب فقد كانت جبيل «بيبلوس» ميناء إيبلا التجاري على البحر المتوسط ولذلك أقيمت علاقات تجارية وثيقة بين إيبلا وجبيل، ويبدو أن تجارة إيبلا كانت تصل إلى مصر عن طريق ميناء جبيل منذ زمن الدولة الفرعونية القديمة، وفي الشمال كانت (حران) من أهم المناطق والمراكز التي ارتبطت بعلاقات اقتصادية مع إيبلا.

الهجرات القديمة

مرحلة الألف الثاني ق.م

كنعان ـ أوغاريت

١ـ الهجرات القديمة إلى بلاد الشام :

في المراحل المتأخرة من الألف الثالث ق.م، وبدايات مرحلة الألف الثاني ق.م تبدأ هجرة جماعات من سكان البوادي العربية إلى الشام والعراق على هيئة موجات متتالية، وأن شعوب البوادي العربية الشمالية التي انطلقت خلال حقب تاريخية من شمالي شبه جزيرة العرب وبادية الشام باتجاه الأراضي الخصبة لا تختلف عن الشعوب الجبلية باتجاه تحركها نحو الجنوب فحسب، بل في تكوينها ودورها التاريخي والحضاري.

إن الشعوب الجبلية الأصل التي كانت تستقر في سهول الهلال الخصيب من جبال زاجروس وأرمينية وطوروس، استطاعت أن تثبت وجودها في مراحل من تاريخ سورية القديم، وأن تقوم ببناء كيانات سياسية ودولاً هامة قادرة على التوسع ومنافسة الدول الكبرى المعاصرة لها في وادي دجلة والفرات والنيل.

أمّا الشعوب الجنوبية الأصل ـ أي البدوية ـ فشأنها غير ذلك لأنها سارت نحو الأماكن التي تكفل استقرارها راضية بإقامة كيانات صغيرة وتجمعات سياسية صغيرة ولكن لا يحالفها النجاح في مسارها دائماً وذلك لوجود الدول الكبيرة المحيطة بها في المنطقة.

لقد أثر الموقع الجغرافي تأثيراً هائلاً في نزوح هؤلاء البدو من الجزيرة العربية إلى هلال الخصيب حيث أن هدفهم الأساسي يكمن في الوصول إلى المنطقة الممتدة على ساحل البحر المتوسط الشرقي بين مصر والعراق.

ويؤكد الباحثون في أصول أقوام الشرق الأدنى أن أسلاف هذه الجماعات البدوية الرعوية كانوا يستقرون أصلاً في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة العرب وكانت بلادهم في تلك الحقب عامرة بأنهارها دائمة الجريان وبأمطارها دائمة الهطل، إلا أنها تعرضت إلى تغيرات مناخية وجيمورفولوجية في نهاية العصر الجليدي الأخير (فيرم Firm) في حدود (٢٠٠٠٠ ق.م) الأمر الذي أدى إلى إنحباس الأمطار واندثار الأنهر، فأخذ الجفاف ينتشر منذ ذلك الحين في النطاق الصحراوي الحالي، مما اضطر الإنسان والحيوان إلى الهجرة إلى أماكن ذات موارد مائية دائمة، فكان أن توصل هؤلاء النازحين إلى شمال الجزيرة العربية ومنها أخذوا يتوزعون في موجات متعاقبة في المناطق الشرقية والشمالية والغربية، فمنهم من توجه شرقاً نحو بلاد دجلة والفرات، ومنهم من استقر في فلسطين وسورية، وهناك من اتجه نحو شبه جزيرة سيناء.

ومما ساعد على هذه الهجرات أن الحدود الشمالية للجزيرة العربية أي المناطق الجنوبية من الشام والعراق مفتوحة للصحراء فكان في مقدور هذه الأقوام البدوية أن تتوغل فيها دون أن يُصادفها عائق جغرافي أي حدود طبيعية تمنع دخولها.

ويحددُ بعض الباحثين في التاريخ القديم وعلم الآثار، بداية الهجرات العربية القديمة إلى الهلال الخصيب بالألف الرابع ق.م، لكن معلوماتنا المستقاة من التنقيبات الأثارية تحدد تاريخ هذه الهجرات بالألف الثالث ق.م.

وتوجد عدة نظريات سلطت الضوء على موضوع أُصول هذه الأقوام البدوية والرعوية، ومن هذه النظريات «النظرية العربية» التي تجعل شبه جزيرة العرب مهداً للأقوام العربية، ومع هذا الرأي عشرات من العلماء الأجانب مثل شبرنجر Sprenger وشريدر Sreder، وفنكلر Winkler، وآدم سمث A. Smith.

وبذلك فإن كل الشعوب المُسماة بالسامية هي في رأي شبرنجر «طبقات من العرب وهي مُتعاقبة ومصدرها الجزيرة العربية»، والدليل على ذلك، أولاً أن اللغة العربية هي أقرب أخواتها إلى لغة الأقوام العربية القديمة الأم، ثانياً أن كل الهجرات العربية المعروفة من الهجرة الأكادية حتى الفتح الإسلامي خرجت من قلب الجزيرة العربية إلى العراق وسورية، ولم تتخللها هجرات معاكسة، وثالثاً أن الأقوام التي هاجرت تتصف اجتماعياً وسلوكياً ونفسياً بالصفات والاتجاهات البدوية، ولا بد أن يكون منشؤها من وسط بواد وفي حياة زراعية ورعوية، وسواء أكان مصدر العرب من جنوب الجزيرة أم شمالها أو نجدها أو باديتها فالأمر واحد.

من خلال ذلك يتبين بأن شبه جزيرة العرب هي مهد العرب الأصلي وكان منذ أقدم الأزمنة ذات حضارة وهي موطن الجنس المتوسطي ـ العربي الذي ولد أقواماً اصطلح سابقاً على تسميتها بالشعوب السامية، وأن الرأي الصحيح والأقرب إلى الواقع هو تسميتها بالشعب العربي القديم أو أقوام الجزيرة العربية، وهي وفق التسلسل الزمني:

١ ـ الأقوام العربية البائدة ـ أو ما قبل التاريخية: وهي التي انطلقت من شبه جزيرة العرب وعاشت في بعض أجزاء الهلال الخصيب منذ الألف الرابع ق.م، وهي سابقة للسومريين في بلاد الرافدين.

٢ ـ الأقـوام العربيـة القديمـة: كالأكـاديين والكيشـيين والمـاريين والإبليـين والأموريين والكنعانيين والآراميين، وهم يتكلمون لغـات أو لهجـات قريبـة جداً من اللغة العربية.

٣ ـ عرب الجنوب: وهم عرب (معين ـ سبأ ـ حمير).

٤ ـ العـرب في النصـوص الآشـورية: عـرب باديـة الشـام والشـمال والأنبـاط والأيتوريون والثموديون والصفائيون واللحيـانيون والحضريـون والتدمريـون ثم المناذرة والغساسنة.

٥ ـ العرب بعد الفتح الإسلامي حتى الآن.

إن الجزيرة العربية مكتنفة من جنوبها وشرقها وغربها بالبحـار فهـي مغلقـة نسبياً من هذه الجهات الثلاث ومنفتحة من الجهـة الشـمالية فحسـب، والعـرب سكان الجزيرة العربية منذ أقدم العصور يتصفون بصفتـين أساسـيتين همـا النمـو والتكاثر السريع، ثانياً اعتمادهم ـ بسبب الطبيعة السهبية للجزيرة العربية ـ علـى الأسلوب البدوي في الاقتصاد الذي يقوم على انتجاع الكلأ والحل والترحال.

لقد تظافرت هذه العوامل مجتمعة مع انفتاح شبه جزيرة العرب على هـلال مخصب في الشمال على جعل حركة هذه الأقوام منذ أقـدم العصـور نحـو الشـام والعراق، حيث كانت حركة واسعة النطاق بذلك الاتجاه ولكنهـا تختلـف بطئـاً وسرعة وتتباين تفرقاً وكثافة وفق الظروف المناخية والبشـرية في الجزيـرة العربيـة وطبقاً لتبـدل الأحـوال السياسـية في كنعـان وسـورية والعـراق، وأن أقـدم هـذه الموجات على الأقل للألف الثالث ق.م، إن أغلب المعلومات حول ذلك محدودة نسبياً باستثناء المراحل التي أعقبت اكتشاف الكتابة حيث أن تدوين التاريخ يبين معلومات كثيرة حول هذه الموجات.

وينوه العالم الآثاري ليونارد وولي بهذه الهجرات في سياق حديثه عن أرض جنوبي بلاد الرافدين فيقول: «سكنها مع السومريين «ساميون» جنوبيون هم أسلاف العرب المحدثين، وارتحلت بيوت وعشائر متفرقة منهم إلى الأرض الجديدة، وأن بعضهم استوطن الأرض الممتدة على أعالي الفرات ثم انحدروا إلى القسم الأسفل من وادي الرافدين»، كما ينوه بهذه الهجرات العالم الآثاري رينيه دوزو فيقول: «إذا صح ما لاحظه الأستاذ أندريه بارو فقد كانت هناك منذ مطلع الألف الرابع ق.م قبائل من جزيرة العرب قد استقرت عند دجلة والفرات»، وأن هذه الهجرة هي التي برز فيها الأكاديون وقاموا بتأسيس أول سلالة عربية في وادي الرافدين على يد سرجون، أو لعل الأكاديين هجرة تلتها، كما أن الأكاديين يشكلون هجرة واحدة مع العموريين ـ الكنعانيين الذي استقروا في سورية الطبيعية ومنهم من تحرك إلى العراق فيما بعد وأسس سلالة بابل الأول.

لقد قام العلماء على تعداد هجرات متعاقبة بين واحدة وأخرى حوالي (١٠٠٠ عام) تقريباً، وقد نظموها بشكل متعاقب، وأن البعض منها كان متعاصراً أو متقارباً، وأن أول هذه الهجرات هي هجرة الأكاديين إلى العراق، وفي الألف الثالث ق.م يستقر في بلاد الشام الأموريون ـ الكنعانيون.

إن أصل الأموريين مشتق من (أمورو) أو (مارتو) أي الغرب، لأنهم من الهجرات التي اتجهت غرباً، وصار اسم «امورو» بعد ذلك اسماً لسورية القديمة، وأن أقدم إشارة للأموريين كانت في زمن سرجون الأكادي في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م، أما الفرع الأموري المعروف بالكنعاني فقد استقر على امتداد الساحل السوري على البحر المتوسط من الإسكندرونة حتى غزة،

وتوطدت علاقاته بمصر في وقتٍ مُبكر جداً وقد عَرِفَ اليونان هؤلاء الكنعـانيين في وقت لاحق باسم الفينيقيين.

وفي منتصف الألف الثاني ق.م يهاجر الأراميون إلى سورية ويدخلوا منطقة الفرات حتى الأناضول ويؤسسون أول ممالكهم في حـدود نهاية الألـف الثـاني ق.م.....[1].

(١) عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى، دار المعرفة - الجزء الأول - دمشق عام ١٩٨٨م، ص٦٢ - ٦٦.

أ ـ الكنعانيون

١ ـ كنعان:

أرض كنعان هي فلسطين القديمة والأرجاء الساحلية من الشواطىء السورية المطلة على البحر المتوسط من (أوغاريت) حتى (غزة)، وبين بادية الشام ومن سهول (أدنه) في جنوبي آسيا الصغرى إلى صحراء النقب جنوبي فلسطين.

وأن أصل تسمية كنعان كما تدل المعطيات الآثارية المكتشفة في (تل العمارنة) ـ نسبة إلى قبيلة عربية قطنت بالقرب من التل ـ والتي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م، وقد أكدت من خلال النصوص هذه التسمية وذكرتها تحت اسم KNAKHNI، ومن المألوف في تلك الحقبة أن التسمية كانت تُطلق على الجهة الجنوبية من بلاد الشرق التي تضمُّ أرض فلسطين، كذلك وردت تسمية «كنعان» في الكتابات القديمة لمدينة بابلية تحت اسم KNANNAN، ويُرجحُ أن هذه التسمية كانت قد انتقلت إليها ـ أي إلى هذه المدينة ـ من مهاجرين من بلاد كنعان إلى بابل.

وإضافة إلى ذلك فإن كلمة «كنعان» قديمة جداً إذ تعود إلى ما قبل عهد التوراة بعد قرون، وقد تكررت هذه التسمية في العهد القديم «التوراة» ثلاث وثمانون مرة، ومرتان فقط في العهد الجديد «الإنجيل»، ومن الجدير بالذكر ومنعاً للالتباس أن تسمية «كنعان» هي التسمية ذاتها التي وردت في التوراة، أي أن التوراة أيضاً أخذت بدورها هذه التسمية لما فيها من تجلٍ لأمور حضارية

كثيرة، وهذه عادة قديمة عند شعوب أقطار الشرق القديم، إلا أنها مُتميزة عند أصحاب التوراة بشكل كبير.

تبدأ العصور التاريخية في تاريخ فلسطين القديم (بلاد كنعان) منذ الألف الثالث ق.م، وفي هذه الحقبة نزح الكنعانيون إلى فلسطين ولبنان من جنوب شبه جزيرة العرب وأقاموا دويلات المدن الكنعانية القديمة حيث كانت مدناً عامرة بمبانيها ومتطورة في ريازتها، ومن أبرز المدن الكنعانية المسورة: أريحا (يريحو)، بيسان (بيت شآن) أي بيت الإله شان، مجدون (مجدو) وتعتبر هذه المدن من أقدم المدن في التاريخ القديم.

تقع بلاد كنعان على الساحل السوري للبحر المتوسط، ويحدها شمالاً تل القاضي (دان) على مقربة من بانياس، وتمتد جنوباً عبر بحيرة الحولة فنهر الأردن مخترقة بحيرة طبرية (بحر الجليل)، ويكون مجرى النهر الحد الشرقي مع سوريا الحالية وشرق الأردن فالبحر الميت (بحر الملح) حيث يتجه هذا الخط جنوباً قاسماً هذا البحر إلى قسمين، ويستمر هذا الخط عبر الوادي المسمى (عربة) إلى خليج العقبة المتصل بالبحر الأحمر.

ويبدأ حدها الشمالي من رأس الناقورة (سكالا تيرووروم) على الساحل السوري المطل على البحر المتوسط، وتمثل حدود بلاد كنعان الجنوبية خطاً يبدأ من خليج العقبة إلى رفح حيث سيناء (سين).

سميت فلسطين قديماً ببلاد كنعان نسبة إلى كنعان بن حام بن نوح كما تقول التوراة في سفر التكوين، ويقال أيضاً بأن كلمة كنعان مشتقة من مصدر حوري وتعني الصبغ القرمزي الذي كان يستخدمه سكان فلسطين القدماء ويصنعونه ويتاجرون به، وقد أطلق على كنعانيي المناطق الساحلية اسم الفينيقيين

وهي تسمية إغريقية أطلقت عليهم فيما بعد حينما لجأت بعض القبائل الكنعانية إلى المناطق الساحلية وتحصنت بها، ومن أهم المدن الكنعانية المسورة في هذه المنطقة: عكا (عكو)، صيدا (صيدون)، بيروت (بيروتا)، جبيل (بيبلوس)، وقد كانت هذه المدن على شكل دويلات لها نظامها السياسي الخاص، والإله الذي يمثلها والسور الذي يحيط بها، وقد كان لهم نشاط تجاري واسع النطاق في حوض البحر المتوسط حيث أنهم وصلوا إلى كافة الشواطيء الشمالية والغربية.

أما المدن والأرجاء الكنعانية الداخلية فكان يطلق عليها تسمية (يبوس) ومن أهم المدن اليبوسية مدينة القدس (أور سالم) أي مدينة السلام، ومدينة نابلس (شكيم) التي كانت قبل القدس عاصمة للكنعانيين بسبب وقوعها وسط فلسطين، وأن اسم نابلس محرفاً عن الأصل اليوناني للاسم (نيابوليس) أي المدينة الجديدة، وكان سكان شكيم يتألفون من الحويين وهم قبيلة من القبائل الكنعانية، أما (عسقلان) فقد بناها الفلسطينيون القدماء وقد تحصنت ضد غزوات الموسويين عشرات السنين حيث قام أتباع موسى بالإغارة على بعض دويلات المدن الكنعانية المسورة قادمين من مصر عبر طور سيناء ومن ثم إلى فلسطين بعد احتلالهم بعض المدن الكنعانية الجنوبية مثل تل الدوير (لخيش)، وعاي، وأريحا التي دمرت وأحرقت في ذلك الوقت، وهناك مدناً كنعانية أخرى مثل (غزة)، و(جرار)، و(حاصور)، والخليل (حبرون)، و(أسدود)[1].

---

(١) عبد الحكيم الذنون: تاريخ فلسطين القديم والخليفة الزائفة للصهيونية، دار الكتاب العربي، دمشق عام ١٩٨٤م، ص١٠، ١٣٥.

٢- الديانة الكنعانية :

ترتبط الديانة الكنعانية وأساطيرها بطقوس ومعتقدات ونواميس كثيرة، مما أدى إلى بناء العديد من المعابد والهياكل والصروح الدينية لإقامة هذه الشعائر والطقوس في كل مدينة من المدن الفلسطينية القديمة، حيث توجد المعابد والتماثيل التي ترمز لشكل الآلهة كبيرة كانت أم صغيرة، وتقام المعابد في الأماكن المرتفعة وكان لكل إله معبد خاص به يؤمه مريدوه.

ويعتقد بأن قصر الملك الكنعاني عبارة عن معبد تقام فيه الشعائر حيث تتوزع التماثيل في كافة أرجائه، وهناك إشارات لوجود تمثال الإله (إيل)، وتمثال الآلهة (عناة)، وكان للإله (بعل) معبد كبير في شكيم، ومن أهم معابد الكنعانيين معبد في بيسان، وكان له معبد أيضاً في (عقرون) شمالي فلسطين.

وقد ورد في نصوص تل رأس الشمرة (أوغاريت) بأن معبداً أقيم للإله (إيل) بين شكيم وأور سالم، كما أبانت التنقيبات الآثارية عن معبد لبعل في جبل الكرمل وبعض مناطق الساحل الشمالي لفلسطين، إضافة إلى المعبد الكبير الذي أقيم لبعل في أوغاريت.

ومن الكهنة الذين ورد ذكرهم في لوحات أوغاريت الكاهن الأكبر (إيلو ملكو) الذي قام بتدوين اللوحات الكنعانية وفيها تاريخ الكنعانيين والميثولوجيا الكنعانية، وقد عاصر هذا الكاهن الملك (نكمد) الذي شهدت بلاد كنعان في عهده بداية غزو أتباع موسى.

وتُعتبرُ صلاة الكنعاني عنصراً أساسياً في العبادة، ومن طقوسها التضرع والصراخ أمام الآلهة، ولا تقتصر تأدية الصلاة على الناس فحسب، بل تشاركهم بها الآلهة أيضاً[1].

---

(١) حسن الباش: الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي، دار الجليل، دمشق عام ١٩٨٨م، ص٤١.

٣ـ الحضارة الكنعانية :

منذ أقدم العصور ما قبل التاريخ بدأت حضارة المنطقة تنمو وتتصاعد في مجال التمدن البشري، فقد كان الكنعانيون أول من اكتشف النحاس وقاموا بطرقه وتعدينه حيث اهتدوا إلى الجمع بين النحاس والقصدير في صناعة وإنتاج البرونز مما أدى إلى صناعة عسكرية متطورة في ذلك الزمان، وقد أشار المصريون القدماء إلى ذلك لا سيما حينما وصفوا الغنائم التي حصلوا عليها من المدن الكنعانية أثناء الحروب.

وكانت العربات الملكية المطعمة بالذهب إحدى أهم الغنائم التي سجلها الفرعون المصري (تحوطمس الثالث) عام ١٤٥٠ ق.م، إضافة إلى سرير من العاج وأثاث مطلية بالذهب وأنواع من الآنية والكؤوس والسيوف والتماثيل الذهبية وخشب الأبانوس(١).

ونظراً لتنوع التضاريس وخصوبة الأرض فقد انتشرت زراعة الكروم والتين، وأقيمت معامل لإنتاج الزيت والخمور، وكان لزراعة القمح أهمية قصوى، وقد ذكرت عملية زراعة القمح في نصوص أوغاريت الكنعانية كأهم ثروة في البلاد(٢).

لقد برع الكنعانيون في صناعة الزجاج والأدوية والمنسوجات على اختلاف أنواعها وصناعة الأصباغ والأسلحة الدفاعية حيث كان الخطر يداهمهم من كل حدب وصوب، فأنشؤوا القلاع والتحصينات الدفاعية والأسوار المحيطة بالمدن، وقاموا بحفر الآبار والأنفاق التي توصل المياه إلى داخل القلاع.

---

(١) د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، دار الحرية عام ١٩٧٦م، ص١١.

(٢) إيلي ملكو ـ اللآلىء ـ نصوص كنعانية ـ ترجمة: ديل ميدكو ـ تعريب: مفيد عرنوق ـ الطبعة الأولى عام ١٩٨٠م، ص٧٧.

وقد اقتبس الكنعانيون فن العمارة من البابليين لا سيما في مجال فن بناء الأقواس، أما التجارة فقد ازدهرت ازدهاراً كبيراً، وكان لكنعانيي الساحل نشاط واسع النطاق في مجال التجارة في حوض البحر الأبيض المتوسط، وبرعوا في صناعة السفن المتطورة، وكان لهم علاقات تجارية مع كثير من البلدان[1].

وأن أهم إنجاز قامت به سورية الكنعانية هو اختراع الأبجدية لأول مرة في العالم حيث تعتبر أبجدية أوغاريت أقدم أبجدية في تاريخ البشرية، وقد اختزلت الخط المسماري في بلاد الرافدين والخط الهيروغليفي في وادي النيل وأصبحت فيما بعد أساساً لخطوط العالم السائر في ركاب المدينة والتطور الحضاري.

---

(١) حسن الباش: مرجع سبق ذكره، ص٢٢.

ب ـ أوغاريت

تُعتبر (أوغاريت Ugarit) أهم مركز حضاري في سورية الكنعانية في الألف الثاني ق.م، وقد ورد اسم أوغاريت في النصوص المصرية العائدة إلى القرن الخامس عشر ق.م، وتفيدنا هذه الوثائق بأنها كانت مدينة ساحلية هامة على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط، وتقع أطلال أوغاريت الآن في تل رأس الشمرة[1] قرب مدينة اللاذقية السورية.

يقع تل رأس الشمرة على بعد ٩ كم إلى الشمال من مدينة اللاذقية، وعلى حوالي كيلو متر واحد من جون مينة البيضاء، حيث الشاطىء كثير التعرجات وهو رملي في أغلب الأحيان، وتُشكل جُوناتة الصغيرة المتعددة ملاجىء طبيعية كجون مينة البيضاء الذي حمى مرفأ أوغاريت، أما التل فهو قائم فوق مرتفع رملي وسط سهول زراعية هامة.

يحد السهل الساحلي من الشرق والشمال الشرقي هضبة البهلولية التي تشكل منحدراتها تناقضاً شديداً مع وجه السهل الأخضر، وفيما وراء الهضبة تحجب الأفق في الشرق مرتفعات جبال العلويين، وفي الشمال والشمال الشرقي كتلة الباير والبسيط والجبل الأقرع.

يتمتع السهل بمناخ متوسطي نموذجي يمتاز باعتدال الجو وبوجود فصل جاف صيفي وأيام مطيرة معدودة، وتصد التضاريس بعض الرياح الرطبة الغربية على الساحل، كما أنها حد من وصول الرياح الباردة القارية في الشتاء والرياح

---

(١) الشُمرة ـ بضم الشين ـ نبات يُوضع للأطعمة شبيه باليانسون.

الصحراوية في الصيف، وأن قرب المنطقة من البحر يؤدي إلى أن يقوم البحر بدور كبير بالمحافظة على رطوبة جوية مرتفعة، ويقوم بتلطيف الحرارة التي يقلل من تفاوت درجاتها.

إن سهل أوغاريت شديد الخصوبة، وتدل الاكتشافات الآثارية الحديثة حول مرحلة النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، على اكتشاف العديد من الشواهد المادية التي تؤكد ازدهار الزراعة وكثافة الغطاء النباتي في المنطقة.

ولا نعرف شيئاً تقريباً عن أوغاريت قبل عصر البرونز الحديث، إلا بعض الإشارات المتفرقة، فمحفوظات إيبلا تذكرها في حدود ٢٤٠٠ ق.م، وتعود الآثار المصرية الموجودة في مدينة أوغاريت إلى القرن التاسع عشر ق.م أما نصوص (ماري) القابعة أطلالها الآن في (تل الحريري)، تشير إليها في القرن التالي، وبذلك فإن (يقاروم) قد أسس سلالة حكمتها حتى القرن الثاني عشر ق.م، وقد اعتبر ختمه رمزاً للتواصل فتناقله خلفاؤه الواحد تلو الآخر، وتكثر الوثائق في القرن الخامس عشر ق.م، خلال عصر «تل العمارنة»[1]، والسبب في ذلك يعود إلى أن المواقع الأثرية الأخرى في المنطقة أخذت تدون أكثر مما مضى، وأن الحفريات في أوغاريت ذاتها قد أزالت الأنقاض تماماً عن مدينة تلك الحقبة تاركة المنشآت تحت التراب.

---

(١) تل العمارنة: بقايا مدينة اخناتون «اخت ـ آتون» التي أسسها الفرعون المصري «امنحوتب» أو «امينوفيس الرابع» الذي عرف باسم «اخناتون» ١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ ق.م، وقد نقل عاصمة ملكة من «طيبة» إلى «العمارنة» الواقعة على بعد ٨٥ ميلاً تحت أسيوط.

١- اكتشاف أوغاريت:

منذ عام ١٩٢٩م تشكلت بعثة آثارية فرنسية بإدارة الدكتور كلود شيفر للكشف عن الآثار الهامة التي تحفل بها أوغاريت، وقد توجهت البعثة الآثارية إلى الموقع ومعها أجهزتها ومعداتها ومؤونتها على قافلة من الجمال كما ذكر شيفر في تقريره الأول عن أعمال التنقيب لتعذر الوصول بطريق السيارات آنذاك، ومن ثم تحديد موقع الميناء ثم موقع المدينة القديمة القائمة على تل رأس الشُمرة الذي يبعد أكثر من نصف كيلو متر عن الشاطيء بين فرعي نهر صغير يلتقيان بعد ذلك في مجرى واحد يصب في البحر المتوسط.

وكان أول ما اكتشف في موقع أوغاريت خنجر برونزي من القرن الخامس عشر أو الرابع عشر ق.م، ثم بقايا قصر مملكة عُرِفَ بأنها هي خرائب قصر مملكة أوغاريت المعروفة في النصوص المصرية والحثية ووثائق العراق القديم، ووجد بعد ذلك أساس معبد الرب (بعل)، إضافة إلى قطع من الأسلحة والأدوات البرونزية. وفي عام ١٩٢٩ عثر على أول رقيم من مكتبة أوغاريت مكتوب بحروف مسمارية عرف فيما بعد بأنها (أبجدية أوغاريت) وهي أقدم أبجدية في العالم، وتتألف من ثلاثين علامة مسمارية فقط، ووجدت نصوص من الأدب بالكتابة الأوغاريتية تُعتبرُ من أقدم النصوص الأدبية المعروفة في الحضارة الكنعانية، كما عُثِرَ على وثائق رسمية مهمة في القصر الملكي ومعاهدات مع الدول التي عاصرت فترة أوغاريت كمصر الفرعونية والمملكة الحثية، كذلك نصوص تجارية وعقود تجارية موثقة.

وقد تطـورت الدراسـات المعنيـة بأوغـاريت وحضارتهـا في فرنسـا، حيـث صدرت بإشراف الأستاذ شيفر موسوعة من عدة مجلدات باسم «أوغاريتيكـا»، وتصدر الآن مجلدات ودوريات متخصصة في عدد من جامعـات العـالم وأهمهـا «بُحوث أوغاريتية» باللغة الألمانية من جامعة مونستر[1]، وقـد تصـاعدت وتـيرة عمليات التنقيب الأثري في منطقة أوغاريت اعتباراً من عام ١٩٥٠م، حيث عُثِرَ على العديد من النصوص والشواهد المادية التي تدل على عمق وجـذور وأصالـة الحضارة الكنعانية.

٢ـ آثار أوغاريت:

مثلما ذكرنا آنفاً بأنه قامت بعثة آثارية فرنسية للتنقيب عن آثـار أوغـاريت بإدارة الدكتور شـيفر في منطقـة (مينـة البيضـاء) علـى السـاحل السـوري قـرب اللاذقية، وقد بـدأ مغـامرة اتضـح فيمـا بعـد أنهـا أحـد أهـم مكتسـبات القـرن العشرين لتاريخ الجزء المتوسطي من منطقة الشرق الأدنى، حيـث عـثر في البـدء على آثار قـبر قديـم في أحـد الحقـول كـان تابعـاً لمسـتوطنة مرفئيـة مـن العصـر البرونزي الحديث، كما أن الميناء كان عائداً لمدينة واقعة علـى تـل رأس الشـمرة على مسافة تقل كيلو متراً مـن هنـاك، وقـد كـانت هـذه المدينـة عاصمـة مملكـة شملت آنذاك قسماً من الساحل السوري حتى جبال العلويين.

و لم يلبـث اسـم هـذه المدينـة وهـو «أوغـاريت» أن عُـرِفَ مـن النصـوص المسمارية المكتوبة بلغة مجهولة حتى تلك الحقبة، وقـد تم العثـور عليهـا في نفـس العام، ومن ثم فك رموزها على يد كل من (بـور)، و(دورم)، و(فـيرلو)، ولقـد

(١) د. محمد حرب فرزات: مرجع سبق ذكره، ص٩٨ ـ ٩٩.

كان هذا الاسم مذكوراً على وجه الخصوص في المحفوظات المصرية للفرعون «أمينوفيس الرابع» في «تل العمارنة» بمصر القديمة، أو في نصوص «بوغازكوي» عاصمة الامبراطورية الحثية.

وبذلك تم بالتدريج اكتشاف مملكة كنعانية من الألف الثاني ق.م، يُمكن وضعها في إطارها التاريخي بين عهد المملكة الحديثة في وادي النيل ومملكة ميتاني عاصمة الحوريين... بين عالم سورية الداخلية ووادي الرافدين... بين الدولة الحثية وبلاد البحر المتوسط (اليونان، موكيناي، كريت، قبرص)، زمن مُوسى والخروج من مصر.

وبدءاً من عام ١٩٢٩م أُجريت حفريات منتظمة في رأس الشُمرة من قبل البعثة التي ترأسها أول الأمر الدكتور شيفر حتى عام ١٩٧٠م، مع فترة توقف بسبب الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م، ثم كونتانس حتى عام ١٩٧٤م، ومن ثم مار غيرون حتى عام ١٩٧٧م، وأخيراً يون منذ عام ١٩٧٨م.

وعلى بضعة كيلو مترات من هناك على شاطىء البحر عند (رأس ابن هاني) تم في عام ١٩٧٥م اكتشاف مستوطنة تضم قصوراً ومساكن عائدة إلى الفترة الأخيرة من مملكة أوغاريت، وتقوم بعثة مشتركة سورية وفرنسية بالتنقيب منذ ذلك الحين، ولقد تكللت الحفريات في موقع المستوطنة المرفئية في «مينة البيضاء» وتحري المدينة نفسها بنجاح كبير، وشهد التنقيب شبه الدائم في الموقع خلال أكثر من ٥٥ عاماً عدة مراحل[١].

---

(١) مجموعة من الباحثين الفرنسيين: دراسات أوغاريتية، ترجمة: نور الدين خضور، دار المنارة ـ اللاذقية عام ١٩٨٨م، ص١٥، ١٦.

لقد أُجري سبر طبقي امتد عمقاً من قمة التل إلى الأرض البكر، وقد تم تحديد السويات الأثرية التالية بدءاً من الأعلى والأحدث:

السوية الأولى: ويرمز لها رأس الشمرة (R.S.I)1، وتقسم إلى ثلاث طبقات أصغر (I,1 I,2 I,3)، وتؤرخ على عصر البرونز الحديث، أي بين (١٦٠٠ - ١٢٠٠ ق.م)، وفيها كشفت مملكة أوغاريت وآثارها الهامة.

السوية الثانية: (R.S.II)، وتقسم إلى ثلاث طبقات (II,3) (II,2) (II,1) وتؤرخ على عصر البرونز الوسيط، أي بين (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)، وبين هذه السوية والتي سبقتها سوية انقطاع استمرت بين (٢٢٠٠ - ٢٠٠٠ سنة ق.م).

السوية الثالثة: (R.S.III)، وتُقسم إلى عدة سويات وطبقات أصغر وهي السوية الثالثة أ (IIIA) التي تقسم بدورها إلى ثلاث طبقات .IIIA,1. IIIA,2 IIIA,3، وتؤرخ على عصر البرونز القديم، أي بين (٣٠٠٠-٢٢٠٠ سنة ق.م)، ثم الطبقة الثانية (IIIB) التي تؤرخ على عصر العبيد، أي بين (٤٠٠٠ - ٣٠٠٠ سنة ق.م)، ثم الطبقة الثالثة (IIIC)، وتؤرخ على العصر الانتقالي بين (تل حلف) و(تل عبيد) أي بين (٤٣٠٠ - ٤٠٠٠ سنة ق.م).

السوية الرابعة: (R.S.IV)، وتقسم إلى ثلاث طبقات هي الطبقة الرابعة أ والطبقة الرابعة ب، والطبقة الرابعة س (IVA. IVB. IVC) وتؤرخ هذه السوية بين (٥٢٥٠-٤٣٠٠ سنة ق.م) وهو عصر تل حلف.

السوية الخامسة: (R.S.V)، وتقسم إلى ثلاث طبقات هي: الطبقة الخامسة أ، والخامسة ب، والخامسة س (VA. VB. VC)، وتؤرخ هذه السوية بين (٦٥٠٠-٥٢٥٠ سنة ق.م)، أن الطبقات الخامسة أ، ب تقعان على العصر الحجري الحديث (نيوليت) الفخاري، بينما تؤرخ الطبقة س على العصر

الحجري الحديث السابق للفخار، وبذلك نرى بأن موقع رأس الشمرة قد سُكِنَ تقريباً منذ العصر الحجري الحديث الذي أتقن فيه الإنسان الزراعة، وخرجت القرى الزراعية من موطنها الأصلي في أحواض الأنهار الكبرى وسفوح الجبال المطيرة إلى المناطق الساحلية والصحراوية.

لقد بقي تل رأس الشمرة مسكوناً على امتداد العصر الحجري النحاسي، أي عصر تل حلف وتل العبيد حتى نهاية عصر البرونز القديم الذي يُعدُّ مرحلة انقطاع هي الوحيدة في هذا الموقع وربما كان سببها الاضطرابات التي رافقت نشوء الممالك الأمورية في المشرق العربي القديم.

بعد هذا الانقطاع، وفي مطلع الألف الثاني ق.م، أي في عصر البرونز الوسيط، يُعادُ سكان الموقع ويغطي الاستيطان مساحة التل الحالي كافة، لكن المرحلة النوعية والأهم في تاريخ أوغاريت هي عصر البرونز الحديث (١٦٠٠ — ١٢٠٠ سنة ق.م) الذي ازدهرت فيه المملكة[1].

ومن أهم ما اكتشف من آثار في أوغاريت القصر الملكي وهو عبارة عن مجموعة أقسام، وتتجلى الساحة المرصوفة بالحجارة، وتتحكم بدروبها المؤدية إلى داخل المدينة، وعلى هذه الساحة عينها تنفتح كنه (سقيفة) ضخمة تستند إلى عمودين وتشكل بذلك المدخل الرئيسي وتحيط بها حجرات صغيرة للحراس تتيح مراقبة الداخلين بدقة كبيرة، ويحميها برج متين ومن الكنه يؤدي ممر متعرج إلى باحة واسعة مرصوفة بالحجارة تنتهي في الجهة الجنوبية بكنه ثانية على أعمدة تليها قاعة العرش على أكثر الاحتمالات، وقد تم اكتشاف عدد وفير من حجرات المحفوظات في أماكن متعددة.

---

(١) د. سلطان محيسن: مرجع سبق ذكره، ص٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٤.

ويُعتبر القصر الشمالي من أقدم ما اكتشف في أوغاريت حيث أنه أقدم من القصر الملكي الذي نوهنا عنه أعلاه، ويقع شمال القصر الملكي وهو مفصول عنه بشارع طويل، ويحتل قاعة تبلغ مساحتها حوالي ١٥٠٠ متراً مربعاً، ويشتمل على ثلاثين قاعة تحف بباحتين رئيستين، ويوجد المدخل الرئيسي الفخم في الجهة الشرقية حيث ينفتح على ردهة تليها باحة نرى إلى الشمال منها كنه ذات عمودين ومن هناك ننتقل إلى باحة ثانية أوسع مزودة ببركة مياه محاطة بجدران ميدران بنيت قواعدها من حجارة مطلية بالقار، وتُعيقُ حالة الجدران السيئة كل تحرٍ دقيق للحجرات المحيطة بهاتين الباحتين، بيد أن ضآلة حجمها ودور بعض المساحات بالإضافة إلى سلم في الجهة الشمالية الغربية تدعونا إلى الاعتقاد بأنها حجرات السكن، وربما أيضاً قاعات المراسم كانت موجودة في الطابق العلوي.

وقد أمكن بنتيجة التنقيب الأثري تحديد بناء هذا القصر، وهو نهاية عصر البرونز الوسيط في حدود (١٦٠٠ سنة ق.م)، وتم التأكد بأنه هجر في حدود القرن الرابع عشر ق.م، حيث استخدم كورشة عمل لبناء القصر الملكي من عصر البرونز الحديث، الذي يليه مباشرة من الناحية الجنوبية[١].

وقد كشفت التنقيبات الآثارية في أكربول المدينة عن معبدين رئيسيين نسبا للإله (بعل) و(دجن)، حيث يوجد قربهما نصبان حجريان لهذين الإلهين، أن معبد (بعل) هو الأكبر (١٦ × ٢٢ م) والأفضل حفظاً، وقد شُيدَ فوق مصطبة مرتفعة (١,٢٠ م) وأُحيط بسورٍ عزله عن بقية الأبنية المجاورة، وقد دلت على هذا السور آثاره التي بقيت محفوظة في الجهة الشرقية من المعبد، بينما ظهرت في الجهة الغربية ملاحق سكنية.

---

(١) مجموعة من الباحثين الفرنسيين: مرجع سبق ذكره، ص٥٠ ـ ٥١.

ويتألف المعبد من حرم مربع الشكل تقريباً يتقدمه مدخل مربع أيضاً، وله رواق لكنه أقل عرضاً من الحرم ويصعدُ إليه بدرج، وأمام المدخل باحة كبيرة مسورة فيها مذبح مرتفع على نفس محور مدخل المعبد.

وقد عُثِرَ في أوغاريت على معابد أخرى اقل أهمية وعلى العديد من الآثار الجنائزية الأخرى كالنصب والمذابح والأحواض والأدوات وأواني العبادة، وقد بُنِيَتْ معابد أوغاريت منذ عصر البرونز الوسيط وبقيت في الاستخدام على امتداد عصر البرونز الحديث، وهي تُشكل نموذجاً للمعابد السورية الكنعانية التي ظهرت سواء في إيبلا أو إيمار أو في بيت شان وحاصور ومجيدو.

وأشارت نصوص أوغاريت إلى النصب الدينية التي وضعت في المعابد، وهذا تقليد سبق مملكة أوغاريت بكثير، وظهر في العراق القديم منذ عصر فجر السلالات، ومن الآثار الهامة التي كشف عنها في أوغاريت النصب العائد للإله (بعل) والموجود حالياً في متحف اللوفر بباريس، ويبلغ ارتفاعه ١,٤٢ متراً وله قاعدة مستقيمة ورأس قوس، وقد نُحِتَ تمثال (بعل) الذي هو رب العواصف والبرق، وهو واقفاً يرتدي خوذة ذات رأس مدبب يخرج منها قرنان إلى أمام، وتتدلى من تحتها ضفيرتان معقوفتان من الشعر وله لحية مخروطية طويلة، يرفع بيده اليمنى دبوساً ويمسك باليسرى رمحاً له شكل شجرة ترمز إلى البرق، ويرتدي مئزراً محززاً بخطوط أفقية يشده إلى خصره بحزام عريض يعلق فيه سيفاً، ويقف على جبل تسيل بقربه الأنهار ويقف أمامه شخص آخر صغير الجسم قد يكون أحد ملوك أوغاريت.

وقد اشتهرت بلاد الشام القديمة بصنع التماثيل البرونزية على مبدأ الشمع المفقود، وذلك منذ الألف الثالث ق.م، وقد وجد في أوغاريت العديد من الآثار

المعدنية التي تدل على أن هذه الصناعة قد حظيت باهتمام خاص، وكانت مادة تجارية رئيسية، لقد صنعت تماثيل الآلة من البرونز المطلي بالذهب أحياناً، ولها شقوق لإملائها بالمعادن الثمينة، وجرى سكب سواعدها ورؤوسها بشكل منفصل وكانت أحجامها صغيرة.

كما ازدهرت في أوغاريت الصناعات المعدنية والجوهرات فقد تقدمت الصناعات العاجية التي شكلت أهم خصائص حضارة بلاد الشام والتي كانت أوغاريت إضافة إلى جبيل ومجيدو أحد أهم مراكزها، ومن الآثار العاجية المهمة الوجه الخارجي لطاولة مستديرة الشكل نقشت على سطحها مشاهد متتالية.

وازدهرت أيضاً صناعة الأختام الاسطوانية التي عكست مثل غيرها من الآثار تأثيرات عديدة متنوعة، وقد عالجت أختام أوغاريت عدة موضوعات فقد تباينت من مشاهد الآلهة والعبادة وصراع البطل مع الحيوانات الكاسرة إلى مشاهد الحياة اليومية المعاشة.

وقد صنع الكنعانيون في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، أنواعاً مختلفة من الأواني الفخارية كالجرار والصحون والأباريق والأكواب بمهارة فنية عالية.

٣- سياسة أوغاريت :

في وثائق أوغاريت الكتابية فصول من التاريخ السياسي لمملكة أوغاريت، وبذلك يمكن تقسيم التاريخ السياسي لأوغاريت إلى عصرين: أولهما العصر الذي يسبق القرنين الرابع والثالث عشر ق.م، حيث كانت أوغاريت على صلات وثيقة مع جيرانها فيما وراء البحار وفي الداخل، حيث اكتشفت فيها آثار مصرية من عصر الامبراطورية الوسطى (٢٠٥٢-١٦١٠ سنة ق.م)، أهمها

منحوتات لزوجة الفرعون زيزستروس الثاني (١٩٨٧ـ١٨٩٧ سنة ق.م)، وللملك منمحت الثالث (١٨٤٠ـ١٧٩٢ سنة ق.م)، وإن دلت هذه المكتشفات على شيء فإنها تدل على قيام صداقة وعلاقات ثنائية بين حكام أوغاريت وحكام مصر وحاشيتهم.

وقد أرسل المصريون هذه المنحوتات إلى أوغاريت للتقرب منها والحصول على بركة أربابها والتمهيد لبسط النفوذ السياسي عليها، لكن لا شيء يثبت وقوع هجوم مصري في تلك الأرجاء، هذا ما كان من أمر أوغاريت ومصر، أما عن علاقاتها السياسية بالدول الكنعانية في الداخل فلا تزال سراً مجهولاً.

وقد قدمت إلينا وثائق قصر ماري (تل الحريري) وثائق قليلة جداً، تحوي معلومات بسيطة لكنها لا تخلو من المتعة وهي تعود إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م، ويستدل منها أن علاقة تجارية واسعة النطاق كانت قائمة بين ماري وأوغاريت، ويبدو أن علاقة أوغاريت بحلب كانت أوثق من علاقتها بماري.

ويُذكرُ في هذا المجال أن حمورابي الأول ملك يمحاض التي كانت عاصمتها حلب، كتب إلى زمري ليم ملك ماري يعلمه برغبة أمير أوغاريت بزيارة ماري لمشاهدة قصرها المنيف والاطلاع على الإنجازات المتحققة فيها، حيث أن حكام أوغاريت في القرن الثامن عشر ق.م لم يكونوا قد لقبوا ملوكاً، كما أنهم لم يكن لديهم قصوراً كملوك ماري ويمحاض، و لم تكشف التنقيبات الآثارية ما يخالف هذا الاستنتاج.

ونقرأ على ختم السلالة الحاكمة الذي استعمله ملوك أوغاريت جميعهم اسمي الملكين (يقارو) وابنه (نقم ــ ادد)، اللذان حكما بصورة تقريبية خلال

النصف الثاني من القرن الثامن عشر ق.م، والنصف الأول من القرن السابع عشر ق.م، والثابت من خلال استعمال الختم الملكي من قبل ملوك أوغاريت الذين حكموا بعد هذين الملكين أن (يقارو) هو مؤسس السلالة الحاكمة.

وبعد ازدياد نفوذ مدينة الالاخ في سهل العمق قبيل منتصف الألف الثاني ق.م، وانتقال مركز السلطة من حلب إليها، نشأت في قصرها الملكي دار أرشيف للمحفوظات ضمت عدة وثائق تحدثنا عن أمور تجارية واستيراد الالاخ لمادة الصوف من أوغاريت، وبعد سقوط ماري توطدت العلاقات التجارية بين الالاخ وأوغاريت.

وبحكم التجاور بين الدولتين وتوسع كل منهما باتجاه الأخرى، بدأتا بتنظيم علاقاتهما على أسس محددة ومدعمة بوثائق واتفاقات يقضي بعضها بتسليم المجرمين والهاربين، وننوه هنا برسالة من ملك الالاخ (نقميبا) إلى (عبيرا) ملك أوغاريت يعلمه فيها أن أحد الخدم قد فر من الالاخ ومعه ثلاثة خيول ومن المحتمل أنه قصد أغاريت، لذا يرجو أن يأمره بإلقاء القبض عليه وإعادته إلى الالاخ، ومن المرجح أن هذه الحادثة وقعت خلال الربع الثاني من القرن الخامس عشر ق.م.

و لم تكن يمحاض القوة السياسية الوحيدة التي تعاملت معها أوغاريت في الشمال، فقد ظهرت على المسرح السياسي الدولة الميتانية إلى الشرق من نهر الفرات، وحاولت بسط نفوذها على الأراضي الواقعة غربية مثل حلب والالاخ وحتى أوغاريت، وكانت العلاقة بين أوغاريت والميتانيين (الحوريين) علاقة طبيعية.

وإبان وصول السلالة الثامنة عشر (١٥٧٠ـ١٣٤٥ ق.م) إلى الحكم في مصر، تعزز النفوذ المصري في بلاد الشام كلها، وشد ملوكها الرحال إلى بلاد الشام للتصدي للحثيين والميتانيين لمنعهم من بسط نفوذهم وسيطرتهم الكاملة عليها، وقد حرصوا أن تكون أوغاريت ذات الموقع الاستراتيجي إلى جانبهم، وقد احتفظوا بحامية عسكرية فيها خلال عهد (توت موسيس الثالث) (١٥٠٢ - ١٤٤٨ سنة ق.م)، و(امينوفيس الثاني) (١٤٤٨-١٤٢٢ سنة ق.م).

أما العصر الثاني من التاريخ السياسي لأوغاريت فهو العصر الذهبي الذي يمتد بين (١٤٠٠-١٢٠٠ سنة ق.م) تقريباً، وخلال هذين القرنين شهدت بلاد الشام صراعات داخلية سببتها أطماع الحثيين والميتانيين فيها ومحاولتهم بسط نفوذهم عليها أو على جزء منها، فقد تصدى ملوك مصر لهاتين القوتين الكبيرتين في الشمال محاولين منعهما من تحقيق أهدافهما فانحاز إليهم بعض الحكام وعاداهم البعض الآخر.

ولا بد من إشارة هنا إلى أن بلاد الشام تمتعت بالنصف الأول من الألف الثاني ق.م باستقرار سياسي على عكس ما جرى في النصف الثاني ـ فقد قامت فيها دول ودويلات كثيرة مثل أوغاريت، الالاخ، قادش، أمورو، جبيل، مجدو، ولم تقم وحدة سياسية اندماجية بين هذه الدول، فقد بقيت في حالة تجزئة حتى سقطت في يد أعدائها.

وقد كان لهذا الوضع وعدم قيام دولة مركزية في بلاد الشام كما في بابل ونينوى ومصر، أثر كبير في تطورها السياسي والحضاري، حيث شهد العصر الذهبي الأوغاريتي تولي عدة ملوك كان أولهم (عم ثتمر)، وهناك وثائق تؤكد على أن هذا الملك أقام علاقات ودية مع الحثيين والمصريين، وكان على خلاف

مع الأموريين في الجنوب الذين استقروا في السهول الممتدة بين طرطوس شمالاً وطرابلس جنوباً.

وقبيل منتصف القرن الرابع عشر ق.م، خلف (عم ثتمر) على العرش ابنه (نقم ادد)، وقد اكتشفت في أرشيف أوغاريت الملكي وثائق كثيرة سياسية واقتصادية وأدبية من عصر هذا الملك، ويُستدلُ منها أنه عاصر الملك الحثي (شوبي إيلوما) (١٣٨٠-١٣٤٦ ق.م)، وكل من الفرعونيين المصريين (أمنوفس الرابع) (١٣٧٧-١٣٥٨ سنة ق.م)، و(توت عنخ آمون) (١٣٥٨-١٣٤٩ سنة ق.م)، وعاصر الملك الأموري (ازيرو) الذي بسط نفوذه على ساحل بلاد الشام من مملكة جبيل في الجنوب حتى حدود مملكة أوغاريت في الشمال في الربع الثاني من القرن الرابع عشر ق.م، وفي هذا الوقت كانت أوغاريت دولة تجارية ولم تكن دولة عسكرية كجارتها الجنوبية الأمورية، وبذلك قام (نقم ادد) بعقد معاهدة مع الأموريين وقد تعهد (ازيرو) بمساندة أوغاريت في حال وقوع أي هجوم على أوغاريت وعلى دولة (سيانو) في جبلة.

وكان الحثيون في الشمال يتحينون الفرص للتوسع في بلاد الشام، فأدرك أمراء (موكيش) و(نوخشي) الممتدين من سهل العمق في الشمال إلى أراضي غربي حمص الخطر المحدق بهم، وسعوا لتعبئة قواهم للوقوف بوجه الحثيين، ويبدو أن أوغاريت فضلت الوقوف خارج دائرة الصراع فكسبت بذلك عداوة موكيش ونوخشي ورضاء الحثيين، وبذلك ضمن الحثيون لأنفسهم حق التدخل والتوسع في بلاد الشام، وعندما هاجمت موكيش ونوخشي أوغاريت هب الحثيون لنجدة أوغاريت واحتلوا أراضي موكيش ونوخشي.

ومن خلال المعاهدات والاتفاقيات الثنائية بين أوغاريت والحثيين يأتي خط سير الحدود الشمالية الشرقية لأوغاريت التي امتدت من ادلب إلى الروج فجسر الشغور فالبدروسية فجبل الأقرع، أما حدودها الشرقية والجنوبية الشرقية فلا نعرف عنها شيئاً، وبالتأكيد لم تصل إلى (أفاميا) التي كانت تابعة إلى (نعيا)، وفي الجنوب احتدت حدودها حتى منابع نهر السن على الساحل.

حكم العاهل (نعم ادد) فترة طويلة من الزمن، وكان مهتماً بالأدب والثقافة كاهتمامه بالسياسة، وقد دون في عهد ولايته التراث الفكري الروحي الأوغاريتي، وخلفه ابنه (أرخلبا) الذي حكم سنتين بعد وفاة والده، ولم يترك هذا سوى بعض الوثائق القليلة، وإن كانت فترة حكمه القصيرة هذه عادية، إلا أنها تدعو للتساؤل فيما إذا كان هذا الملك قد لقي مصرعه أم أنه اعتزل الحكم لأنه لم يكن على وفاق مع الحثيين، ومهما يكن من أمر فقد اعتلى العرش بعدئذ أخوه (نقم عفا) وذلك في السنة التاسعة لحكم (مورشلي) الحثي (١٣٤٥ـ ١٣١٥ سنة ق.م)، وعاصر من الملوك الحثيين (موفاتلي) (١٣١٥ـ١٢٩٠ سنة ق.م)، و(مورشلي الثالث) (١٢٩٠ـ١٢٨٣ سنة ق.م)، و(حتوشيلي الثالث) (١٢٨٢ـ١٢٥٠ سنة ق.م)، وتوفي خلال السنوات الأخيرة لحكمه تاركاً وراءه وثائق تاريخية هامة.

تربع على عرش أوغاريت بعد ذلك (عم ثتمر الثاني)، وفي عهده وقعت أحداث سياسية هامة نُقِلَتْ إلينا بواسطة الرقم المسمارية الهائلة التي دُونت عليها أيضاً رسائل وقوانين ومُعاهدات، وقد ساد السلام ربوع الشام خلال مدة ولايته خلال الربعين الثالث والثاني من القرن الثالث عشر ق.م، وفي هذه الفترة قررت الدولتان المصرية والحثية وبعد معركة قادش الشهيرة وَقْفَ جميع الأعمال

الحربية بينهما والاعتراف بالوضع الراهن الذي كان قائماً في بلاد الشام في تلك الحقبة.

وبالنسبة للسياسة الخارجية فقد تولى الملوك الحثيون الفصل في النزاعات التي كانت تنشب بين أوغاريت والدول المجاورة لها وكلهم خاضعون للنفوذ الحثي، وقد كشفت الوثائق عن نزاعات عدة وخلافات كثيرة نشبت بينها وبين (سيانو) في الجنوب.

تسلم الحكم بعد وفاة (عم ثتمر) ولده (أبي رانو) الذي لم يترك لنا سوى وثائق قليلة جداً والذي لم يحكم سوى عدة سنوات في الربع الثالث من القرن الثالث عشر ق.م.

ويبدو أن العاهل (أبي رانو) معتداً بنفسه ذو استقلالية في الشخصية و لم يكن كأسلافه ليخضع للحثيين، وبذلك فقد ضرب عرض الحائط كل المعاهدات التي كبلوا بها أوغاريت، ولعل الظروف السائدة في تلك الحقبة في المنطقة مثل تعاظم قوة نينوى، وظهور خطر شعوب البحر قد ساعداه على ذلك.

وبعد وفاة أبي رانو خلفه على العرش (نقم ادد الثالث)، الذي كان حكمه قصيراً، و لم يترك لنا سوى عدة وثائق تتعلق بمعالجة بعض الأمور القانونية من قبل ملك كركميش (جرابلس)، وبعد نقم ادد وصل إلى العرش (عو راضي) آخر ملوك أوغاريت عند نهاية القرن الثالث عشر ق.م، قبيل غزو شعوب البحر لها وإحراقها، وفرار سكانها منها...[1].

---

(١) د. علي أبو عساف: نصوص من أوغاريت ـ سلسلة دراسات ونصوص قديمة ـ ٣ ـ إصدار وزارة الثقافة السورية ـ دمشق عام ١٩٨٨، ص٩-١٩.

٤ـ الناحية الاقتصادية :

كانت المبادلات التجارية الدولية تأخذ عدة أنماط لمبادلات أو هبات بين الملوك وكبار الموظفين من عواصم مختلفة وجزية وصفقات تجارية، أما طرق التجارة فبحرية وبرية، حيث كانت سفناً كبيرة سورية ومصرية وقبرصية تَمْخَرُ عُبابَ البحر المتوسط، وكانت التجارة البرية تتجه نحو وادي النيل وعاصمة الحثيين (حاتوشا)، والبعض الآخر كان يتجه نحو نهر الفرات ثم يصل إلى وادي الرافدين.

وموارد الدولة كانت تأتي من عدة ضرائب ورسوم كمركية وغرامات وموارد العقود، وكان الملك الذي يسيطر على جزءٍ كبيرٍ من اقتصاد البلاد، يُشجعُ الذين يقومون بالتجارة الخارجية وخاصة بين أوغاريت وكريت وذلك بالإعفاء من الضرائب والمكوس وذلك بقدر ما يُقدمُ العميل التجاري من فوائد للملك.

وقد ازدهرت الزراعة في أوغاريت، ومن بين المنتجات الزراعية الزيت والخمور المادتين الأساسيتين اللتين تصدران بالنسبة للتجارة البحرية في جرار ذات حجم موحد، وازدهرت زراعة الأشجار المثمرة، وهناك مساحات زراعية شاسعة للزراعة والرعي كما هو الحال في القرن السابق في (نوزي) و(أرابخا).

وقد اختصت أوغاريت بإنتاج بعض الأصباغ والصوف المصبوغ بالأرجوان، وساعد قرب الغابات في ازدهار صناعة حرفية خشبية وفخارية ترافق نموها مع صناعة عاجية محلية.

كما ازدهرت الفنون اليدوية التي تعتمد على النار كالتعدين والزجاج والخزف، فكانت المواد الخام تستورد كالنحاس والقصدير إضافة إلى المنغنيز الحديدي وأوكسيد الحديد والرصاص ثم تصنع ويعاد تصديرها.

وعلى الرغم من كون أوغاريت اقتصرت على نظام اكتفاء اقتصادي بالنسبة للمواد الاستهلاكية الأولية، فإنها كانت تستورد وإن الاستيراد انحصر في مجال الكماليات كما دلت على ذلك اللقى الأثرية العائدة إلى مناطق بعيدة.

٥- ثقافة أوغاريت :

إن المصادر الأساسية للأدب السوري القديم اكتشفت في أوغاريت، وأن فكرة الرقم الطينية المكتشفة في هذا الموقع الحضاري الهام أمدت العلماء بنصوص أدبية رائعة يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر ق.م، وقد جعلت هذه النصوص أحد العلماء يقول عن أوغاريت بأنها عاصمة مملكة حضارية وفكر إنساني، اعتمد إبداعها الحضاري على أهمية الكلمة والحكمة وفضيلة العمل الإنساني، وأن لأدب أوغاريت قيمة تاريخية عظيمة الشان، فله قيمة دينية هامة وخاصة في مجال الدراسات التوراتية، ولهذا الأدب قيمة اجتماعية، فهذه أول مرة تتوفر للباحث والدارس والمؤرخ مصادر أصيلة ناضجة تصف لنا المجتمع في سورية الكنعانية، كما تتجلى القيم الفنية لهذا الأدب.

وليس بمستبعد أن تكون هذه الملاحم والأساطير أصلاً تمثيليات فصلية والواقع أن ملحمة «مولد السحر والغسق»، أو مولد الآلهة الجميلة هي تمثيلية لأن التعليمات التي تصدر للممثلين والجوقة إنما تشير بوضوح إلى أن فعلاً درامياً على مسرح كان يرافق موسم تلاوتها الجماعية[1].

---

(١) د. أنيس فريحة: ملاحم وأساطير من أوغاريت، دار النهار - بيروت عام ١٩٨٠م، ص٩٥.

ومن أهم أساطير الأدب الأوغاريتي، أسطورة الإله «بعل» حيث تتكون من عدة قصص، وقد ترجم هذه الأسطورة أكثر من عالم ومختص باللغات القديمة.

وفي هذا السياق لا بد وأن نسلط الضوء على أهم ناحية أدبية ولغوية شهدتها أوغاريت ألا وهي (أبجدية أوغاريت) التي تعتبر بمثابة حدث ثقافي ولغوي كبير، حيث أنها اختزلت الخط المسماري الرافديني.

والخط الهيروغليفي في وادي النيل وأصبحت أساساً لخطوط العالم المتمدن والسائر في ركاب التطور باعتبارها أقدم أبجدية في العالم.

ففي عام ١٩٢٩م، عَثَرَتْ البعثة الفرنسية المنقبة على أول رُقم من مكتبة أوغاريت يعود تاريخه إلى أواسط الألف الثاني ق.م، وما لبث اللغويون أن تعرفوا على كتابة أبجدية ذات شكل مسماري تخص لغة كنعانية وهي اللغة الأوغاريتية.

تُكتبُ الأوغاريتية التي تُشبهُ أشكال حروفها المسمارية الأكادية من اليسار إلى اليمين كالأكادية على الرقم الطينية والحجارة، وتتألف أشكالها من ثلاثين رمزاً صوتياً ـ حرفاً كتابياً ـ ثلاثة منها تُمثلُ الألف مع الحركات الثلاث الفتح والضم والكسر، وهذا يعني اختلافاً عظيماً عن مبدأ الكتابة السومرية والأكادية المسماريتين الذي هو مقطعي، ويشتمل على أكثر من ٥٠٠ رمز ما بين مقطعية صوتية ورموز معرفة.

ويبدو أن ترتيب الحروف الأوغاريتية هو نفس الترتيب السامي المعروف وإن بدا مختلفاً في بعض أجزائه، ومرد ذلك أن الأوغاريتية تعرف معظم الأصوات السامية الأصلية وتزيد بذلك ـ كالعربية ـ على الحروف والأصوات الكنعانية المكتوبة(١).

---

(١) د. أحمد هبو: الأبجدية، دار الحوار ـ اللاذقية، عام ١٩٨٤م، ص٩٥.

٦- غزو الدويلات الكنعانية :

في أواخر الألف الثاني ق.م، تأثرت دويلات المدن السورية الفلسطينية الكنعانية بعدة تطورات تاريخية مرت على بلاد الشام القديمة خاصةً، وبلاد الشرق القديم عامة، ومنذ القرن الثالث عشر ق.م بدأت شواطىء آسيا الصغرى وسورية ولبنان وفلسطين تتعرض للهجمات من قبل شعوب البحر أو شعوب أرض البحر القادمين من بحر إيجة ودول البلقان، وقد أطلق الآشوريون عليهم تسمية (بيليشتي Pelishti)، وهم شعوب عديدة وهي: الشكلش والثكر والأقاوشا والتورسينيين واللوكيين والشرادنة والبلسطيين أو الفلست.

وبعد مُناوشات عديدة قاموا بمهاجمة بلاد الامبراطورية الحثية، وبلاد الشام ومصر وليبيا، وكان من نتيجة هذه الهجمات التي شنتها شعوب أرض البحر، إنهيار الامبراطورية الحثية وسقوط عاصمتها (حاتوشا) بيد شعوب (الكاكاز) التي تحركت من جهات شواطىء البحر الأسود.

وفي هذه الفترة أي في حدود سنة ١١٩٠ ق.م، سقطت دولة أوغاريت، ودكت العاصمة، وهُدِمَ القصر في وقتٍ كانت التجزئة تسودُ سورية الكنعانية، واضطرت مصر إلى الانسحاب من سورية وفلسطين، وكانت قبائل البلسطيين أو الفلست (الفلسطينيون) القادمون من أرض بحار المتوسط الشمالية الشرقية، والعبريون من شرقي الأردن والآراميون من الجولان وجبل الشيخ قد استقروا في سورية القديمة أو بلاد الشام القديمة، وإلى جانب هؤلاء استقرت أقوام عربية من قبل كالعمونيينن حول عمان، والمؤابيون في شرقي البحر الميت (بحر الملح)، والأدوميون في النقب وجنوبي البحر الميت، والمديانيون حول خليج العقبة.

وقد اجتهد علم الآثار ليجد شاهداً يعود لفترة خروج الموسويين من مصر ودخولهم أرض كنعان، فحول دخول العبرانيين من الناحية الشرقية توجد المواقع الأثرية في (إدوم Edom)، و(مُؤَاب Moab)، وعمان (عمون Ammon)، فلقد كان نتيجة المسح الأثري الواسع النطاق الذي قام به الآثاري (نلسون جلويك Glueck)، أنه أشار إلى فقر المنطقة بالمستوطنات خلال الجزء الأكبر من الألف الثانية ق.م، وقد تغير كل ما يحيط بالصورة حيث تم العثور على عدة لُقى أثرية تعود إلى العصر البرونزي الوسيط والحديث في المناطق التي تجاور مدينة عمان حالياً، وهذا ما أكدت تنقيبات السيدة (كريستال بنيت Bennett) في موقع (أم البيارة Umel Blyara) وموقع (طويلان Tawillun)، وعلى وجه الخصوص موقع (البصيرة Buseira)، التي كانت دوماً عاصمة الدوميين، فلم يُعْثَر على شاهد يُؤكد وجود مستوطنات حتى القرن التاسع ق.م.

وعليه فإن مجموعات الخروج - أتباع موسى - لم تكن لتصد بواسطة ممالك عمرانية مُستقرة، بل صُدت من قبل مجموعات بدوية قبلية وهذا ما تقره الأبحاث العلمية الأثرية، إذ لم تُقدم دلائل تُشيرُ إلى وجود مدن في شرقي الأردن في تلك الحقبة.

ووصف سفر «يوشع» في التوراة قصة احتلال مدينة أريحا (يريحو) مدينة القمر في فلسطين، فبعد موت موسى آلت القيادة إلى يوشع وكان عليه أن يتبع رُؤى موسى، وكانت تلك القصة مُرتكزاً لاحتلال مدينة أريحا الذي كان أول حدث هام من أحداث غزو بلاد كنعان[1].

---

(١) كاثلين كينيون: الكتاب المقدس والمكتشفات الآثارية الحديثة، تعريب د. شوقي شعث وسليم زيد، دار الجليل - دمشق عام ١٩٩٠م، ص٤٤، ٤٦، ٤٧.

أما من ناحية بلاد الشام الجنوبية فقد توغلت القبائل الموسوية الإسرائيلية على شكل دُخوليين مُنفصلين من الجنوب ومن الشرق، وفيما يتعلقُ بالدُخول من الجهة الجنوبية لا توجد شواهد أثرية مؤكدة حيث تعرضت مدن فلسطين إلى تدمير شامل، وهو جزء من التدمير العام الذي شمل المنطقة الممتدة من الأناضول حتى مصر... لقد كان التدمير سبباً في سقوط كثير من القوى العُظمى بالمنطقة آنذاك بسبب اجتياح شُعوب البحر الذي تُشيرُ إليه النقوش المصرية بأنه تم حوالي ١١٩٠ ق.م، وقد عُثِرَ على الكثير من الشواهد الأثرية لذلك التدمير في جنوب فلسطين في كثيرٍ من المواقع التي تعود إلى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م، لكن لا يوجد لدينا دليل نستطيع أن نقرر على ضوئه أن ذلك التدمير كان من أعمال شعوب البحر، أو نتيجة تسرب الإسرائيليين أو حتى نتيجة الحملات المصرية ضد شعوب البحر، إن الشاهد المتعلق بهذا الدخول هو شاهد كنعاني على الرغم من كونه يعطي معنى أثرياً لأن ذلك التسلل كان يقف عند الخط الواصل بين المدن الكنعانية التالية: القدس ـ عجلون ـ جزر.

وفيما يتعلق بالدخول من الجهة الشرقية فالحقيقة أن كل المناقشات الحديثة أثبتت بطلان كل التفسيرات المقترحة حول طريق الخروج، والتفسير الوحيد الذي يمكن قبوله هو ذلك الذي طرحه (الأب دوفو) والذي يتلخص بأنه لا يوجد طريق، ومن العبث تتبعه، فعبر مدة زمنية طويلة كافية كي يموت الذين خرجوا من مصر، سارت المجموعة بالتدريج نحو الشمال وعاشت عيشة بدوية كاملة فيما يقول المصطلح التوراتي بأنها تاهت أربعين سنة في حين أن الأدلة الأثرية والفيزيائية والأنثروبولوجية تُشير إلى أنه من النادر في تلك الفترة من الألف الثاني ق.م لأي شخص أن يصل عمره إلى خمسين سنة وعليه فإن الفترة الحقيقية للتيه الوارد في التوراة لا بد أن تكون مدته نحو عشرين أو ثلاثين عاماً.

وتقول التوراة بأن موسى يقطع صحراء سيناء بين مصر ومدين وكأنه ينقل بهم من قرية إلى أخرى علماً بأن مسافة صحراء سيناء تقارب الألف كيلو متر، وحين يخرجون ـ أي بني إسرائيل ـ بقيادة موسى من مصر إلى فلسطين التي هي أرض كنعان ـ حسبما يرى الجغرافيون التوراتيون ـ، نراهم يسلكون طريقاً إلى أرض كنعان بعدما داروا من خلف أرض الفلسطينيين تفادياً لأي صدام معهم؟!، والغريب في الأمر أن أغلب المؤرخين يقولون أن خروج موسى بجماعته من مصر كان حوالي القرن الثالث عشر أو الرابع عشر ق.م، وأن جماعات الفلسطينيين «الفلست» بدأت تتوافد نحو سورية في القرن الثاني عشر ق.م، وقد سُمِحَ لها بعد أن هزمها الفرعون المصري رمسيس الثالث أن تنزل بصورة دائمة في ساحل سورية الجنوبية الذي صار يسمى «فلستيا»(1)، وكانت فلسطين الجنوبية البلد الوحيد الذي كان فيه عدد المهاجرين الإيجيين كافياً لاحتلاله وتأليف أمة منهم، وهكذا استطاعت قبيلة كريتية عُرِفَتْ باسم ـ الفلسطينيين ـ أن تحرز لنفسها مقاماً وتبني عدداً من المدن الزاهرة في القرن الثاني عشر ق.م(2).

وبعد صراع دام أكثر من قرنين تغلبت القبائل الإسرائيلية على السكان والقوى المحلية فيما ينعكس أخباره بصفة خاصة في سفري (يشوع)، و(القضاة) في التوراة وفيهما تنعكس عقيدة الغزو التي يبررها إيمان ديني، فقد استولوا على بعض الأماكن القديمة والمدن المسورة مثل تل الدوير (لخيش)، و(عاي)، و(حاصور)، و(بجدو)، و(أريحا)، وغيرهم من المدن الكنعانية القديمة المسورة،

---

(1) فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، بيروت عام ١٩٦٨م، ص١٩٦.

(2) د. جيمس هنري بريستد: العصور القديمة، ص٢٧٨.

وقد تأثروا بالديانة الوثنية الكنعانية والفلسطينية وانحرفوا عن تعاليم موسى واتخذوا من (يهوه) إلهاً لهم، وقد طلبوا من (صموئيل) أحد كبار قضاة الموسويين أن يعين لهم ملكاً أسوة بالكنعانيين فقام بتعيين طالوت بن قيس (شاؤول) ملكاً على الإسرائيليين الذي لقي مصرعه أثناء صدامات دامية وقعت بينهم للسيطرة على الحكم، وقد تمكن (داؤد) من أن يكون ملكاً على (إسرائيل) في مدة محدودة، وبعد موته تولى (سليمان) العرش وفي زمنه قسمت المملكة العبرية إلى دولتين هما (إسرائيل) في الشمال وعاصمتها (سبسطية)، و(يهودا) في الجنوب وعاصمتها (أورشليم) القدس.

وفي هذه الغضون أي منذ اقتراب نهاية القرن العاشر ق.م، بدأت الدول الكبرى تستعيد نفوذها مرة أخرى في بلاد الشام، وهي دول (آرام)، و(نينوى) الآشورية، ومصر الفرعونية، وفي هذه الحقبة تصاعد الدور الثقافي والديني والاقتصادي لأقوام المنطقة الأصليين، وأخذت اللغة الآرامية تنتشر في مجالات التعامل والإدارة والآداب حتى اندماج دول سورية وفلسطين في الدول الكبرى في بلاد الرافدين ووادي النيل في مرحلة ما بين القرنين الثامن والسادس ق.م.

جـ ـ العموريون

١ـ عمورو :

إن المنطقة الممتدة بين نهر الفرات ونهر النيل وعلى الأطراف المعمورة من بلاد الشام تعتبر منطقة تكاد أن تكون جافة لقلة أمطارها ومياهها، وهي البادية العربية السورية المعروفة باسم (الحماد)، إن هذه المنطقة لا تتوفر فيها أسباب المدنية والاستقرار فبذلك كانت موطناً للبدو الرحل وهم الذين عرفوا في النصوص المسمارية العراقية القديمة باسم عمورو «أمورو»، وهي مشتقة من كلمة الغرب، وبذلك فإن أمور تعني الشعوب الغربية أي الأقوام التي أتت إلى وادي الرافدين من الجهة الغربية عن طريق سورية.

وقد ورد اسم هؤلاء الشعوب في العهد القديم ـ التوراة ـ باسم (أموريين)، وقد امتدت منازل هذه القبائل البدوية على طول جبال تدمر وجبل بشري في لبنان، وقد اقترب الأموريون من نهر الفرات كلما سنحت لهم الفرصة وكثيراً ما كانوا يصطدمون بالحضر سكان المدن بسبب التفاوت الكبير.

لقد أثر الأموريون على تاريخ المشرق القديم منذ أقدم العصور التاريخية لأن هذه العناصر البدوية أخذت تتغلغل وتتسرب إلى داخل البلاد طلباً للأرض الخصبة والمياه وطمعاً بالثروات وطريقة حياة المدن الراقية، لكنها لاقت خيبة أمل لاصطدامها بالدويلات السومرية ومن ثم بالامبراطورية الأكادية، وكانت مدينة (ماري Mari) القابعة أطلالها الآن في (تل الحريري) قرب الحدود العراقية السورية، مدينة محصنة على نهر الفرات، واستطاعت أن تسد عليهم الطريق زمناً طويلاً، كذلك قامت مدينتي لكش (تلو) و(أوما) جوخا في جنوبي بلاد

الرافدين، بطرد العناصر البدوية العمورية المتسللة والتي كانت تتسرب من الجنوب العربي.

إن الاصطدام الذي حصل بين هؤلاء البدو ومراكز المدن الحضرية على النهر أدى إلى تطور في طريقة حياتهم فانطلقوا إلى حياة شبه بدوية، ويتميز النصف الأول من الألف الثاني ق.م بصورة عامة بهذا التوتر الشديد الذي حصل بين الريفيين والحضريين، ولكن الذي حصل بالنتيجة هو نوع من التفاعل الثقافي التدريجي مع احتفاظ العموريين بملامح البداوة.

إن أول إشارة إلى الأموريين في العراق القديم تعود إلى عهد الملك الأكادي (شاري كلي شاري) (٢٢٢٣-٢١٩٨ سنة ق.م)، حينما قام بدحرهم في جبل بشري بلبنان، وبعد اغتيال هذا العاهل تزعزعت أركان امبراطورية الأكاديين على أيدي الكوتيين الذين قدموا من مناطق جبال زاجروس من أطراف (لورستان)، والذين انحدروا نحو سهول العراق الخصبة واتخذوا من (أرابخا) الواقعة في كركوك الحالية شمالي العراق مركزاً لحكمهم ثم قاموا باحتلال أكاد وسومر، وهم أقوام قميئة متخلفة يغلب عليهم طابع البدائية والهمجية[١].

وكان العموريون في بادية سورية يغتنمون الفرصة في محاولة يائسة لدخول العراق، في وقت كانت الدولة القديمة في مصر تواجه مصاعب في مناطق نفوذها في فلسطين وسورية، وبذلك فقد انتشر العموريون في كافة أنحاء بلاد الشام، وقد قام الملك (شوسين) بإقامة تحصينات دفاعية على الفرات، ثم يزداد عدد النصوص التي تشير إلى الأموريين وإلى أشخاص يحملون أسماء أمورية في النصوص التي تعود إلى تلك المرحلة، وتشكل هذه المصادر الرئيسية لإعادة

---

(١) عبد الحكيم الذنون: الذاكرة الأولى - الجزء الأول - مرجع سبق ذكره، ص٧٩.

تكوين اللغة الأمورية وهي الشكل الأول من اللغة السامية الغربية التي تضم فروعاً أخرى معروفة بشكل أوسع كالكنعانية والأغاريتية واللهجات الكنعانية الأخرى كالفينيقية والعبرانية ومجموعة اللهجات الآرامية، وهذا الفرع الغربي من اللغات السامية يقابله الفرع الشرقي ويضم: الآكادية - البابلية - الآشورية.

إن البدو لهم أسلوباً حياتياً متفرداً، فالخانيون كانوا يجندون في جيش ماري، والبنياميني‍ون كانوا أكثر غراقاً في البداوة، والسوتيون كانوا في حالة بداوة مستمرة وكانوا غزاة نهابين، وإن كتاب بلاد الرافدين من السومريين يصفونهم في نصوصهم - أموريين - أي أبناء الغرب (أمورو).

وتأتي هذه المعلومات الجديدة عن طراز الحياة البدوية خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م، ليسلط الضوء على تحرك جماعة بدوية معروفة في التقاليد التاريخية والدينية وهي أسرة (إبراهيم الخليل) الذي ورد اسمه في التوراة باسم (إبرام بن تارح)، وفي الميدان الذي ما زال تتحرك فيه القبائل العربية، حيث يتجه إبراهيم من أور (تل المقير) في سومر حيث كان يعبد الإله (سين) الإله القمر إلى (حران) جنوبي الأناضول، حيث مركز آخر لعبادة لإله القمر، ثم ينزل إلى بلاد الشام عن طريق حلب فحمص فدمشق فمصر ثم يرجع إلى فلسطين فيقوم باستقباله الملك الكاهن «ملكي صادق»، ويستقر أبناؤه فيها، وفي ظروف من الصراع الديني في مصر بقي من آثار حركة «أخناتون» التوحيدية، ثم يدخلون مصر وربما مع الهكسوس، وهذه هي أول الهجرات التي حصلت في القرن الثامن عشر ق.م، وقد خرج أبناء هذه الجماعة بعد أربعة قرون من مصر على أثر إنهيار حكم الهكسوس، وبعد ذلك خروج موسى وأتباعه إلى طور سيناء[1].

---

(١) د. محمد حرب فرزات: مرجع سبق ذكره، ص١١٠ - ١١٦.

٢ـ حول موضوع العبرانيين:

يُعتبرُ العهد القديم (التوراة) من الكتب القديمة جداً، وقد كان الباحثون يعتمدون عليه في تدوين تاريخ فلسطين القديم، وقد بقي على هذا النحو قروناً طويلة لانعدام الأدلة والبراهين، حتى كشفت لنا الكتابات التي خلفها الأقدمون قبل عهد التوراة، وهم السومريون والأكاديون والفينيقيون والآشوريون والحثيون والمصريون والأموريون، عن كثير من المسائل الغامضة، حتى أوضحت لنا هذه الاكتشافات ما يلي:

١ـ تشخيص أكثر المواقع التي ورد ذكرها في هذه المدونات وفي كتابات التوراة.

٢ـ تعيين تاريخ الحوادث بصورة مضبوطة وفق تسلسلها الزمني وإيضاح هذه العلاقة بين الأقوام وتبيان أدوارها وخاصة هجرة الأقوام بشكل عام وتطور ثقافاتها ولغاتها.

٣ـ تعيين زمن الحوادث التاريخية الوارد ذكرها في العهد القديم قياساً إلى الوقائع الحربية والسلالات الحاكمة في كل حقبة من الحقب التاريخية وفق التسلسل الزمني.

٤ـ توصل الباحثون إلى أن كثيراً مما ورد في التوراة من قصص وأساطير وشرائع يرجع إلى أصل قديم جداً وجد مثيله أو ما يشابهه في المدونات السومرية والأكادية والكنعانية والأشورية والمصرية والبابلية.

٥ـ توصل الباحثون إلى أن مواد عديدة في التوراة مأخوذة من تشريع حمورابي والشرائع القديمة الأخرى، وإن أكثر التراتيل والتسابيح الدينية الواردة في التوراة مقتبسة من الكنعانيين، وقد عُثِرَ عليها في أوغاريت السورية القديمة.

٦ـ توصل الباحثون أيضاً إلى أن شرائع التوراة هي نفسها الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون والمصريون من قبل، وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم أدخلوها في كتبهم الدينية.

٧ـ ثبوت كون اليهود غرباء عن فلسطين وأن كل ما يملكون من المقومات الثقافية ومنها اللغة العبرانية والتوراة، مُقتبس من الحضارتين الكنعانية والآرامية، وهما من أصل عربي، حتى إن التوراة تُسمى بالتوراة الآرامية لأنها كُتبت باللغة الآرامية في بابل، وإن الأسماء الواردة في التوراة سواء كانت أسماء أشخاص أم أسماء مدن قديمة في فلسطين هي من أصل كنعاني ترجع إلى ما قبل ظهور اللغة العبرية بزمن بعيد.

٨ـ ثبوت كون اليهود عاشوا في فلسطين وهم أقلية بين الفلسطينيين، وأنهم لم ينشؤوا دولة مدينة زمنية تضم كل فلسطين، وقد اقتصر حكمهم في دويلتين من دويلات المدن هما السامرة والقدس، وذلك لعدم وجود دولة مركزية تضم بلاد الشام ومنها فلسطين، لأن النظام السائد في سورية القديمة هو نظام دويلات المدن.

ولأجل إيضاح موضوع العبرانيين علينا أن نميز بين عصر إبراهيم الخليل وبين عصر موسى باعتبارهما عصرين منفصلين لا صلة لأحدهما بالآخر، كذلك التمييز بين التوراة التي هي كتاب سماوي نزل على النبي موسى في القرن الثالث عشر ق.م، ونزل بلغة مصر القديمة الفرعونية، وبين التوراة الآرامية التي دونها كهنة اليهود في مرحلة التحرير البابلي لفلسطين القديمة عام ٥٨٦ ق.م، بلغة الآراميين بعد ثمانمائة عام من عصر موسى، وبعد ألف وخمسمائة عام من عصر إبراهيم الخليل.

وحين نستعرض تاريخ فلسطين القديم لا بد من تحديد معنى أربع تسميات وهي: «عبري»، و«إسرائيل»، و«قوم موسى»، و«اليهود»، حيث كانت تُطلق تسمية «عبري» في نحو الألف الثانية ق.م، وفيما قبل ذلك على طائفة من القبائل في شمالي الجزيرة العربية وفي بادية الشام، وعلى غيرهم من الأقوام السامية في المنطقة، حتى أصبحت كلمة «عبري» مرادفة لابن الصحراء أو ابن البادية بشكلٍ عام، ولم يكن لبني إسرائيل أو أتباع موسى أي وجود بعد.

وتسمية «إسرائيل» مصطلح في التاريخ القديم يقصد به «يعقوب»، هو حفيد إبراهيم الخليل، وأبناؤه هم بنو إسرائيل «بنو يعقوب» الذين ورد ذكرهم في التوراة، وإن فلسطين هي أرض غربتهم، وقد وجدوا في القرن السابع عشر ق.م، وهو عهد إبراهيم نفسه...

ويذكر بهذا الصدد أن كلمة «إسرائيل» كانت اسماً لموضع في فلسطين، وهي تسمية كنعانية وبهذا المعنى وردت في الكتابات المصرية التي ترجع إلى ما قبل عصر موسى، وبالنسبة لأرض كنعان ـ فلسطين ـــ فقد كانت أرض غربة لإبراهيم وولده إسحاق «يصحاق» وحفيده يعقوب «إسرائيل» وذلك بتأكيد التوراة نفسها.

وحول تسمية «قوم موسى» فقد تم تداولها بعد الدور الذي تم فيه تداول تسمية «إسرائيل» بزهاء ستمائة عام، والموسويون على أرجح الاحتمالات هم مصريون من بقايا الهكسوس، وقد خرجوا من مصر في زمن الفرعون المصري رمسيس الثاني (١٢٩٩ ـ ١٢٣٢ سنة ق.م)، وذلك في حدود (١٢٩٠ ق.م)، وبعد خروجهم من مصر ظلوا يجوبون طور سيناء عدة سنين، وكان قوم موسى يدينون بديانة التوحيد، ومن بعد موسى أخذوا بالديانة الوثنية عن الكنعانيين الذين جاوروهم، كما أخذوا بالثقافة والتقاليد الكنعانية.

وقد تمكن أتباع موسى قبل دخولهم فلسطين في التاريخ القديم، من الإغارة على بعض الأماكن القريبة من فلسطين، حيث غزوا دويلة أمارة أمورية ورد ذكرها باسم «مملكة سيحون»، كما استولوا في فلسطين نفسها على بعض المدن الكنعانية المسورة مثل تل الدوير «لخيش»، و«عاد»، و«أريحا»، ثم تغلغلوا شمالاً في الجليل.

أما تسمية «اليهود» فقد أطلقت على جماعة «يهوه» الذين هاجمهم الملك البابلي «نبوخذ نصر الثاني» وأخذهم أسرى إلى بابل (عام ٥٨٦ ق.م)، وقد سُموا كذلك نسبة إلى دويلة «يهودا» المنقرضة، واقتبسوا لهجتهم العبرية من الآرامية وبها دونوا التوراة أي بعد زمن موسى بثمانمائة عام[١].

لقد حصل اليهود في بابل على حريات كثيرة، وأعطاهم البابليون المنشغلون في الحروب مناصب مدينة، وبعد سقوط المملكة البابلية الكلدانية «العهد البابلي الحديث» الذي يُعتبرُ آخر العهود الوطنية في العراق القديم، قام الفرس المجوس بغزو بابل، وأعادوا قسماً من اليهود المبعدين إلى فلسطين، ثم توالت الغزوات على فلسطين حتى احتلالها من قبل الإغريق في عهد الإسكندر المقدوني في (سنة ٣٣٢ ق.م)[٢].

(١) د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، مرجع سبق ذكره.

(٢) عبد الحكيم الذنون: تاريخ فلسطين القديم، مرجع سبق ذكره.

٣- مملكة ماري :

تسميةُ (ماري Mari) مُشتقة من اسـم (أتـور – مـير Itur - Mer)، حيـث ظهرت نصوص جديدة تحمل اسم الإله أتور - مير، ومعنى الاسـم هـو (بوابـة – ماري)، وأنها اسم إله قديم يُكتبُ بالصيغة التالية:

Itur-Mer (d) وهو أصل اسم مدينة ماري كما يظهر اسم نهـر الخـابور في نصـوص قديمـة بابليـة وماريـة علـى النحـو الآتـي: hu-bu-ur (d)، أي إلـه نهـر الخابور.

تقع مدينة (ماري Mari) على ضفة الفرات اليمنـى علـى بعـد ثلاثـة عشر كيلو متراً غربـي مدينـة البوكمـال، واسمهـا الحـالي (تـل الحريـري)، وقـد اختـير موقعها عاصمة للأموريين، نظراً لأهميتها كونها تقع في نقطة تكاد تكون وسطاً بين البحر المتوسط وبلاد الرافدين والأناضول، فهي مركز تجـاري هـام تنافسـت عليه عدة دول حاولت بشتى الوسـائل أن تجعـل هـذه المدينـة خاضعـة لنفوذهـا ليكون طريق التجارة مؤمناً لها بين مناطق العالم القديـم، ويذكـر أحـد نصـوص إيبلا حول حملة عسكرية ضد ماري، وهـذا مـا يشـير إلى غنـى هـذه المدينـة في العصر الأكادي.

لقد استطاع الأموريون أن يحافظوا على استقلالهم مدة طويلة، وجعلوا مـن مـاري عاصمـة لمملكـة الفـرات الـتي اتسعت رقعتهـا وأصبحـت قويـة الجـانب وسيطرت على القوافل التجارية التي تُرسـلها، عـلاوة على خصوبـة تربتهـا، إن كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى أن تنهض حضارة من أزهى حضارات الألـف الثالث والثاني ق.م، وكان للملك الأموري البـابلي (حمورابـي) اليـد الطـولى في دكها والاستيلاء عليها وفتح الطريق أمام قوافله وجيوشـه لتصـل البحـر وجبـال الأرز ومناطق النحاس والذهب، ولتبقى بابل متفردة في قيادة المنطقة.

٤ـ آثار ماري :

تم اكتشاف ماري على مقربة من الضفة اليمنى لنهر الفرات في موقـع (تـل الحريـري)، وقـد بـدأت التنقيبـات الآثاريـة في تـل الحريـري منـذ عـام ١٩٣٣م بإشراف الفرنسي أندريه بارو الذي ارتبـط اكتشـاف مـاري باسمـه حيـث دأب على العمل مدة أربعين عاماً لغاية عام ١٩٧٢م، وتبـدأ قصـة الاكتشـاف لمدينـة ماري القديمة، أنه في عام ١٩٣٣م، في النصف الأول من هذا القرن كان ثلة من البدو يحفرون قبراً لأحد موتاهم وأثناء الحفر عثروا على شواهد تعـود إلى مدينـة ماري، ومنذ ذلك الحين بدأت الحفريات في تل الحريري، وتجـري الآن عمليـات دراسة وتنقيب في الموقع ذاته من قبل الآثاري «مار غرون».

بُنيتْ مدينة ماري في النصف الثـاني مـن الألـف الثـالث ق.م وفـق مخطـط منتظم يحيط بها سور دفـاعي قـوي، وضمـن هـذا السـور قـامت بيـوت المدينـة ومعابدها وقصورها موزعة حول شوارع بانتظام عجيب، وكان اللبن المسطح ــ المحدب المستخدم في العراق القديم أيضاً، هو مادة البنـاء الرئيسـية، لكـن الأبنيـة هنا قامت على أساسات مـن الحجـر الكلسـي المحلي، كمـا اسـتخدم الآجـر في المناطق الهامة كالأبواب والأقواس والأحواض.

لقد حظيت المعابد باهتمام فريد، فقد بنى سكان ماري معابد آلهتهـم وفـق ريازة معمارية متميزة، حيث شُيِّدَ معبد «عشتار» إلى الجهة الغربية مـن المدينـة، وإلى الغرب أيضاً من الحي الملكي السكني التابع لنفس الحقبة، وجدد بناء المعبـد على ستة مراحل متتالية من أ إلى ف (A - F).

وقد كشف عن معبد (دجن)، ومعبدان آخران لعشتروت ونيني زازا ومعبد رابع لننهور ساج، وقد أشيدت هذه المعابد كافة في قلب المدينة إلى الشـرق مـن معبد عشتار والحي الملكي.



(٣) مجسم نموذج بيت من بيوت مدينة ماري

ومن المعالم الأثرية الرائعة في ماري القصر الكبير حيث «أن قصر ماري أصبح منذ اليوم الذي كشف عنه وعرف مخططه عملاً فريداً من أجل إمدادنا بالمعلومات الهندسية البنائية لكل منطقة الفرات والعراق»... هذا ما وصفه أحد المهندسين الآثاريين، لأن قصر ماري الملكي لم يكن بالقصر الصغير المبني ليكون قصراً دفاعياً فحسب، بل كان من السعة ما يجعله أشبه بالمدينة الصغيرة التي تحوي كل متطلبات الحياة، ويبرز الرونق الهندسي المدني الشرقي لبدء تاريخ الألف الثاني ق.م.

وكان لعامل الزمن وتأثيرات الطبيعة الصحراوية العاتية دور ملحوظ في زوال معالم كثيرة منه، فقد ضاع جزء كبير من أقسامه الجنوبية، واستطاعت الحفريات الآثارية خلال عملها الطويل أن تُظهرَ منه ٣٠٠ غرفة وممراً وباحة، وهذا الرقم يبدو عظيماً ويعطينا فكرة سليمة عن مدى اتساع أرجائه.

وقد وجد أثناء الكشف عنه بعض الجدران بحيث يبلغ ارتفاعها خمسة أمتار، وهذا يشير إلى عظمة البناء وارتفاعاته الباسقة بالنسبة لهذا العصر الموغل في القدم.

إن قصر ماري الملكي مقسم إلى أجزاء عديدة يتجمع كل قسم منها حول باحة واسعة سماوية تحيطها الغرف من جميع الجهات، وأحياناً نجد رواقاً بأعمدة يمتد حول الباحة بحيث تؤلف داراً مفصولة عن غيرها تقريباً لا يصلها بالدارات الأخرى سوى شارع أو ممر أو بوابة، وقد عينت كل داره لسكن خاص، فهناك جناح الملك ودارات العائلة المالكة، وسكن الحاشية ومستشاري الملك، والوزراء وكبار موظفي الدولة، وهناك سكن رجال الدين قرب معابدهم.

وقد عُثِرَ في ماري على رَقِيم يُعددُ وجوه أربعمائة رجل كانوا في خدمة القصر الملكي، ومن هذا العدد يمكن أخذ فكرة عن عدد ساكنيه، وعن كثرة داخليه كل يوم، وعن حركة ونشاطات وفعاليات الدولة.

وإذا تفحصنا مخطط القصر كمجموع نجد أنه يحتل مركز الوسط والصدارة في مساحة المدينة، وهو في مكان مرتفع عن سواه، والمخطط على شكل مربع تقريباً، وفي سوره عدة أبواب يدخل بواسطتها إلى الداخل، وكل باب مخصص لنوع خاص من الناس، ونجد أن أكثر الغرف والباحات والممرات والمداخل مرصوفة بالآجر، وإن الاتصال سهل بين الدارات، ويمكن للعربات والفرسان أن تسير بحرية في شوارع القصر.

أما مصارف المياه فهي على غاية من الانتظام بحيث تسير المياه المستعملة في أقنية إلى خارج المدينة، كذلك يُشاهدُ تأمين المياه النقية وإيصالها بواسطة أقنية فخارية توزعُ على دارات القصر وحدائقه ويشاهدان أكثر قاعات القصر وبصورة خاصة جناح الملك وقاعة المراسيم والتشريفات، وتزينها لوحات جدارية مصورة تمثل مشاهد ميثولوجية ودينية وطقوسية.

وأدناه لمحةٌ موجزةٌ عن أهم أقسام القصر وهي: المدخل الرئيسي، الحي الشرقي الذي يقع شرقي الباحة المركزية، الحي الغربي - غربي الباحة المركزية، جناح الاحتفالات والتشريفات حيث الاستقبالات الملكية، جناح الملك والملكة، قاعة العرش، الدارات الملكية، جناح المدارس التعليمية، دارة كبار موظفي الدولة والمستشارين، حي الموظفين، حي الأفران، حي المعامل والمخازن، حي الخدم والمطابخ.

لقد انتشرت شهرة قصر الملك «زمري ليم» في ماري حتى إن ملك أوغاريت ومن خلال مراسلاته نجده يريد أن يوسط ملك حلب لدى بلاط ماري ليسمح لبعض مهندسي أوغاريت للاطلاع على مخططات القصر لبناء واحد مماثل له في تل الشمرة على الساحل السوري، وهذا برهانٌ على مدى عظمة وفخامة هذا القصر.

والقصر الملكي في ماري يمكن أن يتخذ نموذجاً هندسياً لبناء البيوت والمدن في الشرق القديم من حيث المخطط العام، وانتظام الدارات، وتقاطع الشوارع، وإيصال المياه، وطريقة تصريفها، ووجود الحمامات وقيام المعابد، وقد سارت جميعُ شعوب المنطقة على هذا المنوال واقتبست الكثير من هذا المخطط وجعلته أساساً لبناء مدنها فيما بعد[1].

وفي تقرير أُولي عن حفريات موسم عام ١٩٧٩م في ماري، تم اكتشافُ جانبٍ هام من الهندسة المعمارية تعود لبداية الألف الثاني ق.م، ومجموعة من الرُقم الفخارية المكتوبة بالمسمارية ـ الأكادية ذات اللهجة المارية الغربية ـ نسبة إلى ماري ـ وهي تعكس تنظيمات المدينة في العصر الأموري في سورية وبلاد الرافدين عامة[2].

وتوجد في القصر الملكي مجموعة من الألواح الجدارية المرسومة وتُؤلفُ غالبيتها رغم تخريبها على كم هائل من الجداريات النفيسة وهي تمثل فن الرسم

---

(١) عدنان الجندي: الفن الأموري، إصدار المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، سلسلة تاريخ الفن في سورية، مكتبة أطلس ـ دمشق ـ لا توجد سنة الطباعة، ص١٩ ـ ٢٣.

(٢) جان مار غرون ـ تقرير أولي عن حفائر موسم عام ١٩٧٩م، في ماري: ص٩ ـ ٣٠، مجلة دراسات تاريخية ـ جامعة دمشق ـ العددان ٣٧، ٣٨ ـ أيلول وكانون الأول ـ دمشق عام١٩٩٠م، ص ١٧٢.

العموري من مرحلة الألف الثاني ق.م، وإن جميع اللوحات المكتشفة من القطع الصغيرة المتراكمة بين الأنقاض إلى الألواح المصورة التي وجدت على الجدران في القصر الملكي وهي تؤكد تظافر القيم الجمالية والإبداعية ووجود مناخ فني أدى إلى تفجر طاقات الفنانين الكامنة وتوظيفها في مسيرة تعزيز دور الفنون الجميلة في الحضارة والرقي.

لقد حظي الفنان الأموري بدعم من القصر الملكي في ماري وكان له حظوة مرموقة حفزته على التواصل في العمل الإبداعي وعلى العطاء أكثر فغدت جداريات ماري بانوراما خالدة تؤكد دور الفنان في بناء صرح المدينة والتطور الحضاري والإنساني.

إن مدرسة الفن المارية فاقت غيرها من مدارس الفن في تلك الحقبة، فقد أخذت عنها فيما بعد جميع مدن الفرات وسورية لأنها أقدم منها، ومن هنا تتأتى مكانة فن التصوير الأموري لمدينة ماري.

وإذا تفحصنا القطع الفنية التصويرية أمكن استخلاص اتجاهين متلازمين لفن التصوير، هما الاتجاه الواقعي الذي يسود جميع المشاهد في جميع فروع الفن في التصوير والنحت على الحجر والصدف وفي الرسوم الفخارية وحفر الأختام، والاتجاه الثاني هو الاتجاه الديني الذي يسيطر على جميع فروع الفن والواقع أن هذين الاتجاهين امتزجا معاً دون أن يطغى أحدهما على الآخر، ودون أن يخل بالتوازن بل سارا جنباً إلى جنب في جميع مراحلهما.

وفي دراسة حول فن الرسم الملون في ماري يؤكد الأستاذ (بارايز)، أن الرسوم التي تزين جدران إحدى صالات قصر ماري، تعد من أقدم الرسوم الفنية في العالم، وهي مرسومة على طبقة من الجبس وتحتها طبقة من الطين، وقد نفذ

الرسم بعد جفاف هاتين الطبقتين، وتجسد مشهداً دينياً يمثل الإله والملك بزي لا نجد فيه غرابة أمام الأزياء التقليدية في الوقت الحاضر، ورأس ثور ذو قرنين كبيرين، إضافة إلى الحاشية المرافقة[1].

وقد ترك لنا الفن الأموري آثاراً صدفية وعاجية استعملها بمهارة فائقة وذوق سليم، وقد كان يُؤتى بالصدف من شواطىء الخليج العربي ومن ضفاف نهري دجلة والفرات، فكثرة مادة الصدف وطبيعة تركيبه جعل الفنان يتعامل معه بسبب سهولة قطعه وتشذيبه بحرية.

ولقد ظلت صناعة العاج بصورة خاصة في العصر الآشوري، وبرزت بشكل واضح على الساحل السوري أكثر تطوراً، ومثال على ذلك رأس الشمرة في اللاذقية، وبجدو في كنعان، فقد وجدت مراكز هامة لهذه الصناعة أصبحت تصدرها إلى المدن الأخرى، ويمكن أن نطلق على هذه الصناعة اسم الصناعة السورية الفينيقية إذ وجدت قطع منها في عواصم ممالك آشور: مثل نينوى وخور سيباط.

ويعود فن استعمال الأختام الاسطوانية والدائرية إلى عهد بعيد في التاريخ الحضاري الإنساني، والحضارة الأمورية اختصت بهذا النوع من الفن كبقية مدن الرافدين والشام، وقد استقى الفنان الأموري مواضيعه من الأدب والأساطير ومن القصص والملاحم الشعبية مجسداً إياها على شكل صور غاية في الدقة والروعة.

---

(١) بارابر: الرسوم الملونة المزاحة من مكانها في الصالة ١٠٦ من قصر ماري، نظرة جديدة، ص٣١ ـ ٧٨.

«إن ماري تعتبر أقدم موقع أعطى لسورية أكبر مجموعة من الأختام وطبعاتها، وقد كونت فكرة عن حضارة سورية المبكرة وأعطتها هوية ذات شخصية متميزة عن سومر وأكاد ونلحظ ذلك في اكتشافات لاحقة في (تل الخويرة) و(إيبلا)، مما يثبت أصالة الفن التصويري النحتي القديم في سورية»[1]، وتُعد دراسة بيير اميه تطويراً لهذا الفكرة من خلال العودة إلى منقوشات ومنحوتات ماري التي تعود إلى الألف الثالث ق.م، ونجد فيها تقديماً مصوراً لمعظم هذه الأختام والنقوش[2].

أما على صعيد المنحوتات فقد ظهرت في ماري تماثيل فيها الاتجاه الواقعي إذ يلاحظ اقتراب النحت من الأصل المراد بمرونة خطوطه المحددة له بلباسه بتناسب أعضاء الجسم فيما بينها، إضافة إلى اللمسات التي أوجدها الفنان في تمثاله مثل مظهر الوداعة والبشاشة التي اختصت بها تماثيل ماري، والنظرة البعيدة التي تعبر عن التأملات والابتهالات الدينية والأمل المشرق، وكان لهذه التماثيل أماكنها الخاصة إلى جانب تمثال الإله في المعبد حيث توضع على مصاطب عُمِلَتْ خصيصاً لتستقبل الهدايا من التماثيل.

ومادة التمثال هي الحجر وخاصة الالباستر أو الباتر، وهو نوع من الحجر الرخامي الأبيض وحجر الديوريت الأسود، وقد انتشر هذا في مدن العراق القديم أكثر من ماري، وكان يُؤتى بالحجر من جهات بعيدة نائية لخلو منطقة الأنهر منها، أما اللباس فهو من الطراز المسمى (كوناكس) ذي الصفوف المطبقة واللسانات المتدنية.

---

(١) بيير اميه: أختام ماري (مُلاحظات ونقد)، ص٤٧٥ - ٤٨٥.

(٢) د. فيصل عبد الله: قراءة في خمسة مجلدات عن ماري - مجلة دراسات تاريخية، جامعة دمشق، العددان ٣٧، ٣٨، أيلول، كانون الأول، دمشق عام ١٩٩٠م، ص١٨٧.

ومن أبرز تماثيل ماري تمثال «آلهة الينبوع» الموجود في متحف حلب المتمثل بإمرأة واقفة ترتدي ثوباً طويلاً متموجاً يشير إلى تموجات المياه التي تتدلى منه بعض الخطوط المتموجة أيضاً، ترمز إلى مجاري الأنهر، ويشاهد عليها رسم بعض السمكات وتُمسِكُ بيديها إناءً تتفجرُ منه المياه رمزاً للحياة والخصب، ويظهر على وجهها تعابير العظمة والسمو والسيادة، وتضع على رأسها قلنسوة تنتهي بإطار مبروم يحيط بها، ربما يرمز إلى القرون.

لقد عُرفتْ ربة الينبوع منذ العهد السومري، وكان لها منزلة مرموقة بين الشعوب القديمة في الغرب ونقلت عنهم إلى أماكن أخرى، ويشاهد هذا الموضوع أيضاً على صفائح العاج العائد إلى ما قبل امبراطورية أكاد، وعلى كثير من الأختام الاسطوانية الآكادية والأمورية، وعلى بعض تمائم سلالة أور الثالثة التي أسسها «أورنمو» والتي يطلق عليها بالعهد السومري الجديد أو عهد الانبعاث والإحياء السومري، لكن مدينة ماري خلدت أسطورة ربة الينبوع بتمثال متفرد في تميزه عن كل مجموعات النحت الأموري.

وتُعتبرُ تماثيل «أُورنينا» و«إيكو شماغان»، و«ربة الينبوع» مثالاً يمكن من خلاله دراسة تماثيل المجموعة الأمورية كافة، حيث نجد أن أكثر تماثيل هذه المجموعة معروضة في المتحف الوطني بدمشق وفي متحف حلب[١].

٥- سياسة ماري :

تبوأت ماري أهمية استراتيجية كموقع هام على نهر الفرات في النصف الثاني من الألف الثاني ق.م، وبخاصة إبان النزاع بين أكاد وإيبلا، وقد تعاقبت

(١) عدنان الجندي: الفن الأموري، مرجع سبق ذكره، ص: ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٨

على ماري نفس الأدوار التي مرت على بلاد الرافدين، فبعد عصر أكاد حكمها ملوك سلالة أور الثالثة خلال القرن الحادي والعشرين ق.م، وقد دخلت تحت نفوذ «شمسي ادد الأول Shamshi adad I»، ملك آشور، وقد ازدهرت ماري في عهد ملكها «يخدن كيم» الذي كان لَقَبُهُ «ملك ماري وبلاد حانه»، وكان نفوذهُ يمتدُّ من البليخ إلى عانة على نهر الفرات داخل الأراضي العراقية، وقد كانت لهذا الملك مطامع بعيدة أوصلته في إحدى حملاته إلى البحر المتوسط.

ويُعتبرُ «زمري ليم Zemri lim» آخر مُلوك ماري، حيثُ حَكَمَ في القرن الثامن عشر ق.م، وقد عمل على توسيع القصر الملكي الذي بناه أسلافه، ويُعتبرُ الكشف عن أساس هذا القصر ـ الذي تحدثنا عنه في الموضوع السابق حول آثار ماري ـ من أعظم المنجزات التي حققها علم الآثار، فهوي قدم لنا صورة ناصعة عن دول سورية القديمة خلال الألف الثاني ق.م، وعن نظم الدول والعلاقات السياسية فيما بينها.

إن وقوع ماري على طريق المواصلات ما بين بابل والبحر المتوسط، وما بين الأناضول وآسيا الصغرى من جهة، وبلاد الرافدين والخليج العربي من جهة أخرى جعلها معرضة لعدة مؤثرات انعكست على السياسة الدولية، وخاصة مسألة إعادة فتح طريق الفرات لغرض التجارة بين البحر المتوسط والخليج، وتحتل ماري موقعاً استراتيجياً في هذا المجال، وقد كان سعي الدول الأمورية في سورية إلى إبعاد سيطرة نينوى، وتعزيز التحالفات المعقودة بين حلب وقطنة وماري وبابل التي لها نفوذ في الطرق المؤدية إلى الخليج مثل دلمون وماجان، ومن شأنه تشجيع عملية التبادل التجاري لما فيه مصلحة كافة الأطراف، وبطبيعة الحال كان لماري المصلحة الأساسية في هذا المجال لأن هذه المملكة تمتد أراضيها على طول الفرات وعلى طول مجرى الخابور، وليس لها امتداد جغرافي أبعد من

ضفتي النهر، لكنها تحتل موقعاً مهماً من الناحية الاستراتيجية، بحكم موقعها بين الدول الرافدينية ودول الشام، وما كان ينعكس منه من ترتيبات ومؤامرات سياسية ومناورات دبلوماسية ومغامرات أودت باستقلال ماري في نهاية المطاف، فالموقف المضاد في أشنونة الواقعة قرب نهر ديالى في بلاد الرافدين لم ينحسر، والدويلات التابعة لماري أخذت تعمل على التخلص من التبعية إلى زمري ليم مما اضطره إلى قمع الثورات بالقوة، لكن كان للاضطرابات السياسية نتائج خطيرة كان من بينها تزايد هجمات البدو على وادي الفرات، وهي ظاهرة دائمة لكنها أصبحت أكثر وضوحاً في تلك الحقبة وكانت موضوعاً للتقارير الرسمية التي عُثِرَ على جزءٍ كبيرٍ منها في محفوظات ماري الملكية، وهي تقارير تناولها الباحثون بالبحث والدراسة.

وبعد أن سيطر حمورابي الملك السادس لسلالة بابل الأولى على كل أرجاء بلاد الرافدين بعد تغلبه على أشنونة، نشب نزاع بين بابل وماري وانتهى باحتلال المدينة ثم تدميرها في أواسط القرن الثامن عشر ق.م، وعندما انتشرت الموجات الآرامية في المنطقة اندمجت العناصر الأمورية القديمة بالعناصر الآرامية[1].

٦- الناحية الثقافية :

برزت بوضوح أهم ملامح الوحدة الثقافية الحضارية اللغوية في امبراطورية ماري رغم انقسام العالم الأموري، فعلى امتداد البلاد بين الفرات والنيل وعرضها، كانت هناك لغة مشتركة للتفاهم والمخاطبة، أما اللغة المشتركة فهي

(١) د. محمد حرب فرزات: مرجع سبق ذكره، ص: ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٣٢.

الأكادية والأمورية التي استخدمت في ماري وبابل وآشور ونينوى ويمحاض والالاخ وقطنة وفي دويلات فلسطين وبلاط الفرعون المصري، حيث تبدو وثائق تل العمارنة شاهداً عليها، ومثال على التنوع داخل الوحدة الاستعارات السومرية الأكادية حيث يقول هنري فرانكفورت: «إن أهل ماري ــ وهم ساميون ـ قد أصبحوا سومريين حتى النهاية، والذين اعتمدوا الكتابة السومرية، نقشوا على تماثيلهم باللغة الأكادية»[1].

إن هذه اللغة المشتركة التي انتشرت في كافة أنحاء سورية وتم التخاطب بها، لها جذورها الكنعانية وما قبل الأمورية في إيبلا على سبيل المثال، كما أنها ترتبط بمرحلة لغوية هي المرحلة الآرامية التي تلتها، وطبعت منطقة الشرق القديم بطابعها، وكانت تمهيداً تاريخياً وقاعدة أساسية لانتصار اللغة العربية النهائي بعد ذلك بعدة قرون[2].

ومن مظاهر الثقافة القيم الجمالية والفنية التي ازدهرت إبَّان عصر ماري بحيث شكلت ـ كما ذكرنا في مبحث قصر زمري ليم ـ إحدى المدارس المهمة في تاريخ الشرق القديم التي تؤكد ازدهار الحضارة ورقيها.

ونشير بهذا الصدد إلى الملاحم الأدبية التي جسدها فن نحت الأختام، وقد عُثِرَ على ختم أسطواني يُمثلُ مشهد كلكامش، والفكرة مأخوذة من أسطورة ملحمية أدبية معروفة في تاريخ الآداب القديمة، وهي ملحمة الانبعاث[3] والثورة

(١) هنري فرانكفورت وآخرون: ما قبل الفلسفة، ترجمة: جبر إبراهيم جبرا، مكتبة الحياة ــ بغداد (لا توجد سنة طباعة الطبعة المترجمة).

(٢) د. محمد حرب فرزات: مرجع سبق ذكره، ص١٣٥.

(٣) عبد الحكيم الذنون: كلكامش.. الإنسان والخلود، مؤسسة المنارة ـ بيروت، عام ١٩٩٦م.

على الموت، وتعبر هذه الملحمة من النتاجات الأدبية الشهيرة في العراق القديم، وهي درة الأدب في الشرق القديم، وقد جسد الفنان الأموري من خلال نقشه للختم الاسطواني الأحداث الميثولوجية لملحمة كلكامش الرافدينية بأسلوب من البراعة والدقة.

وقد أسفرت التنقيبات الآثارية في (تل الحريري) عن عددٍ هائل جداً من الوثائق الكتابية التي تفصح عن المدى بالغ الشأن الذي بلغته حضارة ماري في مجالات عديدة أهمها الفكر والأدب والفن واللغة، ويعتبر أرشيف ماري الملكي من دوائر المحفوظات الهامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم.

٧ـ الناحية الدينية :

من أولى الملاحظات التي يسجلها المرء في الحياة الدينية القديمة في ماري هو تقديم الأضاحي من الخِراف، وهذا التقليد ما زال قائماً في حياتنا الدينية، و لم يتغير مع تغير المعتقدات وتطورها.

وتُقدمُ لنا نصوص ماري أسماء أكثر من ٢٥ اسماً إلهياً مقدساً، أهمها: شمش (إله الشمس) ـ سين (الإله القمر)، ادد (إله الرعد والمطر) ـ عشتار (الربة الأم) ـ أيا ـ نينخور ساج، وهناك عشرات الأسماء الدينية الأخرى التي تعكس بمعانيها فكر الإنسان ومخاوفه وتطلعاته وآماله.

وهناك ملاحظة هامة في أن إله أية مدينة قد يعبد في مدينة أخرى بغض النظر عن الاختلاف والتباين والتناحر السياسي، ففي دولة ماري تعتبر كافة الآلهة مقدسة، وإن جميع الناس يقدمون لها الأضاحي والقرابين والابتهالات، و لم يبدأ تميز إله على بقية الآلهة، وبالتالي فإن بروز مجموعة بشرية ومحاولة تفضيلها

على أخرى إلا في غضون أواخر الألف الثاني ق.م، وهو الوقت الذي يُفترضُ أن فيه ظهرت فكرة التوحيد عن أتباع موسى في مصر القديمة قبل الخروج إلى بلاد كنعان.

والجدير بالملاحظة أن الأضاحي تُؤكل بعد ذبحها في سومر وأكاد في بلاد الرافدين، في حين تحرق عند الكنعانيين، وبهذا المعنى فإن تواصل العادات والتقاليد لن تنقطع في المجتمع.

إن بانثيون ماري الديني ـ أي مجمع الآلهة في ماري يضم أسماء آلهة من مختلف مناطق شمال بلاد الشام، وهي بلا شك متأثرة بالثقافة السومرية بشكل واضح بفضل قيام السومريين باختراع الكتابة لأول مرة في تاريخ البشرية.

لقد كان مجمع المدن السورية الشمالية بشكل عام منظماً ومعروفاً في كل مدينة من المدن، إذ أن لكل منها إله رئيسي وإلى جانبه مجمع، وتعكس لنا ترتيب هذه المجتمعات الدينية وطقوسها مسألة التواصل الثقافي والروحي بين سومر وسورية في تلك الحقبة، ويتجلى ذلك في أسماء آلهة سومرية في معابد سورية القديمة، والعكس صحيح أيضاً، ولهذا فإن أي حديث عن مجمع ديني في سورية أو بلاد الرافدين لا يكتمل ما لم نتطرق إلى الجانب الآخر[1].

وقد انتشرت المعابد في أرجاء مملكة ماري، وملاحظة هامة نوردها بهذا السياق، وهي ضمن المشكلات التي يطرحها فن العمارة الديني أي فن بناء المعابد، تتعلق بعدم وجود مثال كامل نستطيع فيه التميز بين فن عمارة سوري وآخر رافديني، ورغم هذا فإن معبداً من الطراز الذي وجد في ماري وهو معبد

---

(١) ويلفرد جورج لامبرت Lambert, wilfred. G: مُجمع ماري الديني، ص٥٢٥ ـ ٥٣٩.

(دجن) العائد إلى فترة ما قبل سرجون الأكادي، له ما يقابله بالشكل في سورية في منطقتي رأس الشمرة والالاخ، ولا يمكن تحديد استقلالية تامة عن بلاد الرافدين في مجال البناء الديني في ماري، وإذا أردنا البحث في هذه الاستقلالية علينا العودة إلى معابد سورية الوسطى والغربية[1].

وقد انتشرت عبادة الربة عشتار في بلاد الشام حيث وصلت إلى أوغاريت خاصةً، ومنطقة الساحل السوري عامةً، وتظهر في النصوص المكتشفة حديثاً إلى جانب (ايل ـ إله)، وبعل Baal، فهذه الآلهة العراقية ـ أي عشتار Ashtar ـــ التي سُميتْ فيما بعد (إشتار Ishtar)، وقد عُرِفَتْ في ماري تحت اسم سومري (d) MUS. ZA. Za، وهي اشتار ـــ عَتّارت Attart أو عشتارت ـــ إتاروت Ittart المؤنثة في مجمع أوغاريت الديني.

وهكذا نستطيع التأكيد بأن الأفكار والعبادات كانت تنتقل من بلاد الرافدين إلى سورية وسواحلها، ومنها كانت تنتقل إلى عالم بحر إيجة منذ فجر حضارته المتأخر قياساً إلى العراق وبلاد الشام.

وعُثِرَ في ماري على نص مسماري كتبه كُهان المعابد في ماري، وكان أكبرهم على ما يبدو يحمل اسم (نبو) أي (نبي)، وهذا النبو أو النبي هو الذي يرى ويكتب رؤياه للملوك والخاصة، والنص هو رؤيا (النبو) التي نقلتها (شبتو) وهي ابنة ملك حلب (ياريم ليم Yarim lim) وزوجة زمري ليم ملك ماري، إلى زوجها الغائب في المعارك لكي تطمئنه أن الإله وملائكته مصممون على حماية مدينة ماري وأن أحداً لا يستطيع المساس بها.

---

(١) مارغورن Margorn: بعض الملاحظات عن معابد ماري، ص٤٨٧ ـ ٥٠٧.

وتعكس هذه الرؤية التي يعود تاريخها لأكثر من أربعة آلاف سنة على الأقل، جانباً من الفكر الديني الذي انتقل فيما بعد إلى الأدبيات التوحيدية، وهي حماية الإله للبشر ومُدنهم، ووعده بذلك وعداً أكيداً، فالوعد الإلهي يُحققُ الطمأنينة في نفس البشر قديماً، وهو ليس إلا محاولة لخلق توازن نفسي بين الإنسان والصعوبات التي تواجهه في معترك الحياة، وهو لا يعني ـ أي الوعد الإلهي ـ حقاً في التملك أو الاحتلال كما تقول أسفار التوراة.

٨ـ ماري ونقد التوراة :

وحول ما تنسبه التوراة إليها من معطيات عمورية نورد الملاحظات التالية:

١ ـ التوراة لم تذكر اسم ماري.

٢ ـ نجد في نصوص ماري اسم مدينة تقع على نهر الأردن وهي حاصور Hasura.

٣ ـ اهتمام المختصين بالدراسات التوراتية اقتصر فقط على دراسة مسائل النبوة والتنبؤ التي تطرقت إليها بعض نصوص ووثائق تل الحريري، وكذلك قصة الوعد ليظهروا أن الوعد ذو رمز إلهي موجود في التراث الحضاري للمنطقة العربية منذ أقدم العصور، والوعد الإلهي لا يمكن أن يكون وثيقة تملك كما تدّعي التوراة.

٤ ـ تذكر نصوص ماري مدينة حران وناحور في أعلى الرافدين دجلة والفرات، وهي مدن ذكرت في نصوص التوراة على أنها من أصول إبراهيم الخليل، ولكن لا يوجد أي شاهد يؤكد مسألة «الأصولية» هذه، لأن إبراهيم الخليل هو من مواليد منطقة أور «تل المقير» جنوبي العراق، وهو آرامي الأصل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥ - وجود تواصل لغوي وخاصة على مستوى الأسماء، في بعض الأسماء الواردة في التوراة ومثيلاتها في ماري، وهذا أمر طبيعي وموجود حتى في أسماء الوقت الحاضر، وكذلك في كثير من الأسماء والأفعال في اللغة العبرية كما هو الحال في اللغة العربية.

٦ - نلمس على المستوى الاجتماعي وجود تقابل دائم بين بدو متنقلين، وحضر مستقرين، وهي ظاهرة موجودة في التوراة ونصوص ماري والقرآن الكريم فيما بعد.

٧ - ظهور النبوة في وقت مبكر في ماري، كما أن المعجزات لم تكن متوقفة على الكهنة والأنبياء، بل يمكن أن تحدث مع أناس عاديين كما في أمثلة من نصوص ماري.

أما نقد طريقة التقرب من دراسات التوراة، ومعطيات النصوص القديمة كماري وغيرها فهي:

١ - أن جميع المعطيات التي تدل على أحداث التوراة التقليدية تدل بشكل غير مباشر أن أقدمها لا يعود لأبعد من الفترة الأمورية - عصر ماري وما قبل -، وأنه ما من باحث يستطيع أن ينفي أو يؤكد بشكل قاطع صحة هذا الاستنتاج.

٢ - عقب كل اكتشاف هام لنصوص مسمارية وغيرها في مواقع تاريخية في المنطقة، نجد سعي التوراتيين الحثيث لإيجاد معطيات توراتية لأسباب معروفة وهي إثبات قدم التراث التوراتي على غيره، وإن مثل هذه المحاولات التي يمكن أن تسمى «مركزية الثقافة التوراتية» التي يغامر من خلالها بعض المختصين بخيالاتهم فقط التي تسيء إلى منهجية البحث العلمي وتؤدي إلى نتائج مغلوطة.

٣ ـ الحذر هو ما يجب أن يلتزمه دارسو التوراة ومؤرخو النصوص المسمارية، فكل منهم يعمل في عالم مختلف جغرافياً ومنهجياً ومجال المقارنة ضيق جداً ومن وجهة النظر هذه فإن حران وناحور مذكورتان في النصوص المسمارية وموجودتان قبل تدوين التوراة في بابل بقرون طويلة، كما أن ذكر حاصور في نصوص ماري لا يعطي أحداث التوراة تاريخها في عهد كتابة نصوص ماري، بل بالعكس إن غياب اسم ماري وحاصور من التوراة يدل على حداثة هذا الأخير وقدم ماري وحاصور.

٤ ـ ليس من الضروري أن كل المجتمعات التي تجمع بين البدو والحضر يجب أن توضع في نفس المدة الزمنية، أي بجتمع التوراة القبلي ومقابلته مع ماري، وهكذا الحال بالنسبة لظاهرة النبوة، فليست النبوءة وقفاً على التوراة، بل نجد صور المشابهة في ماري، وليس بالضرورة أن تكون الأولى أصل الثانية أو العكس، وعلى سبيل المثال محاولة جعل زمري ليم ملك ماري نبياً لعصر عمون.

٥ ـ ليست اللغة العبرية الوحيدة والأقدم والمهيأة للدراسات المقارنة، فهناك الأوغاريتية والعربية ولهجات الجنوب التي أثبتت مكانتها في صدر العائلة اللغوية القديمة لبلاد الرافدين، وإذا كان لا بد من المقارنة مع لغة قريبة وقديمة في آن معاً فلا بد من العودة إلى الآرامية التي تغطي فترة الألف الأول ق.م، وتضم لهجة التوراة إلى جانبها، لأن التوراة كتبت في بابل في وقت انتشرت فيه الآرامية حتى سميت اللغة التي كُتِبَتْ بها التوراة بآرامية التوراة أو التوراة الآرامية.

٦ ـ يجب مقارنة نصوص ماري مع نصوص أوغاريت التي تقع في فترة الألف الثاني ق.م، وليس مع نصوص التوراة التي كتبت بعد منتصف الألف

الأول ق.م، ومع الآرامية القديمة في الألف الأول... إذن يجب أن تكون في هذه الحالة قريبة جداً من لهجة ماري لأنها استخدمت في الألف الثاني ق.م في منطقة ماري...

وفي ضوء ذلك يجب أن لا تخضع الدراسات المقارنة بين النصوص القديمة والعهد القديم (التوراة) إلى تضخيم يتعدى الواقع والحقيقة، وأن الدراسات المقارنة بين ماري وغيرها تحتاج إلى تحليل دقيق وينبغي مقارنتها مع المحيط الأقرب مثل إيبلا وأوغاريت وتل العمارنة.

٩ـ الناحية الاقتصادية :

عاشت ماري أقصى درجات ازدهارها في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م، وهي الفترة المعروفة لدينا بشكل أفضل من الفترات السابقة بسبب اكتشاف الأرشيف الملكي.

ويُضيء أرشيف ماري جوانب عديدة من حياة تلك المدينة، ومنها الجانب التجاري، ونعرف من خلال نصوص ذلك الأرشيف مدى امتداد العلاقات التجارية التي كانت تربط ماري بمدن ذلك العصر وبلدانه مثل: حاتوشا في الأناضول، وأوغاريت على الساحل السوري، وحاصور في شمال فلسطين، وديلمون في الخليج العربي، والأشيا (قبرص)، وكابتارو (كريت) في البحر المتوسط من مواد التجارة التي كانت ماري تستوردها أو تعبرها إلى بلاد بابل كالخمر الذي كان يستورد من سورية وبشكل خاص من مدينتي إيمار وكركميش، وينقل عبر الفرات بالسفن والأخشاب بأنواعها المختلفة كأخشاب الأرز والسرو والصنوبر، وزيوت هذه الأشجار ومنتجاتها وأحجار الجواريش.... كل ذلك كانت تصدره سورية إلى ماري وبلاد بابل، كذلك

كانت ماري تحصل على الخيول من كركميش وقطنة، وعلى زيت الزيتون من حلب، وأحياناً كانت الحبوب تجد طريقها من سهول سورية الشمالية إلى ماري، وكان النحاس يمر في طريقه من قبرص إلى ماري وبلاد بابل عبر المدن السورية، وكذلك منتجات جزيرة كريت المتوسطية.

ومن المواد التجارية المهمة في ذلك العصر القصدير الذي كان يصل ماري عبر آشور من شمال غرب إيران، وكانت ماري تسد حاجتها من ذلك المعدن، ومن ثم تصدر كميات كبيرة منه إلى البلدان والمدن السورية المختلفة مثل كركميش، حلب، قطنة، أوغاريت، حاصور، ومن المحتمل أن القصدير المصدر من ماري كان يصل أيضاً إلى جزيرة كريت عن طريق أوغاريت التي تعيد تصديره، وكان القصدير يستخدم في ذلك الوقت في صناعة البرونز وذلك بمزجه مع النحاس.

لقد كانت الطرق التجارية التي تربط سورية مع وادي الرافدين تمر عبر ماري، وأن أحد هذه الطرق كان يتجه إلى الشمال الغربي بمحاذاة الفرات حتى مسكنه (إيمار)، وبعدها ينعطف نحو الغرب إلى حلب، ومن ثم إلى ساحل المتوسط، وكان الطريق الثاني يخترق الصحراء العربية السورية ماراً عبر تدمر ليصل سهول حمص، ومن ثم سواحل المتوسط، أو يخرج من تدمر باتجاه الجنوب الغربي ماراً بالقريتين (نشالة) نحو منطقة دمشق ومنها إلى فلسطين، وكان الحمار وسيلة النقل الوحيدة في هذا العصر ويرد ذكره بكثرة في نصوص عديدة من ماري، وكانت ماري تجني أرباحاً من الكمارك التي تفرضها على السفن والقوافل التجارية التي تعبر أراضيها.

وتُبين لنا مجموعة من نصوص أرشيف ماري أن محطة لمراقبة المواصلات التجارية كانت قائمة على الفرات على الحدود الشمالية من مملكة ماري، وأن

مهمتها كانت جباية الرسوم والكمارك من السفن العابرة حسب حمولتها من البضائع وحسب نوعية تلك البضائع.

وإن محطات المراقبة والكمارك هذه لم تكن قائمة فقط في مملكة ماري، وإنما أيضاً في بلاد بابل، حيث تذكر إحدى الرسائل البابلية القديمة اسم محطة على الفرات تدعى (باصو Basu) ليست بعيدة عن تل أبو حبة (سبار) وبابل، وكان على السفن التي تعبر الفرات في تلك المنطقة أن تدفع رسوم وضرائب كمركية عن البضائع التي تنقلها، وهذه المحطة كانت تمارس نشاطها منذ عهد حمورابي على الأقل، وكان يدير تجارة القصر في ماري كما في بلاد بابل، موظف ملكي يُدعى بوكيل التجار ـ وكيل تامكاري ـ وكان مسؤولاً أيضاً عن جباية المكوس.

وتذكر لنا نصوص من أرشيف ماري عدداً من التجار، وتلقي الأضواء على نشاطاتهم وفعالياتهم التجارية المختلفة، وتبين بشكل واضح أنهم كانوا يقومون برحلات تجارية إلى المدن المختلفة مثل كركميش شمالي سورية وحاصور في فلسطين، كذلك تبين لنا تلك النصوص أن ماري كانت تجتذب تجاراً من مناطق متعددة من كركميش ومن إيمار كانوا يأتون إليها حاملين معهم منتجات بلادهم، من كل ذلك يتضح أن ماري كانت في تلك الحقب مركزاً تجارياً مزدهراً في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م، وإن ازدهارها التجاري مكن ملوكها من تمويل المشاريع العمرانية الضخمة مثل القصر الملكي.

الآراميون

♦ مرحلة الألف الأول ق.م :

١ ـ العرب الآراميون :

تُعتبر بادية الشام امتداداً جغرافياً لشبه جزيرة العرب التي هي الموطن الأساسي للعرب، وإن الموجات العربية البشرية المتتابعة خرجت منها واستقرت في بلاد الشام وبلاد الرافدين، ولعل تزايد سكان شبه الجزيرة العربية، وجفاف المناطق المختلفة من أهم الأسباب التي دفعت أولئك العرب القدماء إلى القيام بالهجرة الفردية أو الجماعية نحو المناطق الشمالية الأكثر خصباً في فترات زمنية مُتباعدة، حتى إذا ما انتهزت لها فرصة استقرت في منطقة خصبة حيث فيها الخصب الذي يُشكلُ عامل جذبٍ لأولئك العرب القدماء ويغريهم بالاستقرار بعدما اعتادوا على التنقل المستمر في البادية والاتصال الودي بسكانها.

وكان هذا ما حصل في النصف الأول من الألف الثانية ق.م، عندما خرجت قبائل الأخلامو والآراميين وغيرهم من شبه جزيرة العرب، وأخذت تنتقلُ في أطراف بادية الشام، وتغزو بين حين وآخر أراضٍ تابعة لمملكتي بابل ونينوى لأجل الاستقرار لممارسة الزراعة والتبادل التجاري والتخلي نهائياً عن حياة التنقل والبداوة.

وإذا كان الفشلُ نصيب محاولاتهم الأولى التي اضطرتهم إلى خوض حروب عديدة ضد الملوك الآشوريين، فإنهم استطاعوا تدريجياً الاستقرار في مناطق مختلفة من بلاد الشام، وأخذوا يستقبلون الأفواج الجديدة المهاجرة من شبه جزيرة العرب والمتنقلة في بادية الشام، وقد استطاعوا أن يصلوا جوار جرابلس

(كركميش)، بل وتمكن أحد زعمائهم المدعو (حدد أبال أدين) من الاستيلاء على بابل وحكمها في الفترة (١٠٨٣ - ١٠٦٠ سنة ق.م)، مما اضطر الآشوريين إلى الاعتراف بهم.

كما تمكن الآراميون من التغلب تدريجياً على الأموريين في حوض نهر العاصي الذي أسموه باللغة الآرامية (أورونت)، ثم قاموا بتشكيل مقاطعات إدارية عديدة تطابق تنظيماتهم القبلية الأولى، لكن هذه المناطق تحولت إلى ممالك آرامية تختلف فيما بينها من حيث أهميتها وقوة نفوذها وتأثيرها، وغدت هذه الممالك الآرامية الجديدة كطوق حصار حول الآشوريين الذين أصبحوا محرومين من منفذ لهم، وهكذا كان لمجيء العرب الآراميين إلى بلاد الشام واستقرارهم فيها أثر كبير في قلب الوضع الدولي عصرئذ في هذه المنطقة التي ظهر فيها الآراميون ليشكلوا قوة جديدة هامة وفعالة في تلك المرحلة[١].

ويقول أحمد داؤد في كتابه (تاريخ سورية القديم): «إن العرب في تلك الفترة كانوا ينقسمون من حيث نمط العيش إلى قسمين رئيسيين: مدنيين زراعيين، يشغلون منطقة الخليج العربي وأحواض الأنهار، والسهول الساحلية الخصيبة، وبدو رُحل يعيشون على الرعي والتنقل في عربة، أو مناطق شبه جزيرة العرب الداخلية، ولقد انقسمت اللغة العربية منذ ذلك الزمن الموغل في القِدم – كما صارت تدل على ذلك كل المكتشفات الآثارية الكتابية - إلا ثلاث لهجات رئيسية: عربية زراعية شرقية وهي السريانية، وقد شملت منطقة الخليج العربي والحوض الأدنى لدجلة والفرات الممتد من شمالي بابل إلى منطقة الخليج وفي

---

(١) بشير زهدي: دمشق في عهد قدماء العرب الآراميين، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، العدد ٥٩، السنة ١٥، نيسان عام ١٩٩٥م، ص١١٠ - ١١١.

جبال السراة، وعربية زراعيــة غربيـة وهـي العموريـة، وتشـمل حـوض الفـرات الأعلى والمنطقة الغربية كلها وصولاً إلى شـاطئ البحـر المتوسـط، وعربيـة شبه جزيرة العرب، وهي العربية العرباء أو العاربة أو النقية.

وإذا ما تتبعنا خط النسب بعد آدم إلى آرام، فإننا نلتقي بواحـد مـن أعظـم الآباء العرب وهو سوريان، أحد أحفاد آرام الذي أنجب أعظـم السـلالات الـتي حكمت بابل»[1].

ويقول المسعودي في «مروج الذهب»: «ذكـر أهـل العناية بأخبـار ملـوك العالم أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان، وقد تتوزع فيهم وفي النبـط، فمنهم من رأى أن السريانيين هم النبط، ومنهم من رأى أنهم إخوة لودماش بـن نبيط، ومنهم من أول من وضع التـاج علـى رأسـه وانقـادت لـه ملـوك الأرض، وكـان ملكـه سـت عشـرة سنة، باغيـاً في الأرض مفسـداً في الأرض، سـفاكاً للدماء»[2].

وحول بعض ملوك الآشوريين يقول المسعودي في مكان آخـر مـن (مـروج الذهب): «وكان أول من بنى هذه المدينة ـ نينوس ـ وسور سورها ملك عظيـم دانت له الملوك، ودانت له البلاد ويُقال له سينوس بن بالوش، فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة، وكان بالموصل ملك آخر محارب لهذا الملك، وكـان بينهمـا حروب ووقائع، ويقال أن ملك الموصل كان في ذلك العصر ـ سابق بن مالك ـ وهو رجل من اليمن، ثم ملك أهل نينوى عليهم بعـده إمـرأة يقـال لهـا ـ سمير أميس ـ فأقامت عليهم أربعين سنة، وملكها من شاطئ دجلة إلى بـلاد أرمينيـا،

(١) أحمد داوّد: تاريخ سورية القديم، ص ٥٧٨، ٥٧٩.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ـ الجزء الأول، ص ٢٠٧.

ومن بلاد أذربيجان إلى حد الجزيرة والجودي والبتيل، وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطاً وسريانيين، والجنس واحد واللغة واحدة، وإنما بان النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم والمقالة واحدة»[1].

«فالسريان حسب المصادر العربية هم آراميون أو من الآشوريون العرب، ومن المعروف أن الآراميين والآشوريين إخوة وكلاهما من أبناء سام بن نوح، فقد ولد سام: عيلام، وآرام، وأفخشاد، ولاوذ، وآشور»[2].

ويُمكنُ اعتبار تسمية (آرام)، تسمية جغرافية والمقصود بها الأراضي المرتفعة في المناطق الجبلية الشمالية، وإن مصطلح (آرام نهريم) يقصد به الأقسام الشمالية من نهري دجلة والفرات وبالتحديد نهر الفرات وفي المنطقة الواقعة بين منبع (البليخ) وحتى الفرات، وعرفت بمنطقة ما بين النهرين ومركزها (حران) جنوبي الأناضول، وأُطلقتْ تسمية (ميسوبوتاميا Mesopotamia) من قبل الإغريق، وكان أول من أطلق هذه التسمية على ما بين النهرين هو المؤرخ اليوناني (بوليبوس) (٢٠٢ - ١٢٠ سنة ق.م)، وقد شاع استعمال هذه التسمية بحيث أخذت تطلق فيما بعد وحتى الوقت الحاضر على كافة أنحاء وادي نهري دجلة والفرات من منبعهما حتى مصبهما في شط العرب الذي يصب بدوره في خليج العرب[3].

وأطلق الآشوريون تسمية (ارومو) و(ارامو)، على بلاد آرام وعلى سكان تلك المنطقة، «وكأن اسم آرام عُرِفَ منذ عهد الملك الأكادي نرام سين

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، الجزء الأول، مصدر سبق ذكره، ص٢٠٦.

(٢) أحمد داؤد: تاريخ سورية القديم، ص٥٨٠.

(٣) عبد الحكيم الذنون: اذاكرة الأولى، الجزء الأول، تاريخ العراق القديم، دار المعرفة - دمشق، ص١٣٨.

(٢٢٥٠ ق.م)» كما يقول موسكاتي في كتابة المرسوم: (الحضارة القديمة)، ولسنا نعتقد بأن آرام خامس أبناء سام بن نوح هو جد الآراميين، وأن تسمية الآراميين جاءت من هذا الجد المفترض.

ولقد كان هؤلاء السكان قد استقروا منذ الألف الثالث ق.م في هذه المنطقة فكانت لهم لهجتهم المتميزة التي حملت فيما بعد اسمهم، أما وجودهم السياسي فلم يتضح إلا بعد زوال الامبراطورية الأمورية أو بعد ضعف نفوذها وتقلص حجم رقعتها عام (١٥٠٠ ق.م)، إلا أن تواجدهم المستقر والمشترك أوضح حدود هذه البلاد التي أُطلق عليها في تلك الحقبة (بلاد آرام).

منذ ذلك الوقت تقريباً توسع الآراميون باتجاه الجنوب لكي يستولوا على كافة أرجاء المنطقة، أو لكي تظهر مدن وممالك تحمل اسمهم، ومن الممالك الآراميين: (آرام نهريم) أي آرام النهرين، و(فدان آرام)، ومملكة دمشق الآرامية (آرام دمشق) الممتدة من نهر الفرات حتى نهر اليرموك في الأردن، (وآرام صوبا) في البقاع، و(آرام بيت رحوب) عند نهر الليطاني، و(آرام مقلة) في مقاطعة تل القاضي (دان)، وجشور بين نهر اليرموك ودمشق، ومملكة (بيت أغوشي) في حماة وعاصمتها (أرفاد) التابعة إطلالها في (تل رفعة)، و(بيت بخيالي)، ومركزها تل حلف (جوزن) في شمالي سورية قرب منطقة رأس العين، وحلب، وكركميش (جرابلس)، وشمأل (زنجرلي) في تركيا، ومملكة (بيت عديني) في (بورسيبا) في العراق، ومملكة (زوحي) بين عانة على الفرات داخل حدود العراق ونهر البليخ شمالي سورية.

إن الآراميين لم يكونوا على مستوى واحد من الحضارة، فكان منهم أهل البداوة ومنهم أهل الحضر والمدن، ولقد عرفت بعض القبائل والعشائر التي كان لها دور تاريخي مثل (الأخلامو) (وهي تسمية وردت في الكتابات القديمة لجماعة

بدوية آرامية وجدت في شمالي شبه جزيرة العرب، وأصبح الأخلامو في العهد الأخير مرتبطين كلياً بالآراميين في صد الغزو الآشوري، ونظراً لشهرة هذه القبائل صار اسمها كثيراً ما يُطلق على كافة الآراميين، وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع «الأخلامو» وهم «الهبيرو» أو «العبيرو» أو «الخبيرو»، وهي كلمة كانت تطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب الجزء الشمالي من الجزيرة العربية أيضاً وقد انضمت إلى القبائل الآرامية، وصارت هذه الكلمة بعد أن صحفت إلى «عبري» و«عبراني»، تطلق على أتباع موسى بعد ظهورهم باعتبارهم من القبائل الرحل لكنهم لم يكونوا قد وجدوا بعد عندما كانت هذه الكلمة تستعمل لتعني البدو الرحل أو المهاجرين أو العابرين)[1].

إن بعض السمات المشتركة في «الخابيرو»، و«العبيرو»، و«الأخلامو» جعلت الباحثين لا يعرفون كيف يميزون فيما بينهم لأن هذه التسمية استخدمت بشكل فوضوي وعشوائي دونما أن تبذل أية محاولة حقيقية لفهم هذه الظاهرة ضمن نطاق التطور السياسي والاجتماعي ـ الاقتصادي في المنطقة في تلك الحقبة، ذلك لأن تسمية «الأخلامو» هي تسمية مرتبطة أساساً بالوجود الآرامي في المنطقة، وإن جميع هؤلاء هم من الآراميين البدو أو الفقراء أو الكادحين بوجه عام، ويتحركون في منطقة واحدة من شبه جزيرة العرب[2].

لقد وردت تسمية «أخلامو» أيضاً في رسائل «تل العمارنة» في القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، وكان المقصود بها أحلاف آرام، وقد امتد الآراميون بنفوذهم الاقتصادي إلى خارج حدود هذه المنطقة، وكان منهم بطون في العراق وسيناء وفلسطين، وانتشرت مع تجارتهم اللغة الآرامية حتى أصبحت

---

(١) د. أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، مرجع سبق ذكره، ص١٦٠،١٦١..

(٢) أحمد داؤد: مرجع سبق ذكره، ص٦١٨ ـ ٦١٩.

لغة رئيسية في بابل ونينوى ومصر وفلسطين وإيران، وكانت الآرامية لغة السيد المسيح، بل أن انتشار الآرامية أدى إلى إطلاق تسمية آراميين على جميع من يتكلمها من مصر حتى فارس وحدود بلاد الأرمن وبلاد الإغريق.

ولعل الالتحام القوي بين الآراميين والآشوريين في الألف الأول ق.م، وبين الآراميين والكلدان وبين هؤلاء والكنعانيين قد وسع رقعة البلاد الآرامية، ولا بد أن نشير إلى تحالف الآراميين مع بعضهم ضد الملك الآشوري شلمنصر (عام ٨٥٣ ق.م) وانتصارهم في معركة (قرقر).

وعندما هلك آخر أقوام الآراميين وهي (عاد)، و(ثمود)، أصبح اسم الآراميين (أرمان) وهي (آرام) وأضيف إليها (أن) في النهاية وهما حرف التعريف حسب الجنوب العربي، والأقوام البائدة وهي (عاد وثمود وطسم وجديس وأميم والعمالقة)، ولقد أُطلق عليها اسم العرب البائدة وكانت تحمل اسم العرب العاربة بمعنى الرساخة في العروبة كما يقول ابن خلدون، وهذا يعني أن الآراميين هم أصول العرب في الشمال، وكذلك الأموريين وبقاياهم العمالقة.

وقد انتهت الدولة الآرامية التي لم تكن مُوحدة سياسياً في (عام ٧٢٠ ق.م) على يد سرجون (شروكين) ملك نينوى، حيثُ قضى على مملكة حماه، وكان (تجلات بليسر الثالث) قد احتل دمشق (عام ٧٣٢ ق.م)، لكن النفوذ الآرامي استمر عن طريق نشوء الدولة الكلدانية في (عام ٦٢٥ ق.م) على يد (نبوبليسر)، وما زالت أكثر المدن السورية تحمل أسماء آرامية حتى الوقت الحالي، وقد أطلق على اللغة الآرامية اسم اللغة السريانية نظراً لأنها كانت لغة الآشوريين أيضاً[1].

---

(١) د. عفيف البهنسي: الشام.. الحضارة، منشورات وزارة الثقافة السورية ـ دمشق عام ١٩٨٦م، ص١٤-١٧.

٢- مملكة دمشق الآرامية :

تأسست دمشق قبل التاريخ أي قبل عصر الكتابة والتدوين، وكانت قبل عهود الآراميين أشبه بقرية صغيرة، وكان لها معبدها في مكان الجامع الأموي حالياً، وقد تجمعت حوله مساكن الناس الذين كانوا يشتغلون بالزراعة ويحرصون دائماً على خصب أرضهم والإفادة من خيراتها، ويقومون بتبادل محاصيلهم ومصنوعاتهم البدائية المختلفة قرب ذلك المعبد الذي اعتادوا التجمع فيه، وربما كانت طرق تلك القرية القديمة بدائية وغير مُنتظمة، لكنّها مع ذلك كانت تُؤدي وظيفتها لمرور الناس إلى معبدهم ومساكنهم ونقل محاصيلهم ومصنوعاتهم إلى الأماكن المختلفة، وقد تميز موقع دمشق بخصب أراضيه ووفرة مياههُ العذبة، ووجوده في مُفترق الطُرق التجارية، كما تميز هذا الموقع بإمكان التوسع فيما حوله، وتُؤكد الآثار المكتشفة في أرضية صحن جامع بني أمية على قدم تاريخ دمشق منذ الألف الثالث ق.م، وبعد مجيء قدماء العرب الآراميين إلى بلاد الشام، وقيامهم بتأسيس العديد من الممالك الآرامية على شكل دويلات في المدن وفشلهم في تأسيس امبراطورية مركزية كبيرة، استقر كثير منهم في دمشق مما أدى إلى اتساع رقعتها وزيادة عدد سكانها، وقد ازدادت أهميتها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، حيث غدت بلدة هامة تابعة لمملكة صوبا الآرامية التي تأسست في أواخر الألف الثانية ق.م من قبل العرب الآراميين.

وفي الفترة (١٠٢٩ ـ ٩٧٤ سنة ق.م) حيث تزايد نفوذ داؤد وقام بمحاولات يائسة لتوسيع أراضي «مملكته» على حساب أبناء البلاد الأصليين من قدماء العرب السوريين، تطالعنا الأحداث الواردة في كتب التاريخ حول ظهور القائد العربي الأرامي (رزون بن اليدع) الذي انفصل عن ملكه «حدد عزر»

ملك صوبا، ومجيئه إلى دمشق التي أسس فيها مملكته العربية الآرامية الشهيرة ذات الآفاق القومية والحضارية، وقد كان هذا القائد العربي الآرامي (رزون بن اليدع) مصدر قلق لسليمان بن داؤد طوال حياته لأنه كان ذو تطلع قومي لإرساء دعائم دولة آرامية في دمشق تؤكد النهج العربي الذي يشكل سمة مميزة لبلاد الشام والمنطقة العربية برمتها، من أجل وحدتها السياسية والحضارية، وتصدياً لأطماع ومزاعم كيان «إسرائيل» القديم.

لقد تميز القائد (رزون بن اليدع) بالحيوية والشباب والطموح والرغبة في الإصلاح والتطوير في فترة أصاب مملكة صوبا الضعف في عهد ملكها (حدد عزر بن رحوب) الذي تقدمت به السن وفشل في دعم وإسناد الممالك الآرامية الأخرى وحمايتها من أطماع «داؤد»، مما جعل (رزون بن اليدع) يؤسس في دمشق مملكة مستقلة ويُنصب نفسه ملكاً عليها، وقد انصرف إلى القيام بعدة نشاطات وفعاليات على مختلف الأصعدة والمجالات، فقد زاد من أهمية مملكة دمشق الآرامية وقوتها الحربية وذلك بحسن الإفادة من إمكاناتها الاقتصادية.

وفي عهده صار لدولة دمشق الآرامية الجديدة من القوة الحربية ما جعلها تفرض احترامها على الآخرين وتُسيطرُ على بقية جيرانها العرب الآراميين، وتقف سداً قوياً أمام مشاريع توسع الآشوريين وتقض مضاجع كيان بني إسرائيل، وبذلك غدت دمشق زعيمة الدول الآرامية في المنطقة، ووصف ملكها نفسه باسم ملك آرام، وقد كان لتزايد قوة مملكة دمشق أثرٌ كبيرٌ في تحقيق مشروعها المتضمن تحالف الدول الآرامية لصد كل عدوان خارجي، وفي الوقت الذي كان فيه (آشور دان الثاني) ملك آشور (٩٣٢ ـ ٩١٢ سنة ق.م)، يُحارب القبائل العديدة قرب مناطق هذه المملكة، وفي جهة الشمال الغربي منها، كان يتجنب الدخول في نزاع مع مملكة دمشق الآرامية.

لقد أصبحت دمشق في عهد (رزون بن اليدع) مركزاً سياسياً وثقافياً وحربياً هاماً، كما غدت ذات أهمية صناعية وزراعية وتجارية، فكانت محطة هامة من محطات طرق التجارة الداخلية والعالمية، حيث كانت القوافل المختلفة الآتية من أرمينيا ونينوى وبابل وصور ومصر والمغرب وغيرها، وإليها تنطلق من دمشق إلى كافة أنحاء العالم القديم.

وازدادت أهمية دمشق الروحية والدينية بالاهتمام بتشييد معبد رب المطر (حدد) الذي حافظ على أهميته الكبيرة عبر الحقب اللاحقة، وشهد هذا المعبد الآرامي الفعاليات الروحية والنواميس الدينية حتى أواخر أيام التاريخ الوثني والميثولوجيا الآرامية.

وبعد وفاة (رزون بن اليدع)، اعتلى عرش مملكة دمشق الآرامية ابنه (حزيون بن رزون) الذي أخذ على عاتقه استكمال مشاريع والده، حيث قام بمتابعة سياسة أبيه في مجالات العمران والاقتصاد والدفاع وغير ذلك، واستمر في الحرص على تعزيز قوة دمشق لجعلها موقعاً هاماً في المنطقة في وقت ازدادت فيه ضراوة حروب الآشوريين ضد الملوك الآراميين في الشام.

وبعد وفاة (حزيون) اعتلى عرش مملكة دمشق الآرامية ابنه (طاب ريمون)، وكانت دمشق قد أخذت تتمتعُ بمركزٍ حربي قوي وأهمية دولية متميزة، مما جعل العبريين يستنجدون بملك دمشق، ويطلب كل منهم تأييده للقضاء على خصمه ومنافسه، كما كانوا يتسابقون لعقد المعاهدات معه في سبيل توطيد حكمهم الضعيف ودعم مركزهم المُهتز، وكان الآشوريون في تلك الحقبة يخوضون المعارك ضد الملوك الآراميين الضعفاء الذين استقروا في منطقة حوض نهر دجلة حيث سادها طابع حضاري آرامي.

وبعد وفاة (طاب ريمون) اعتلى العرش ابنه (برحدد الأول) حيث تعزز مركز مملكة دمشق الآرامية، وفي ذلك الوقت استمر الفريقان العبريان منذ وفاة سليمان (٩٧٠ ـ ٩٣٥ سنة ق.م)، يتقرب كل منهما من ملك دمشق لطلب المساندة والدعم للقضاء على خصمه، وبلغ الأمر بحاكم دويلة «يهوذا» المدعو «آسا» أن جمع كل ما كان في المعبد وخزائن «أمارته» من ذهب وفضة ووضعه بين يدي أعضاء وفده الذين أرسلهم إلى دمشق لتسليمه إلى ملكها (برحدد الأول).

لقد استطاع (برحدد الأول) أن يوسع رقعة مملكته، ويسترجع المدن الهامة، وجعل «جلعاد» الواقعة في شرقي نهر الأردن تحت سيطرته مما زاد في نفوذه، وكان تارة يبدو حليف (مملكة بيت آغوشب) التي كانت عاصمتها (أرفاد Arfad) القابعة أطلالها الآن في «تل رفعة» قرب حلب، وكان تارة أخرى مُنافساً، وقد عثر في قرية «البريج» الواقعة على بعد حوالي ٧٠ كم من حلب على نصب آرامي يعود إلى منتصف القرن التاسع ق.م، وقد نحت على هذا النصب مشهد الرب الفينيقي (ملقارت) مع كتابات آرامية.

إن الكتابة التي تضمنها النصب تؤكد العلاقات الودية بين دمشق ومدينة صور الفينيقية ومدن الساحل السوري، ورغبة الملك الآرامي (برحدد الأول) في تطور تلك العلاقات، وأن أسلوب نحت هذا النصب الهام يدل على فن محلي، علاوة على ذلك أن وصول ملك دمشق (برحدد الثاني) إلى المناطق الشمالية قد تم وفقاً لسياسته الخارجية.

وكان خلاف ملك دمشق (برحدد الأول) مع العبريين ينحصر في منطقة الجليل وجلعاد، إضافة إلى ذلك رغبته في تأمين الأسواق التجارية له في مناطق الأردن وفلسطين، ويبدو أن نفوذ دمشق الكبير قد استمر على العبريين في عهد

ملكهم «عمري» (٨٨٦ ــ ٨٧٥ سنة ق.م)، والذي أصبحت فيه دويلته في أواخر أيام عهده تابعة لمملكة دمشق الآرامية بصورة اسمية.

وبعد وفاة (برحدد الأول) تولى الحكم ابنه (برحدد الثاني ــ أدد أدري)، الذي ورد اسمه في عدد من الوثائق التاريخية القديمة بأشكال مختلفة مثل «حدد عزر»، و«أدد أدري»، وفي (عام ٨٥٧ ق.م) اتجه (برحدد الثاني) ملك دمشق إلى فلسطين مع قوة حربية، وعندما وصل جيش (برحدد الثاني) إلى مدينة السامرة قام بمحاصرتها وطوق فيها خصمه «أخاب بن عمري» الذي لم يكن لديه جيش كبير لأن ملوك دمشق كانوا لا يسمحون بذلك، ثم اغتنم (أخاب) فرصة استراحة خصمه ملك دمشق (برحدد الثاني)، فأعد خطة غدر وقام بمهاجمتهم بغتة دون أن يكون الآراميين مستعدين للمواجهة مما أدى إلى هزيمة عسكرية آرامية، ثم أخذ (برحدد الثاني) يعد لمنازلة جديدة ضد العبرانيين الذين ألحقوا به هزيمة نكراء، فتقدم (برحدد الثاني) نحو هضبة الجولان، والتقى الجيشان في منطقة (فيق) وبدأت المعركة التي دامت سبعة أيام، حلت بعد ذلك نكسة وهزيمة جديدة في صفوف الآراميين، وقد حدث هذا في فترة بدأ فيها خطر الآشوريين يهدد هذين الفريقين المتحاربين الآراميين والعبريين اللذين وجدا من مصلحتهما عقد هدنة للاستعداد لقتال الآشوريين.

لقد كان ملك نينوى (شلمنصر الثالث ٨٥٩-٨٢٤ سنة ق.م)، قد خلف أباه (آشور ناصر بال الثاني ٨٨٤ ــ ٨٥٩ سنة ق.م)، وكان يتمتعُ بمواهب عسكرية، وكانت معاملته لأعدائه قاسية ضارية، ومنذ اعتلائه عرش امبراطورية نينوى، أعلن الحرب (عام ٨٥٨ ق.م) على مملكة (بيت عديني) الآرامية الواقعة في حوض نهر الفرات من مدينة (كركميش ــ جرابلس) حتى نهر البليخ، وكانت عاصمتها (تل برسيب ـ تل أحمر) على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وقد

استطاع أميرها الآرامي (أخوني بني عديني) أن يصمد تجاه الهجمات الآشورية في أعوام (٨٥٨، ٨٥٧، ٨٥٦ سنة ق.م)، لكن ملك نينوى قرر القضاء على هذه الدولة الآرامية التي تعيق التوسع الآشوري في المناطق الشمالية من سورية.

إزاء ذلك أسرع ملك دمشق (برحدد الثاني) فقام بتشكيل حلفٍ يضمُّ اثني عشر ملكاً، وقد تولى رئاسة الحلف وجهز جيشاً ضخماً ضم ١٢٠٠ عربة حربية، و١٢٠٠ مقاتلاً، و٢٠٠٠٠ مقاتل مشاة، وأسهم بقية الملوك المتحالفين معه في إعداد جيش قوي بلغ عدد أفراده ٦٠٠٠٠ جندي.

وقد اتجه الملوك المتحالفين بجيوشهم نحو الشمال، فالتقوا بجيش الملك الآشوري (شلمنصر الثالث) في موقع «قرقر» على نهر العاصي جنوبي جسر الشغور، فجرت معركة وصفها (شلمنصر الثالث) بكتابة جاء فيها: «... إن الغنائم من ملوك ما وراء الفرات، أي من سنجارا ملك كركميش، وكوانداشبي ملك شمأل.. كانت هذه الغنائم تتألف من فضة وذهب ورصاص ونحاس وأوانٍ نُحاسية حصلت عليها... في الجانب الثاني من نهر الفرات في مدينة يُسميها الحيثيون pitru غادرت منطقة الفرات، واقتربت من حلب، فكانوا خائفين من المعركة، فخروا على قدمي، فحصلت منهم على غنائم من فضة وذهب، وقدمت أضحية إلى حدد حلب ثم غادرت حلب، فاقتربت من مدينتي (بارجا)، و(عدينو) مدينتي ملك حماه (أرخوليني)، احتليت عاصمة (ارجنا)، وحصلت على غنيمة منه وأملاكه وأموال قصوره... ووضعت النار في قصوره، ثم غادرت (أرجنا) واقتربت من (قرقر)، هدمت (قرقر) عاصمته، وخربتها وحرقتها، وقضيت على ١٢٠٠ عربة حربية، و١٢٠٠ حصان، و٢٠٠٠٠ جندي من جنود (أدد أدري - برحدد الثاني) ملك دمشق، و٧٠٠ عربة حربية، و١٠٠٠٠ جندي من جنود (أخاب)، و٥٠٠ جندي من كيليكيا، و١٠٠٠٠

جنـدي مـن مصـر، و١٠ عربـات حربيـة، و١٠٠٠٠ جنـدي مـن قيـوي قويـن وكيليكيا، و٢٠٠ جندي من جنود ملك أرواد (مـاتينو بعـل)، و١٠٠٠٠ جمـل من العربي جندب..... هؤلاء الملوك الاثني عشر ساعده، ولخوض المعركة قـاموا ضدي... فقتلـتُ ١٤٠٠٠ مـن الجنـود بسـلاحهم، وأمطـرتُ عليهـم العاصفـة كالرب حدد، وبعثرتُ جثثهم، وملأتُ السهلَ بفرقهم القوية، وبالسلاح جعلت دماءهم تسيل.....».

وقد شعر (آخاب بن عمـري) بقوتـه الحربيـة إزاء حُلفائـه السـابقين وهمـا ملك دمشق وملك حماه، فانتهز الفرصة المُناسبة لانتزاع منطقة (راموت جلعـاد) في الأردن من ملك دمشق، وعندمـا تقـابل جيـشُ ملـكِ دمشـق دويلـة يهـوذا، احتدم القتال بين الفريقين، وقد استطاع أحد الجنـود أنْ يجـرح (آخـاب)، وقـد نقل (آخاب بن عمري) فوراً من ساحة المعركة إلى السامرة، وسيطر اليأس على جنوده فتركوا ساحة المعركة بعدما فشلوا في انتزاع منطقة (راموت جلعـاد) مـن ملك دمشق (برحدد الثاني)، والجدير بالذكر أنـه لم تمـض بضـع سـنوات حتـى قضي نهائياً على سلالة (عمري) على يد (جيهو ٨٤٢-٨١٤ سنة ق.م).

وبعـد وفـاة (برحـدد الثـاني) اعتلـى (حزائيـل) عـرش المملكـة الآراميـة في دمشق، وقد حدثت في عهده معركة أخـرى مـع الآشـوريين حـين جهـز الملـك الآشوري (شلمنصر الثالث) حملة حربيـة في (عـام ٨٤١ ق.م) أعدهـا ووصفهـا قائلاً: «في السنة الثانية عشر من حكمـي... اجـتزت الفـرات للمـرة السادسـة، فجهـز حزائيـل جيشـه وأعـده، فكـان جبـل صنـير بمثابـة حصـن لـه.. حاربتـه فهزمته... وقتلتُ ستة آلاف من جنوده المُسلحين، واستوليت على ١١٢١ عربة حربية، وأربعة وسبعين حصاناً ومعسكره في آن واحـد، فهـرب للنجـاة بنفسـه، فلحقت به، وحاصرته في عاصمته دمشق، وخربت الكروم، وسرتُ حتى جبـال

حوارن، وخُربت وحُرقت مُدنه التي لا تعد، وحصلتْ على غنائم كثيرة، وسرتُ إلى جبل باليراسي، فوضعتُ في هذا المكان صُورتي الملكية، وتلقيتُ في الوقتِ نفسه غنائم من الصوريين والصيداويين وجيهو.....».

إنَّ (شلمنصر الثالث) ملك آشور قد أخفق من جديد في سحق قوة مملكة دمشق الآرامية رغم تمكنه من زحفه من منطقة الفرات حتى مناطق الساحل السوري، ولم تمضِ سوى ثلاث سنوات على تلك المعركة حتى عاد من جديد فجهز جيشاً قوياً توجه به (عام ٨٣٨ ق.م) لقتال (حزائيل) ملك دمشق في حملة حربية وصفها قائلاً: «في السنة الحادية والعشرين من حكمي، اجتزت نهرَ الفرات وسرتُ إلى مدن (حزائيل) ملك دمشق... ففتحتُ أربعةً من مُدنه، وحصلتُ من الصوريين والصيداويين.... على غنائم....».

وبعد وفاة (حزائيل) اعتلى (برحدد الثالث) عرش مملكة دمشق الآرامية فتابع سياسة والده في تقوية الجيش الآرامي وسيادة مملكة دمشق واستمرار فرض الغرامة على العبريين في الجنوب، وإن كل ذلك أثار حقد الممالك الصغيرة والكبيرة على مملكة دمشق الآرامية المجاورة لهم، وعندما اعتلى (ذاكر) عرش مملكة حماه الآرامية، أخذ يتوسع على حساب أراضي الدول المجاورة، وقام بفتح (لعش) وأقام في عاصمتها (خزرك) مما أثار قلق الملوك الآخرين من تزايد قوته ونفوذه وفتوحاته وحملاته التوسعية التي قلبت مبدأ التوازن بين الدويلات الآرامية.

وقد شكل (برحدد الثالث بن حزائيل) حلفاً ضد (ذاكر) ملك حماه، وضم هذا الحلف الآرامي الجديد ستة عشر ملكاً قرروا قتال ملك حماه والتصدي لحملاته التوسعية التي يدعمها الآشوريون، ثم هاجمت جيوش الممالك الآرامية المتحالفة بزعامة ملك دمشق مدينة (خزرك) وطوقوا ملك حماه (ذاكر) فيها،

وقد اضطروا فيما بعد إلى رفع الحصار عن (خزرك) بسبب الخطر الآشوري الذي تجدد وتعاظم في عهد (أدد نيراري الثالث) ملك نينوى، الذي اهتم بقيادة الحملات الحربية الآشورية ضد الدول الآرامية المتحالفة، وقاد هذا العاهل الآشوري في (عام ٨٠٥ ق.م) حملة حربية ضد مدينة (أرباض) عاصمة مملكة (بيت آغوشي)، وضد (عزاز) (عام ٨٠٤ ق.م)، وضد (يعلي) (عام ٨٠٣ ق.م)، إضافة إلى حملة ضد مدن الساحل السوري (عام ٨٠٢ ق.م).

ويقول (أدد نيراري الثالث) ملك الآشوريين في كتابته: «... من ضفاف نهر الفرات، أخضعتُ بلاد خطي ـ سورية الشمالية ـ وعمور وكلها ـ سورية الوسطى ـ وصور، وصيدا، وبلاد عمري، وأدوم، وفلستيا حتى البحر غرباً، وفرضت عليها ضرائب وجزية، وسرت ضد دمشق، وحاصرت (مرئي برحدد الثالث) في عاصمته دمشق، فقتلهُ خوفه من غضب سيدي آشور، فخر عند قدمي، وحصلت على ٢٣٠٠ تالنت فضة، و٢٠ تالنت ذهب، و٢٠٠ تالنت نحاس، و٥٠٠٠ تالنت من الحديد، وأقمشة دمشقية مزكرشة، وأقمشة كتانية، وسرر عاجية، ومقاعد عاجية مزينة بالذهب ومطعمه بالأحجار الكريمة، وخزنته وأمواله بكميات كبيرة في عاصمته وسط قصره».

وهكذا تحملت دمشق ضربة قاسية وخسارة كبيرة لأنها كانت زعيمة الدويلات الآرامية المتحالفة ضد الآشوريين الذين كانوا يرومون السيطرة على بلاد الشام ومصر، وبعدما اعتلى عرش آشور (شلمنصر الرابع) (٧٨٢ ـ ٧٧٢ سنة ق.م)، اهتم بتوجيه ست حملات حربية ضد مملكة (أورارتو) التي كانت قد تزايدت قوتها الحربية حتى صارت تشكل خطراً على شمال بلاد الآشوريين، كما انصرف إلى توجيه حملة حربية إلى جبال الأمانوس (عام ٧٧٧ ق.م) وحملة أخرى ضد ملك دمشق (برحدد الثالث) في (عام ٧٧٣ ق.م).

وفي عهد الملك الآشوري (آشور دان الثالث ٧٧٢ ـ ٧٥٤ ق.م)، شهدت امبراطورية نينوى أزمات مختلفة أضعفت السلطة الملكية الآشورية في فترة تزايد الأخطار من كل مكان من جهة (أورارتو)، و(ميديا)، إضافة إلى أحداث الشغب والفتن الداخلية.

وكان من نتائج ضعف الامبراطورية الآشورية في عهد (أدد نيراري الرابع ٧٤٥ سنة ق.م)، اندلاع ثورة داخلية في بلاد نينوى وقلب نظام حكم (آشور نيراري الرابع)، وتسنم (تجلات بليسر الثالث) (٧٤٥ ــ ٧٢٧ ق.م) مقاليد الحكم في نينوى، وفي عهده اعتلى (رصين) عرش مملكة دمشق الآرامية الذي قام في (عام ٧٤٣ ق.م)، بشن حرب واسعة النطاق على مملكة (أورارتو) وحلفائها الآراميين وقد سقطت مملكة أرباض (عام ٧٤٠ ق.م) فصيرها (تجلات بليسر الثالث) مقاطعة آشورية، وبذلك استطاع ملك نينوى أن يمد نفوذه على مناطق واسعة جداً تمتد من أراضي كبادوكيا وكيليكيا في آسيا الصغرى حتى أراضي صور والجليل ودمشق وبقية المناطق العربية في بلاد الشام وجنوبها.

وقد بذل (رصين) ملك دمشق جهداً كبيراً لإحياء التحالف الآرامي، ثم اجتاح جيش الملك الآشوري (تجلات بليسر الثالث) ست عشرة مقاطعة من مقاطعات مملكة دمشق و٥٧١ مدينة من مدنها وأطرافها في (٧٣٣ ـ ٧٣٢ سنة ق.م)، اضطر ملك دمشق (رصين) بعد ذلك إلى الانسحاب إلى العاصمة دمشق فلحق به الملك الآشوري (تجلات بليسر الثالث) وحاصره فيها حصاراً محكماً بعدما قضى على غوطة دمشق ثم استولى على مقره الملكي في (عدرا).

وفي (عام ٧٣٢ ق.م) سقطت دمشق في أيدي القوات الآشورية بعدما ضاعفت قوات آشور من عدد هجماتها على أسوار دمشق، وقد دخل ملك نينوى (تجلات بليسر الثالث) مدينة دمشق دخول الفاتحين، فقتل ملكها

(رصين)، وقضى على استقلال دمشق ومكانتها الدولية[1]، علماً بأنه بقيت دمشق حتى أيامها الأخيرة تتطلع نحو تحقيق امبراطورية مركزية كبيرة تضم كل بلاد الشام على غرار الامبراطوريات المركزية الكبرى في بلاد الرافدين ومصر، إلا أن نينوى كانت تعتبر ذلك في عداد الحالات غير المسموح بها.

٣- الحضارة الآرامية في دمشق :

شهدت دمشق حضارة متميزة قامت على أُسس الحضارات السابقة مسهمة في تنمية النشاطات والفعاليات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي تأثرت بها فيما بعد الحضارات اللاحقة.

لقد ازدهرت في دمشق إبان عهد الآراميين، فنون العمارة العسكرية والدينية، فقد تجلت فنون العمارة العسكرية في بناء أسوار المدن وأبوابها وحصونها المنيعة، وتُؤكد نصوص نينوى بأن أسوار دمشق صمدت أمام هجمات جيوشها، وكان لأسوار مدن مملكة دمشق أبواباً قوية، فإضافة لكفاءتها إزاء مقاومة الهجمات العسكرية، كانت تستقبل القادمين إليها لأغراض سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو ثقافية.... وتودعهم، وكانت هذه الأبواب تؤدي إلى الطرق الدولية الممتدة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

وتبنى الآراميون عبادة (حدد) رب المطر والرعد والسيول لأن اقتصادهم مرتبط بالزراعة، وازدهار الزراعة مرتبط بكميات مياه الأمطار مما أدى إلى أن يتبوأ الرب (حدد) أهمية مقدسة ومتميزة، فبنى له الآراميون معبداً كبيراً شكل

---

(١) بشير زهدي: دمشق في عهود قدماء العرب الآراميين، مرجع سبق ذكره، ص١١ - ١٣٢.

نواة مدينة دمشق الآرامية، وربما كانت أهمية هذا المعبد لا تقل أهمية عن معبد أورشليم في عصر كانت فيه دمشق سيدة المنطقة وزعيمة الممالك الآرامية بدون منازع.

ولسنا ندري فيما إذا كان معبد حدد الآرامي الكبير قد حل محل معبد سابق أضفى على هذه المنطقة صفة القداسة، وجعل القوافل تقيم قربه وتنعم بما تتميز منطقته من مياه ونباتات وقدرات للتبادل التجاري وإقامة الأسواق مما أسهم في تشكيل أقدم تجمع بشري قرب المعبد.

لقد بقيت المعلومات حول معبد حدد الآرامي الكبير غاضمة حتى عام ١٩٤٩م حيث تم اكتشاف حجر بازلتي آرامي من مجموعة أحجار كانت تزين معبد حدد الكبير، نُقل إلى المتحف الوطني بدمشق يبلغ طوله ٨٠ سم، وارتفاعه ٧٠ سم، ويتراوح سمكه بين ٣١ - ٥١ سم، وقد نحت عليه مشهد (أبو الهول) يمشي إلى جهة اليسار، وله أجنحة مزدوجة، وذقن طويلة، ويعلو رأسه تاج مزدوج وسطح ذلك بأسلوب فني متأثر بالنمط الفينيقي والمصري، مما جعل علماء الآثار ومؤرخي الفن القديم يقارنونه بمشاهد مثيله تزين لوحات عاجية مُكتشفة في موقع (أرسلان طاش) عام ١٩٢٨م وكانت جزءاً من عرش ملوك دمشق الآراميين عليها اسم ملك دمشق (حزائيل).

والجدير بالذكر أن ملك دويلة «يهوذا» الذي أتى إلى دمشق (عام ٧٣٢ ق.م) ليركع أمام ملك نينوى، شاهد في هذه المناسبة في معبد حدد الكبير المذبح الجميل الذي أثار إعجابه، فوصفه للفنان (أوربه) طالباً منه استصناع مذبح مشابه يكون في معبد أورشليم.

وورد في كتابة (أدد نيراري الثالث) أنه حصل على غنائم من ملك دمشق (برحدد الثالث) في عاصمته وسط قصره، وإن كُنا لا نعلم شيئاً عن هذا القصر الملكي الآرامي الذي كان موقعه رُبما قريباً من معبد حدد، وربما خُصصتْ إحدى قاعاته للاجتماعات والاستقبالات والمراسم، وهيأت غرفاً خاصة للكتاب.

إن المنحوتة البازلتية المكتشفة في الجهة الشرقية من أساسات الجدار الشمالي للجامع الأموي الكبير عام ١٩٤٩م وجدت بطول ٨٠ سم وارتفاع ٧٠ سم وسماكة ٣١ - ٥١ سم، وقد نحت على الجدار مشهد (أبو الهول) يمشي إلى جهة اليسار المشاهد وله أجنحة مزدوجة، ولحية طويلة، ويعلو رأسه تاج مزدوج مسطح، واللوحات العاجية المكتشفة في أرسلان طاش عام ١٩٢٨م تُعدُّ آثاراً فنية هامة ووثائق ولادة حورس، والشجرة المقدسة، وأبو الهول المُجنح، ووجه امرأة يطل من النافذة على عالم الأحياء، وبقرة ترضع عجلها، وغزالاً يقضم العشب.

وأما على صعيد الأدب فإن جمال طبيعة دمشق وسحر غوطتها في تلك الحقبة، كل ذلك انعكس في أدب متنوع وكتابات مختلفة وأناشيد وأساطير وملاحم وخرافات ونصائح وحكم تربوية وحياتية، ولا بد أن أسلوبها الأدبي الرفيع لا يقل جمالاً عن الأسلوب الذي تميز به الأدب الفينيقي والعهد القديم.

وإذا كان من سوء الحظ أنه لم يصلنا شيء ما من ذلك الأدب الآرامي القديم في عصر ازدهار دمشق، فإن ذلك يجعلنا نقدر تلك الخسارة الثقافية الكبرى الناتجة عن ضياع روائع ما أبدعه أولئك الأدباء القدماء الذين كان من

أحفادهم (أحيقار) المشهور بحكمته الحياتية التي تُعتبرُ من روائع الأدب العالمي في التاريخ القديم[1].

٤- اللغة الآرامية :

إن اتساع اللغة الآرامية كان أكبر بكثير من المجال الذي امتدت إليه الدول الآرامية، فقد كانت الآرامية معروفة في سلسلة الدول التي امتدت خلال بدايات الألف الأول ق.م في المناطق التي عُرِفَتْ باسم سورية العليا على سفوح جبال طوروس، وقد احتفظت هذه البلاد بملامح الحياة الحثية والثقافة الحثية ومنها اللغة بصورة خاصة في (ميليد، ملاطية، طابال، خيلاكو، كيليكية، جورجوم، كوموخو، وهي كوماجين).

وتنتمي اللغة الآرامية إلى مجموعة لغوية واسعة هي مجموعة اللغات السامية، وقد استخدم هذا المصطلح منذ أواخر القرن التاسع عشر ليدل على اللغات التي تكلمها البابليون والآشوريون والكنعانيون والآراميون والعبريون والعرب وشعوب أخرى.

ومع توسع الدراسات المتعلقة بلغات وثقافات الشرق الأدنى القديم أطلقت هذه الصفة «سامية» على لغات أخرى من نفس المجموعة اللغوية حيث اكتشفت ودرست منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر ق.م، مثل الأكادية وفروعها، والكنعانية وفروعها، وقد أظهرت الدراسات ما بين هذه اللغات واللهجات المختلفة المتفرعة منها من عناصر التشابه والتقارب الوثيق في بنيتها، وفي كثير من مظاهر تطورها في المراحل المختلفة.

---

(١) بشير زهدي: دمشق في عهود قدماء العرب الآراميين، مرجع سبق ذكره، ص١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠.

كتابات آرامية (٤)

إن جميع هذه العوامل تدعو إلى الاعتقاد وذلك طبعاً دون إغفال لعاملي اختلاف الزمان والمكان عبر التاريخ الطويل، بوجود أصل أولي واحد لهذه اللغات، أي بوجود لغة سامية أم تفرعت منها سائر اللغات واللهجات[1].

إن الآراميين الذين انتشروا في شبه جزيرة العرب انقسموا حسب المواقع التي شغلوها إلى لهجات تراوحت ما بين السريانية الشمالية الشرقية التي أتوا بها، وبين الكنعانية التي هي مزيج من اللهجات الثلاث وبين عربية شبه جزيرة العرب.

وهكذا فقد انقسم الآراميون ككل العرب الآخرين بين لهجتين عربيتين أساسيتين وفق المناطق التي شغلوها، ولو اتسع نطاق انتشار الآراميين في تلك الحقبة ليشمل المناطق الغربية من سورية لظهرت بينهم اللهجة العربية الأساسية الثالثة التي هي الأمورية، لكن هذا لا يعني قطعاً أن الآراميين هم الذين أوجدوا هذه اللهجات، حيث أن هذه اللهجة هي الأصل وهي المتعلقة بتطورهم ونشاطاتهم وفعالياتهم[2].

وإن أقرب اللغات السامية إلى الآرامية هي الكنعانية ــ الفينيقية والعبرية ــ والعربية. وتضم الآرامية مجموعة متعددة من اللهجات، وذلك لأن اللغة استخدمت بصفتها لغة للكلام وللكتابة في أقطار عديدة خلال تاريخ الشرق الأدنى الطويل منذ الألف الأول ق.م، والحقيقة هي أن الآرامية لا تدل على لغة واحدة فقط، بل إنها تدل على مجموعة لغوية غنية ومعقدة كاللغة العربية ولهجاتها المُتعددة[3].

---

(١) د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سورية القديم، مرجع سبق ذكره، ص١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) أحمد داوّد: تاريخ سورية القديم، مرجع سبق ذكره، ص٥٨٦ ـ ٥٨٧.

(٣) د. محمد حرب فرزات: موجز في تاريخ سورية القديم، مرجع سبق ذكره ص١٥٧ ـ ١٥٨.

ويقول الدكتور علي أبو عساف كبير الآثاريين السوريين: في كتابه «الآراميون»: «بأن اللغة العبرية قد اختفت من الوجود وحلت محلها اللغة الآرامية وذلك في عهد المكابين عام (١٩٥ ــ ١٦٤ ق.م)، وبقي اليهود يتكلمونها حتى القرن الرابع الميلادي، وهذا يثبت أن الآرامية كانت لغة السيد المسيح، وقد أضحت الآرامية لغة الناس في بلاد الشام لا تنافسها سوى شقيقتها العربية التي أفادت الآرامية واستفادت منها»[١].

وقد دعاها بعض العلماء الأقدمين باسم (اللغة النهرية) نسبة إلى نهري دجلة والفرات لازدهار الآرامية على ضفاف هذين النهرين العظيمين[٢]، وإن لهجة الآراميين في منطقة نينوى وبابل وسومر والخليج هي السريانية القديمة، «وقد اتخذت اللغة الآرامية في العهود الهلنستية والرومانية والبيزنطية، موقف المدافع عن قومية البلاد تجاه التيار الثقافي اليوناني واللاتيني عصرئذ، فبرهن أولئك المواطنون باهتمامهم بلغتهم الآرامية الـ مـة على حسهم الحضاري ووعيهم القومي»[٣].

٥ـ الآثار الآرامية :

إن موجات شعوب البحر التي حلت بالشرق القديم في مطلع القرن الثاني عشر ق.م (عصر الحديد)، قَدِمَتْ من البلقان وضمت الفريجيون والأتروسيكون والدوريون والفلستيون، وقامت باكتساح آسيا الصغرى وبلاد الشام وهددت

---

(١) د. علي أبو عساف: الآراميون، ص٨٧، ٨٩.

(٢) حنا فرنسيس: الآرامية المحكية، دار الأبجدية للنشر، دمشق عام ١٩٩٢م، ص٨.

(٣) بشير زهدي: دمشق في عهود قدماء العرب الآراميين، مرجع سبق ذكره، ص١٤٠.

مصر، وبعد هذا الاجتياح ساد المنطقة فترة مظلمة انتهت ببروز قوة جديدة في المنطقة هم الآراميون الذين جابوا البادية السورية منذ النصف الثاني للألف الثاني ق.م، وقد أقام الآراميون في بعض المدن التي سيطر عليها الحثيون وكان لهم منذ مطلع الألف الأول ق.م ممالك أعطوها اسم قبائلهم، وقد بقي للآراميين طابعهم الخارجي بالرغم من تأثرهم بالحثيين والآشوريين حتى الاجتياح الآشوري المباشر لبلاد الشام والقضاء علىالممالك الآرامية في نهاية القرن الثامن ق.م (٧٢٠ ق.م)، وقد أسفرت التنقيبات الآثارية في المواقع الآرامية عن حضارة ناضجة وغزيرة فيما يلي أهم مظاهرها على صعيد الفن المعماري والنحت وبقية الأوابد الأثرية التي تفصح عن أصالة وماض تليد.

لقد بنى الآراميون مدنهم في مناطق مرتفعة محصنة بشكل طبيعي، وبأسوار منيعة، وفي هذه المدن أقاموا القصور والمعابد المسورة، وقد شاد الآراميون في تل حلف (جوزن) عاصمة مملكة (بيت بخيالي)، وأدت التنقيبات الآثارية التي جرت منذ مطلع هذا القرن إلى الكشف عن مدينة شيدت فوق مستوطنة تعود إلى الألف الخامس ق.م (حضارة حلف).

وفي هذا الموقع ظهرت مدينة محصنة بسور مستطيل تألفت من الحي الملكي والحي السكني، وتقوم في الحي الملكي قلعة، وقد أحيط بدوره، بسور دفاعي وفيه وجد البناء الهام المسمى بالمعبد ـ القصر، إذ وجدت كتابات على أحجار هذا البناء تشير إليه تارة باسم المعبد وأخرى باسم القصر، وتجعلنا نستنتج أن (كبارا بن خاديانو) أحد ملوك «جوزن» الذي ورد اسمه على البناء قد شاد هنا قصراً مستخدماً أحجار معبد سابق، وبني قصر (كبارا) وفق نموذج متميز عُرف بالبيت العالي (بيت هيلاني)، وقد تألف مخططه العام من قاعة مستطيلة أولى،

بابها عريض له رواق يرتفع على أعمدة، يليها قاعة ثانية مستطيلة أيضاً وفي وسطها موقد وهي تمثل قاعة العرش الرئيسية، وأما مدخل القصر باحة مكشوفة مسورة لها مدخل يليه درج كبير من الحجر المنحوت ويقود عبر باحة إلى صالة مستطيلة أولى (٣٦,٧٥ × ٥,٢٢م) فيها مدخل عريض (٩×٦م)، يستند على ثلاثة أعمدة بازلتية ضخمة، ويلي هذه الصالة صالة ثانية مستطيلة بنفس طول الأولى ولكن أعرض منها (٨م) بينهما مدخل أصغر (٤م) يقع على نفس محور مدخل القاعة الأولى، وقد وضعت على مدخل هذه القاعة تماثيل لكائنات خرافية، وفي الوسط يوجد موقد معدني ضخم (١٤٠ × ١٢٠ × ٢٠ سم) يتحرك على أربع عجلات، وإلى الشرق من القصر تقوم بوابة ضخمة تربط بينه وبين بقية أقسام الحي الملكي، وهي توصل إلى ساحة عامة أمام القصر، وقد زينت المصطبة التي يقومُ عليها القصر ومدخله بمنحوتات حجرية رائعة.

لقد عُثِرَ على نموذج (بيت هيلاني) في عدة مدن أخرى منها (تل الطعينات) في منطقة العمق (مملكة عنقي الآرامية) وفي (شمأل)، وجديرٌ بالذكر أنه يدور نقاش طويل حول أصل بناء بيت هيلاني المتميز، فيعيده البعض إلى الميتانيين الذين بنوا قصراً (نقميبا) في الالاخ في القرن الخامس عشر ق.م، أو إلى الحثيين الذين بنوه في عاصمتهم (حاتوشا)، ومهما يكن من أمر فإن هذا الطراز من البناء قد أخذ على يد الآراميين شكله الأكمل وأصبح بناء آرامياً ـ سورياً محضاً.

ونتعرفُ على العمارة الآرامية من مملكة (حداتو) شمالي بلاد الشام، حيثُ كانت هذه المدينة محاطة بسورٍ بيضوي من اللبن على أساس من الحجر فيه ثلاث بوابات تحرسها أسود بازلتية أعطت الموقع اسمه الحديث (أرسلان طاش) أي الأسد الحجري، وتُزين البوابات لوحات حجرية منحوتة.

وعندما احتل الآشوريون أرسلان طاش في القرن الثامن ق.م في عهد الملك الآشوري (تجلات بليسر الثالث Tiglat plezzar III (٧٤٤ - ٧٢٧ سنة ق.م)، بنوا فيها قصراً مؤلفاً من جناحين رئيسيين، الجناح الرسمي في الغرب (بابانو)، ويتألف من صالة تحيط بها الغرف الصغيرة من كل جهاتها، ثم الجناح السكني (بيتانو) الذي يلتف حول قاعة مركزية أخرى في شمالها صالة كبيرة فيها موقد، وتفصل هذين القسمين عن بعض صالة العرش الكبيرة، وهذا هو نفس مخطط قصور نينوى.

لقد زُينت جدران القصر برسوم جميلة فيها عدة موضوعات حربية زخرفية تشابه ما عُثِرَ عليه في قصور نينوى، وفي موقع آخر للآراميين وهو تل أحمر (بارسيب)، عُثِرَ على قصر مشابه لقصر حداتو لكن تخرب جزء كبير منه، ووجدت رسوم جدارية فيه تمثل مشاهد حربية ولوحات صيد وأشكال بشرية وحيوانية متنوعة.

كما أُحيطتْ (شمأل) التي أصبح اسمها (بيت جبر) في عهد الدولة الآشورية، بسور خارجي دائري الشكل قطره (٧٢٠ م) وارتفاعه متر واحد، وله ثلاث بوابات واحدة رئيسية في الجنوب تحيط بها الأبراج ومزينة بألواح حجرية وهي تقود إلى القلعة، واثنتان فرعيتان في الشرق والغرب، وداخل هذا السور تقوم القلعة التي تضم قصور ملوك شمأل وهم «كيلاموه»، «بانامو»، «براكوب».

ومن جهة أُخرى فإن معبد «عين دارة» الذي تقبع فيه أطلال مدينة (كونلو) أو (أرباد) القديمة، والذي نقب فيه الآثاري الألماني د. هرتموت كونه من الجامعة الحرة في برلين يُعطينا فكرة جيدة عن العمارة الدينية لدى الآراميين،

حيث بُني المعبد فوق مصطبة مرتفعة (٣٨ × ٣٢ × ٢,١٠ م) كُسيت واجهاتها بالأحجار البازلتية المنحوتة على شكل أسود وأبي الهول الآرامي.

وكان مُخططُ المعبد من نوع (بيت هيلاني)، حيث أن المدخل واسع يُصعدُ إليه بدرج ضخم مزخرف يقود إلى حرم المعبد (٢٤ × ١٦م) الذي يحيط به رواق، وتقوم في الحرم تماثيل للآلهة عشتار وإله الجبل، ولوحات حجرية أخرى.

وإن أهم ما يميز هذا المعبد شكل الأقدام الكبيرة المنحوتة على مدخله، كما كُشِفَ عن معابد أرامية أخرى بنيت حسب نموذج المعبد ذي الرواق المعروف من بلاد الشام منذ الألف الثاني ق.م، والذي تكرر في (تل الطعينات).

وقام الآراميون بنحت المسلات ذات الموضوعات الدينية والحربية، وقد عُثِرَ على عدةِ قطعٍ من هذا النوع مثل نصب الربة عشتار في (تل أحمر) والنصب الذي وجد في (تل العشارة) في الفرات بسورية التي كانت تابعة لمملكة (لاقي) الآرامية، والذي يمثل انتصار الملك الآشوري (توكولتي نينورتا Tukulti Ninnrall) الثاني في القرن التاسع ق.م على بلاد لاقي، إذ نُقشَتْ حية بلاد لاقي، وعلى الوجه الآخر الرب حدد يقبض على الحية ويهم بقطع رأسها بالقدوم، بينما على وجه ثالث والد (توكولتي نينورتا) يبارك المشهد.

وفي (شمأل) عُثِرَ على العديد من اللوحات الأثرية التي زُينتْ مداخل المدينة وقصورها، وبعض هذه اللوحات يعود للقرن التاسع ق.م، وهي تُعاصر منحوتات (جوزن)، كما عُثِرَ على تمثال كبير (٣م) لملك شمأل، الذي ظهر جامداً اسطواني الشكل يرتدي ثوباً طويلاً يشده حزام عريض تحته سيف.

كما تُعَدُّ الآثار العاجية من التقاليد العريقة لبلاد الشام الأمورية ـ الكنعانية ولا يشذ عن هذه التقاليد الآراميون الذين تابعوا هذه الصناعة في مراكزهم

الأساسية كدمشق وحماه، ومثـل إخوانهـم الكنعـانيين ــ الفينيقيـين ــ في بجيـدو وصيدا وجبيل وصور على المنحوتات الحجرية، نرى التأثير المصري واضحـاً في الآثار العاجية، لكن هذه التأثيرات المصرية لم تكن لدى الآراميين تقليـداً جـامداً بل ابتكاراً وإبداعاً ديناميكياً عكس روح بلاد الشام وحضارتها الشـاخصة عـبر الحقب والعصور.

وعُثِرَ على قطع أثاث فـاخر في مدينـة النمـرود (كلخـو) الآشـورية القابعـة أطلالها الآن عند مصب رافد الزاب الأعلى في نهر دجلـة جنوبـي المُوصـل، وفي (أرسلان طاش) في سورية حيث وجد في هذا الموقع قطـع اثـاث ملكيـة كُتِبَـتْ عليها اسم (حزائيل) ملك دمشق الآرامي[1].

ومن القطع الأثرية المهمة نصـب الملـك (كيلامـوه) مـع ابنـه، وأمامـه نـص آرامـي عـن حياتـه، ويُعتـبرُ هـذا النصـب إضافـة إلى اللوحــات والنصــب ذات الموضوعات المستقلة، فقـد عَـرِفَ الآراميـون النصـب ذات الموضوعـات الأدبيـة القصصية المتكاملة كنصب (تل العشارة).

وأسفرت التنقيبات الآثارية أيضاً عن اكتشاف وثائق هامـة ونقـوش آراميـة مثـل (نصـب ذكـير)، و(نصـوص السـفيرة) الـتي أدت إلى إعـادة صياغـة تـاريخ الآراميين بصورة تمكن من إيضاح الدور الذي قاموا به في المنطقـة بكونهـم أهـم الشعوب القديمة في مرحلة الألف الأول ق.م.

---

(١) د. سلطان محيسن: آثار الوطن العربي القديم، مرجع سبق ذكره، ص٢٢٠ ـ ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٢٩.



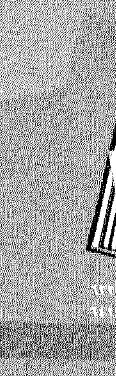
هذا الكتاب

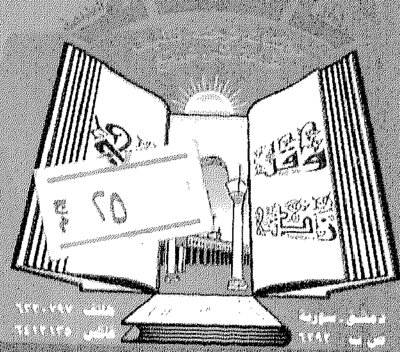
أدتْ الاكتشافات الأثارية الحديثة في منطقة الشرق الأدنى القديم إلى تبيان الكثير من المواقع الأثريــة المُهمة التي تؤكد عمق الحضارة الإنسانية منذ عصور ما قبل التاريخ، مروراً بمرحلة العصور التاريخية، وقد دأبــتْ بعثات التنقيب الأثاري في بلاد الشام بشكلٍ جاهد وحثيث للكشف عن مواقع التاريخ القديم للمنطقة، الذي يعتبرُ حلقةً مُهمة في مُجمل فعاليات حركة التاريخ القديم للوطن العربي.

لقد تجلتْ وبرزتْ عدة مواقع تاريخية تؤكد صروحها وأوابدها، وما جسدتهُ من مضامين سياســية واقتصادية واجتماعية وثقافية وعلمية وفنية، اســتمرارية التطور الحضاري والإنســاني في هذه البقعة من أرض العرب، لتغدو عاملاً مُهماً وأساسياً في بناء الصرح الحضاري العربي بفعل ما أضفتهُ من نشاطات وفعاليات وإنجازات بالغة الأهمية على هذا الصعيد.

وتدلنا آثار دمشق وأريحا وإيبلا وجبيل وأوغاريت وماري على نضج مُتميز وحركة واسعة النطاق باتجاه بناء الإنسان فكراً وقيماً، وتوظيف متكامل لرؤى هــذا الإنســان في رحلة مُعترك الحياة منذ الحقب التاريخية الغابرة صوب إنجاز المهمات التي تتطلبها المرحلة التاريخية، وتأمين مُستلزمات الحياة الحرة الكريمة.

من هُنا تتجلى أهمية تسليط الأضواء على هذا التاريخ الشامخ لتوظيف المخزون الحضاري عبر الزمن صوب استقلالية الوطن والحفاظ على هويته ليكون بمُستوى التحديات السياسية والحضارية الراهنــة، لا سيما وأنّ الوطن العربي هو مهد الحضارات القديمة، وشــهدَ بزوغ أوّل فجر حضاري أمدّ البشرية بأسباب المدنية والنهوض.





دمشق - سورية
ص.ب ٦٢٩٢
هاتف ٦٣٣٠٧٩٧
فاكس ٦١١٢١٣٥

مؤسسة غبور للطباعة
هاتف: ٦٤١٠٤٤٤